وطوالع أزهار المواهب الربانية

من أفنان

رياض النفحة القدسية

لسيدنا الشيخ السمان

تأليف

الشيخ صديق المدني بن عمر خان

تدم له وراجعه

أحمد عبد المجيد هريدى

ماجستير فى الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

مكتبة القاهرة

لصاحبها على يوسف سليمان

ت : ٥٩٠٥٩٠٩

ص ب ١٩٤٦ الأزهر

بالصنادقية ميدان الأزهر الشريف بمصر

طبع بعناية
مكـتبة القاهرة
ص - ب ٩٤٦ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

طلب إلى الشيخ أحمد البدوى السمانى أن أقوم بمهمة نشر مخطوطة كتاب « قطف أزهار المواهب الربانية من أفنان رياض النفحة القدسية » من تأليف الشيخ صديق المدنى بن عمر خان ، وهو شرح للقصيدة العينية المعروفة بالنفحة القدسية لمولانا الشيخ محمد بن عبد الكريم القرشى القادرى المدنى الشهير بالسمان ، فلم يكن أمامى إلا إجابته إلى ما طلب فقمت بتصحيح الكتاب ومراجعته وكان لابد من كلمة عن الناظم وأخرى عن الشارح وثالثة عن صاحب الفضل فى بعث هذا الكتاب ونشره .

الناظم

سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم القرشى

حياته ومؤلفاته

نسبه ومولده :

ذكر المرادى(١) والزرعتى(٢) أنه أبو عبدالله قطب الدين محمد بن الشيخ عبد الكريم بن محمد بن حسن القرشى القادرى المدنى الشافعى السمان ، ولد فى مدينة سيد المرسلين وقد اختلف فى تاريخ مولده فبينما يذكر المرادى أنه ولد عام ألف ومائة وثلاثين من الهجرة يذكر الزرعتى أنه ولد عام ألف ومائة واثنين وثلاثين للهجرة .

---

(١) سلك الدرر ٤ / ٦٠ — ٦١ .

(٢) درة عقد جيد الزمان ٨ — ١٠ .

حيـاته :(١)

ولد سيدى الشيخ السمان رحمه الله بطيبة الطيبة مدينة سيد المرسلين ، وبها نشأ على أحسن حالة وحفظ القرآن الكريم ، وأتقنه ونال به أربح متجر وتربى فى بركة والده الشيخ عبد الكريم ، ومنحه الله عواطف بره العميم والتوفيق والهداية والخلق العظيم ، وسبقت له من الله السعادة الرحمانية وساعدته النفحات الصمدانية .

واصطفاه الله له وليا من سائر البرية ، فنشب صالحا فى مجالس الأذكار ، قائما بالأوامر آناء الليل وأطراف النهار ، ملازما للرياضات كثير الأوراد والاستغفار ، متعاهدا للمسجد النبوى ، لاسيما وقت السحر ، مشتغلا بحب الفضلاء والصالحين ، باذلا جهده فى خدمة الفقراء والمساكين .

شيـوخه :

اشتغل سيدى السمان خلال ذلك الوقت بالعلوم العقلية والنقلية ، ومطالعة كتب القوم الصوفية والاستمداد من الحضرة الشريفة المحمدية ، إلى أن فتح الله عليه بما هو أحق به وأجدر وثقف العلوم ، وكرع من بحر شيوخ عصره ـ وقد ذكر الزرعتى أنه أخذ العلم عن :

الشيخ عبد الوهاب الطنطاوى .

والشيخ محمد الدقاق .

والشيخ محمد حياة السندى المدنى .

---

(١) اعتمدت فى هذه الترجمة على سلك الدرر للمرادى ودرة عقد جيد الزمان للزرعتى وما ذكره الشارح فى كتابه من أخبار عن شيوخ وتلاميذ الناظم .

والشيخ محمد المغربى

وأخذ الطريقة عن الأستاذ الأعظم سيدى مصطفى البكرى . وأضاف المرادى فى كتابه « سلك الدرر » أنه تلقى العلم أيضا على الشيخ محمد سليمان الكردى نزيل المدينة المنورة .

وزاد الشيخ صديق فى كتابه « قطف أزهار المواهب الربانية » - وهو هذا الكتاب الذى بين يديك - شيخين آخرين تلقى منهما الشيخ السمان العلم وهما :

الشيخ محمد الحفناوى شيخ الإسلام بمصر .

والشيخ على العطار الحلبى .

تلاميذه :

ثم أن الشيخ السمان بعد أن تلقى العلوم الروحيه ، قام على وظائف الأوراد والأذكار والإرشاد والتسليك فى داره التى يسكنها ، وهى دار سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وتعرف بالمدرسة السنجارية ، وهى مشتملة على حجر كثيرة كانت فى وقفه ، ينزل فيها الغرباء الواردون على المدينة من الآفاق ، وأخذ عنه الجم الغفير من أهل المدينة ، كما يذكر المرادى فى « سلك الدرر » .

وقد ذكر الزرعتى أن جملة من المشايخ والخلائق قد تلقوا عنه المواهب والطرائق ، وعلوم التصوف والدقائق ، وأتوا إليه من كل فج عميق ، وكل على قدر مقامه يغترف من بحره بإناء التوفيق ويستزيد من فيض فضله الفائض الموفر ومن هؤلاء المشايخ والخلائق :

سيدى الشيخ عمر الشنقيطى المتوفى بطرابلس الغرب .

وسيدى الشيخ عبد الخالق الزجاجى (المزجاجى) .

وسيدى الشيخ حمد العبادى خليفته بمصر .

وسيدى الشيخ أحمد الطيب العباسى - وانظر لمناقبه كتاب « أزاهير الرياض لسيدى الشيخ عبد المحمود ابن سيدى الشيخ نور الدايم .

وكذلك أخذ عنه أيضا سيدى الشيخ عبد الرحمن النشينى .

وكان من أجل تلامذته أخذا وأعظمهم منارا سيدى الشيخ عبد الصمد الجاوى الفلنبانى المكى ، وهو الذى من أجله ألف الشيخ صديق المدنى كتابه هذا .

وقد أضاف الشيخ صديق المدنى فى كتابه - إلى معارفنا - مريدين آخرين هم الشيوخ :

إبراهيم خليل الزبيدى .

وسعد الدين الكابلى .

وأحمد السوسى .

والحاج رجب الصعيدى .

وحمد الجيلى الصعيدى .

وعبد الرحمن عبد العزيز المغربى العمرى .

وأحمد صنو السيد يس مفتى البصرة .

وعلى الشامى .

وإبراهيم القولباوى وابنه .

وعبد الغنى المفتى الهندى .

وعبد الكريم الهندى الملتانى .

وإبراهيم الغلام الشافعى المدرس بالمسجد النبوى .

والقاضى عباس بن عبد القادر المكى والذى يذكر الشيخ صديق عنه

أنه مات فى حياة شيخه السمان ، وأن الشيخ السمان ذكر أن سبب موته ثقل حبه لأستاذه السمان عليه .

وأيضا أخذ عنه عبد الله شريف .

وكذلك أخذ الشيخ صديق المدنى عن شيخه السمان ولازمه قرابة خمس وعشرين سنة .

تآليفـــه :

ألف سيدى الشيخ السمان عدة مؤلفات ، ضاع بعضها من الدفاتر ولم تحفظه السطور ، وإن لم يضع من الصدور ، ومما لم يصلنا من مؤلفاته ، وذكره الزركلى الكتب التالية :

١ — « النصيحة العلوية للسادة الأهدلية » .

٢ — « تحفة القوم فى مهمات الرؤية والنوم » .

٣ — « عنوان الجلوة فى شأن الخلوة » .

٤ — « الفتوحات الإلهية فى الفتوحات الروحية للحضرة المحمدية » .

ومما بقى من مؤلفاته ـ وقد جمعنا بياناتها من فهارس المخطوطات والمطبوعات ـ الكتب التالية :

١ — « كشف الأسرار فيما يتعلق باسمه القهار » ، وقد طبع بعنوان « رسالة فى شرح اسمه القهار » .

٢ — « قصيدة جالية الكرب ومنيلة الأرب » ، وتسمى « الاستغاثة » أيضا ، ولها شروح ، ومنها :

(ا) الجنى اليانع الأقرب تأليف السيد محمد الجفرى وطبع بمطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة ١٣٢٦ هـ .

(ب) تقيس القصب وشفاء الوصب لسيدى الشيخ عبدالمحمود بن سيدى الشيخ نور الدايم طبع بالقاهرة بمطبعة الزينى ١٣٢٦ هـ .

(حـ) شرح مجهول المؤلف فى برلين مخطوط رقم ٣٩٤٣ وآخر فى مكتبة باتافيا بجاكارتا بأندونيسيا .

٣ — « الفتوحات الإلهية فى التوجهات الروحية » ، منه مخطوطة بمكتبة الأزهر برقم ٦٠٢ مجاميع السقا ، ٢٨٩٣٤ ، وأوراقها ٢٧ ورقة ضمن مجموعة ، ومنه نسخة أخرى بمكتبة بانكيبور بالهند .

٤ — « النفحة القدسية » وشرحها المسمى قطف أزهار المواهب الربانية لسيدى الشيخ صديق بن عمر خان وهو هذا الكتاب الذى بين يديك - وقد طبعت النفحة القدسية وهى قصيدة عينية ضمن كتاب درة عقد جيد الزمان فى مناقب سيدى السمان ص ١٩ - ٢٣ .

٥ — « مختصر الطريقة المحمدية » ، والطريقة لمحمد بن بير على البركوى المتوفى ٩٨١ هـ ومن المختصر نسخة مخطوطة بمكتبة باريس برقم ٤٩٠٩ .

٦ — « إغاثة اللهفان ومؤانسة الولهان فى الذكر وآدابه وكيفياته » ، مخطوطة بمكتبة الأزهر برقم ٧٩٨ حليم ٣٣٤٣٢ وهو مطبوع .

٧ — « الصلاة السمانية » ، وهى مطبوعة باسم « نقطة دائرة الوجود » ضمن كتاب « سر الأسرار والصلوات الطيبية » .

٨ — « النفحات الالهية فى كيفية سلوك الطريقة المحمدية » ، وقد طبع بعنوان « النفحات السمانية ... » فى مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة ١٣٢٦هـ

كراماته :

وأما كرامات الشيخ السمان فراجع عنها درة عقد جيد الزمان ص ١٦ - ١٨ .

وفاتــه :

توفى الشيخ السمان يوم الأربعاء ثانى شهر ذى الحجة الحرام سنة ألف ومائة وتسعة وثمانين من هجرة سيد الأنام ودفن بالبقيع الفسيح الرفيع المنور بعد أن أحسن الله له الكمالات وأسعد بدأه وختامه .

الشــارح

سيدى الشيخ صديق المدنى بن عمر خان

ضنت كتب التراجم عن الترجمة للشارح واستطعنا تعرف اسمه من عنوان كتابه « كشف الأستار الوهمية » والمحفوظ بدار الكتب المصرية وهو :

صديق المدنى بن عمر خان .

ولم نعثر على تاريخ مولده ولكن الثابت أنه ولد بالهند حسبما يذكر فى كتابه ، وقد استقينا أخباره من كتابه « قطف أزهار المواهب الربانية » وصنعنا له ترجمته .

فهو يذكر فى كتابه أن أصله من الهند ثم ذهب إلى المدينة وهناك تعرف على السيد محسن مقيبل الذى أشار عليه بالذهاب معه إلى الشيخ محمد السمان لأخذ البيعة منه .

وكان أن فعل ولازم الشيخ السمان نحوا من خمس وعشرين سنة ، فتكون الفترة الزمنية لاتصاله بالشيخ السمان فى حدود عام ١١٦٤ هـ .

ثم يذكر الشارح أنه رحل إلى سنار بالسودان وأخذ هناك عن الشيخ محمد بن عثمان الصايغ السنارى .

ويذكر أيضا أنه ذهب إلى زبيد باليمن وأنه تلقى العلم عن سيدى الشيخ محمد بن عثمان المكى .

مؤلفات الشارح :

استطعت جمع أسماء هذه المؤلفات من فهارس المكتبات وكتابه وهى :

١ — « النفحة السمانية فى محاسن الطريقة القادرية » .

٢ — « مرشدة الطلاب إلى سلوك طريق الأحباب » .

٣ — « المواهب الربانية فى محاسن الطريقة القادرية » .

٤ — « فتح المجيب فى شرح توضأ بماء الغيب » .

٥ — « صلاة فى المجيب اسمها الفرج القريب » .

٦ — « حزب » اسمه الحزب الأغر للحفظ من كل شر .

٧ — « قطف أزهار العلوم الدينية فى شرح النفحة القدسية » .

٨ — « منائح الكريم المنان فى مناقب سيدى الشيخ محمد السمان » .
وقد ضاعت ولم يبق منها سوى :

٩ — « كشف الأستار (الأسرار) الوهمية عن جمال محيا النفحة القدسية » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١٧٥ مجاميع وله أيضا ثلاث قصائد ذكر مطالعها فى كتابه هذا وهى :

١ — قصيدة نونية فى الوحدة مطلعها :

قسما بسر السر من تكوينى وبنوره المشهود فى التكوين

٢ — قصيدة يائية مطلعها :

فى الحى قالوا غزال ليس يحكيه
شمس ولا قمر فى الحسن والتيه

٣ — قصيدة تائية وذكر أنها تنوف عن مائة بيت مطلعها :

سحبت ذيول التيه فخرا بنشأتي
وهمت بسكرى بين صحبتي وعشيرتي

شيوخ الشارح :

وقد تلقى الشارح العلوم عن شيوخ أجلاء بعضهم من تلاميذ الناظم ، وقد تعرفتهم من كتابه وهم حسب ورودهم في الكتاب :

١ — سيدي الشيخ محمد عبد الكريم السمان .

٢ — » » إبراهيم الغلام الشافعي المدرس بالمسجد النبوي .

٣ — » » أحمد الزمزمي .

٤ — » » محمد بن عثمان الصايغ السناري .

٥ — » » السيد محسن مقيبل وهو الذي أشار إليه بأخذ البيعة من الشيخ محمد السمان .

٦ — » » عبد الخالق الزجاجي (المزجاجي) .

٧ — » » إبراهيم محمد عبد السلام الزمزمي الشافعي المكي .

٨ — » » عبد الرحمن بن عبد العزيز العمري السماني .

٩ — » » علي الشامي .

١٠ — » » عبد الكريم الهندي الملتاني .

١١ — » » أحمد الفلباني .

١٢ — » » أحمد بن أبي نعامة المغربي .

١٣ — » » أحمد العريان .

١٤ — » » علي الكردي .

١٥ — سيدى الشيخ محمد الحفناوى شيخ الإسلام بمصر .

١٦ — « « السيد مهدى واصل .

١٧ — « « أحمد الأشبولى .

١٨ — « « أحمد الحصارى .

١٩ — « « عبد الرحمن عبد العزيز المغربى .

وفاتــــه :

بحثت المصادر بالترجمة لسيدى الشيخ صديق وتحديد تاريخ ومكان وفاته ولكن ذكر لى الشيخ أحمد البدوى السمانى أنه قرأ فى أحد المخطوطات التى فى حوزته - وهو غائب عنها الآن فى القاهرة - أن للشيخ صديق بن عمر خان المدنى زاوية فى جدة من زوايانا السمانية وأنه دفن بها ومازالت الزاوية تعرف الآن بزاوية السمانية .

كراماته :

ذكر أنه رأى إبليس مرتين واحدة بالهند والأخرى بالحرمين وانظر الحكاية بالكتاب وكانت له كرامة أخرى عندما كان بسنار حين انقطع المطر فاستغاث بقصيدة شيخه سيدى السمان انظر القصة بالكتاب .

النـــــاشر

الشيخ أحمد البدوى السمانى

طلبت إلى الشيخ أحمد البدوى السمانى أن يحدثنى شيئا من أخباره حتى لا نعدم ترجمة له فى حياته - مد الله فى عمره ونفع به - فأخبرنى بالآتى :

اسمى أحمد البدوى ووالدى هو الشيخ السمانى وجدى الشيخ عبد الرحمن

ابن الشيخ أحمد الطيب بن البشير العباسى ، وباقى النسب تجده فى كتاب «أزاهير الرياض» ، ولدت فى حدود عام ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م ، وتلقيت علومى الأولى فى خلوة عمى الشيخ عبد القادر بن الشيخ عبد الرحمن فى بلدة الجيلى مسقط رأسى بالسودان ، ثم بعد ذلك توجهت إلى كتاب البلدة وتلقيت بعض العلوم الدنيوية ، وتوفى والدى أثناء دراستى فتكفلتنى والدتى وشاركها أعمامى فى العناية بى ، إلى أن يفعت والتحقت بالعمل فى مصلحة السكك الحديدية ، وكنت أثناء ذلك أداوم القراءة والاطلاع والتعلم ، ثم أخذت الطريقة عن ابن عمى سيدى الشيخ محمد المبارك رحمه الله وهو ابن سيدى الشيخ عبد المحمود بن سيدى الشيخ نور الدايم الطيبى وكان ذلك قبل انتهاء العقد الثالث من عمرى ، وقد كان لسيدى الشيخ محمد المبارك أثره الكبير على وقد طلبت من أولاده أن يمدونى بما لديهم من مؤلفات له وما رثى به من قصائد وما لديهم من أخبار لأقوم بنشرها وفاء لذكراه العطرة ، إلا أن الوقت لم يسعفهم بالوفاء بما وعدوا ، عسى الله أن يوفقهم فى القريب بإذنه تعالى ـ ثم أنى فى عام ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م اعتزلت خدمة الحكومة للتفرغ لأعمال الطريقة السمانية .

وأخبرنى أيضا أنه يتكسب عيشه من التجارة ليكفل لنفسه ولأخوانه عيشة مقبولة ، وكان ولا يزال يتردد على الحرم النبوى ومكة للحج والزيارة ماوسعه الوقت ، وهو كثير التجوال بين القاهرة والسودان والحجاز وليبيا للاستزادة من المعرفة .

ندعو الله له بالتوفيق وأن يسدد خطاه القاهرة فى يوم الثلاثاء ١٣ / ١١ / ١٩٧٣

منهج النشر

اعتمدت فى نشرى للكتاب على مخطوطة وحيدة ناقصة الأول وبعض أوراق فى وسطها وعدد أوراقها ٩٠ ورقة وتنقص بمقدار ورقة فى آخرها ومسطرتها ٢٣ سطر ومقاس أوراقها ٥ر٢٢× ١٦ سم وحجم الكتابة بالصفحة ١٦×١٠ سم ، وكتبت أبيات القصيدة بحبر أحمر وكذلك لفظة « واعلم » والنقط التى تفصل بين الجمل ، ومن الكتاب نسخة أخرى بمكتبة باتافيا بجاكارتا بأندونيسيا محفوظة برقم ٢٧٩ وعدد أوراقها ٢٩ ورقة منها ٢٣ ورقة مكتوبة و ٣ أوراق بيضاء ومثلها بها رسوم ومنه يتضح أن هذه المخطوطة غير كاملة فاضطررنا للاعتماد على هذه النسخة الناقصة وهى فى حوزة السيد أحمد البدوى السمانى - نفع الله به واستفدنا من مقدمة نسخة باتافيا فى إكمال مقدمة الكتاب .

وقد أشار فهرست باتافيا إلى أن الموجود من شرح القصيدة العينية ١٣ ورقة فقط أما الأوراق الأخرى فبها قصيدة يائية .

وقد أكملت أبيات القصيدة الناقصة من كتاب « درة عقد جيد الزمان وفيض مواهب الرحمن فى بعض مناقب سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم الشهير بالسمان .

وقمت بوضع علامات الترقيم للكتاب ، وميزت الآيات القرآنية وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وآثار صحابته رضوان الله عليهم بين وسين هكذا « . . . . . » .

وميزت أبيات القصيدة فأعجمتها بالشكل ليسهل مطالعة الكتاب ، وضبطت الكتاب على مايقتضيه الرسم الإملائى المتعارف عليه الآن .

وقد كان الشارح لظروف توخيه سجع العبارات يقصر الممدود مثل لفظ البكاء يلفظ به البكا وهو جائز فى الضرورة ، وكذلك كلمة أستاذ يكتبها بالدال غير المعجمة لتوافق السجع وهى لغة فى أستاذ .

مصادر الكتاب :

وقد ذكر المؤلف أنه ألف الكتاب بالفيض الربانى ولم يعتمد فى شرحه على أسفار الصوفية ، بينما تجد فى ثنايا الكتاب نقولا عن « الحكم لابن عطاء الله » فى موضعين و « الجواهر والدرر » للشعرانى فى موضعين آخرين و « الأسئلة النفسية والأجوبة القدسية » للبيرغنى فى موضع واحد .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت لتقديم الكتاب فى الصورة الطيبة التى تلائم قراء الفكر الصوفى ، آملا من الله التوفيق المسدد فى لقاءات أخرى

والله الموفق ؟ أحمد عبد المجيد هريدى

القاهرة ، السيدة زينب ، الجمعة ٢٠ شوال ١٣٩٣ هـ

قطف أزهار المواهب الربانية

من أفنان

رياض النفحة القدسية

لسيدنا الشيخ السمان

تأليف

الشيخ صديق المدني بن عمر خان

بسم الله الرحمن الرحيم

[الحمد لله رب العالمين ، أما بعد فيقول العبد الحقير . المعترف بالجهل والعجز والتقصير . صديق المدني ابن عمر خان خادم قطب دائرة الآمكان . سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم القادرى المدنى الشهير بالسمان .

اعلم يا أخى أنى عبد عاجز ضعيف وطلب منى الأخ فى الطريقة العارف بالله الربانى مولانا الشيخ عبد الصمد الجاوى الفلبانى أن أشرح هذه القصيدة العينية المسمية بالنفحة القدسية المنسوبة لأستاذنا المذكور الذى هو أشهر من علم عليه نور ، وكان قد رأى لى شرحا عليها غير هذا ، ولكنه بلسان الحقائق ، فأمرنى أن أشرحها بلسان الظاهر يفهمها من ليس له الاطلاع على الدقائق فأجبته مستعينا بالله على حل رموزها فى الحال .

ظَهَرْتُ وشَمْسِى فى البَرِيَّةِ سَاطِعُ
وكُلِّى لأَسْرَارِ الوُجُودِ مُطَالِعُ

اعلم يا أخى أن الأولياء رضى الله عنهم ينقسموا فى الظهور على ثلاثة أقسام أعلى وأدنى وأوسط ..(١)] .

المسترشدين رجاء حصول الثواب له فى يوم القيامة لقوله عليه السلام

---

(١) مابين القوسين من مقدمة نسخة باتافيا ، وقد أثبتناه هنا نقلا عن فهرس المكتبة لوجود نقص بالمخطوطة التى اعتمدنا عليها ، ولأن مخطوطة باتافيا ناقصة أيضا حيث أن مجموع أوراقها المكتوبة ٢٣ ورقة فقط ، والقصيدة من بحر الطويل .

« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، وخوف من الوعيد الوارد فى قوله عليه الصلاة والسلام « من علمه الله علما فكتمه عن الناس ألجمه بلجام من نار يوم القيامة » ، وله باعث ثان على ذلك وهو اتفاق جميع العلماء ، على أن العلم المتعدى نفعه إلى الغير أفضل من القاصر وأسمى ، ولكن هذا وإن كان عاملا بالحديث وقول العلماء الأعلام ، فهو أنزل درجة من الأوسط لكونه ترك الأدب مع سيد الأنام ، المبعوث رحمة للخاص والعام ، لأنه كان ينبغى له أن يصبر حتى يأذن له بإشارة تدله على ذلك ، سواء كانت بواسطة مرشده أو بلا واسطة وهذا هو أشرف المسالك ، لأن مقام الإرشاد مقام من مقامات النبوة ، وحرمته كحرمة من يدخل بيت النبى من غير إذن ، ومن فعل ذلك فهو ليس بكامل فى الفتوة ، وأما إذا كان يأذن منه فى اليقظة أو فى المنام ، فهو أكمل له وأسلم من دخول الرياء عليه وبه يكون نائبا عنه فى الأنام ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أعرف به من نفسه إذا كانت صالحة للإرشاد ، أو لإصلاح النفوس المتمردة وتقريبها من حضرة رب العباد ، لأن الظهور مزلة قدم ، وقل من سلم منه إلا من كان على قدم .

واعلم أن كل من ظهر بإذن منه فهو مأمون العاقبة ، وإن هفا هفوة فالدية على العاقلة ، وأما الأوسط فاعلم أن الباعث له إلى التصدر لإرشاد عباد الله ، ودلالتهم على الله ، قوله تعالى على لسان النبى الأواه « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم » ، فهو لما فهم الإشارة تأنى حتى أذن له لأن مفهوم الآية أنه لا ينبغى لأحد أن يقدم على فعل شىء ما مطلقا إلا بعد الإذن ليكون ذلك سببا له فى دفع حظ النفس وعدم تزكيتها ، لأن غير المأذون له ماظهر إلا بعد مارأى نفسه صالحة للظهور ، وهذه الرؤية لا تقابل علم الله فى معرفته بنفسه من كونها صالحة أم لا . قال تعالى « ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ، وتأمل فى كلام إمام المتقين ، ورئيس المتزكين ، كيف يطلب التقوى والتزكية لنفسه صلى الله عليه وسلم بقوله

« اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها » ، وفى هذا الحديث إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغى له أن يزكى نفسه ولو بلغ من الكمالات أقصاها ، بل يراها دائماً بعين النقص ويطلب لها من الله الكمال وتقواها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليرقى بذلك من مراتب الكمالات أعلاها ، وأما الأعلى من هذه الأقسام الثلاثة إن أردت أن تعرف ما الباعث له على دعاء الخليقة إلى الله بلسان حال ففروا إلى الله ؟ . فاعلم أن الباعث له على ذلك ، اقتفاء آثار رسول السيد المالك ، فى بقائه بالقيام بوصف العبودية ، حتى لجأه الأمر بالظهور من حضرة الربوبية ، لأنه صلى الله عليه وسلم ما رجع من مقام القيام بحقوق مولاه ، إلى أعلى رتبة الإرشاد ودعاء من صده الشيطان عن سلوك طريق الهدى وأغواه ، إلا بعد ما أمر بذلك بآيات متعددة وأنذر ، منها قوله تعالى « يا أيها المدثر قم فأنذر » ، ومنها قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ، فتأمل رحمك الله فى هذا التحضيض على تبليغ الرسالة ، يظهر لك أن الكمل من العارفين أرباب الكمال لا يقدمون على الاقدام ، باتصافهم بهذا المقام ، ولا يستطيعون إلا بعد تشديد الأمر عليهم من ذى الهيبة والجلالة ، تأدبا مع الأنبياء الكرام ، وخاتمهم عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، فهؤلاء هم الأعلون ، وخلاصة ما فى خزانة الكون .

واعلم أن الأمر إذا توجه إليهم بالقيام . بمقتضى ما أمروا به من دعاء الأنام ، إما أن يكون بلا واسطة ، أو بواسطة ملك الإلهام ، فإن كان بواسطة ؛ فهو لهم بمنزلة الوحى للرسل عليهم الصلاة والسلام ، لأنهم ورثتهم باتفاق المحققين من العلماء الأعلام ، وإن كان بلا واسطة ، فذلك لهم بمنزلة الحديث القدسى ، الوارد من حضرة الغيب على قلب صاحب الفيض الأنسى .

واعلم يا أخى أن كل من أمر بتبليغ ما عاهد الله عليه من الأولياء حين

كان فى عالم الأرواح ، لا يمكنه التخلف البتة فرارا من الوعيد الوارد فى حق من نقضه على لسان سيد الملاح ، وهو قوله تعالى « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » إلى آخر الآية والعهد الذى عاهد الله هو أن لا يكتم أحدا ماعلمه الله . قال تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبينه للناس ولا يكتمونه » والكتاب مشتمل على شريعة وطريقة وحقيقة ، فالشريعة حقيقتها متضمنة لأمر ونهى وبيان أحكام ، والطريقة هى العمل بمقتضى ماورد فى أحكامه ، والحقيقة هى شهود الحق فى جميع ذلك فمن كان جامعا لهذه الثلاثة فهو العالم العامل ، والولى الكامل والمرشد الواصل .

واعلم أن من كان متصفا بعلم واحد من هذه الثلاثة العلوم وكتمه عن الناس فهو من الذين « يقطعون ما أمر الله به أن يوصل » ، ويفسدون فى الأرض لأنه انحرف عن سواء السبيل وضل ، سيما إذا أخذ فى مقابلة تعليمه لذلك جعلا من حطام الدنيا الفانية اقتداء بما رخصه الجاهلون ، وإن فعل ذلك فقد صدق عليه قوله تعالى « فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون » .

واعلم أيضا يا أخى أن من أمر بنشر ما لديه من المعارف لا يمكنه التخلف كما قررناه سابقا ، لما فيه من إساءة الأدب سابقا ولاحقا بخلاف المأذون له فى ذلك ، فإن له أن يتخلف طلبا للكمال المتوقف على الأمر ومتابعة لرسول السيد المالك ، فإذا جاءه الأمر وظهر بعد ذلك ، يلزمه حينئذ ظهورها لأنه صار وارثا محمديا ، ويدعى فى البرية هاديا مهديا .

واعلم أن الظهور لا يتحصل عليه الولى إلا بشيئين ، ولا يتميز إلا بهما فى الخافقين ، الأول إما أن يلقى الله فى قلب من أراد أن يقربه الحق من حضرته ، بأن هذا ولى فيقصده ويأخذ عنه ويتبرك بصحبته ، والثانى إما أنه يتعاطى الأسباب التى تدل على أنه مرشد لينتفع به الناس ، ويصلوا

بواسطته إلى مقام السادة الأكياس ، كظهور الكرامات ، ونشر العلوم اللدنية . والتحدث بما أنعم الله به عليه من المقامات ، والفتوحات الصمدانية وله أن يفعل ذلك اقتداء بالرسول وسيد الخلائق فى إظهاره للمعجزات والتحدث بما أنعم الله به عليه من شريف المقامات والرقائق كقوله وهو أشرف من حاز المقامات العلا والفخر « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » وكقوله معربا عن فضله الرصين « وأوتيت جوامع الكلم وأنا العاقب الماحى وأنا سيد الأولين والآخرين » ، قال ذلك صلى الله عليه وسلم عملا بقوله « وأما بنعمة ربك فحدث » ، وتشريعا لأمته ليكون الغافل منهم بنعمة ربه على الوجه المشروع محدث .

ثم اعلم أنه لما كان الناظم رضى الله عنه من المحققين العارفين ، ومن أكمل الورثة المحمديين ، جاء بما يحقق كماله للوراثة المحمدية ببرهانين ، ليزيل بهما وهم من شك فى ولايته من الثقلين ، الأول إظهاره على رءوس الأشهاد للكرامات ، التى هى كالمعجزات للرسل وخوارق العادات ، والثانى تحدثه بما أنعم الله به عليه من المعارف ، خصوصا ما نثره منها فى هذه القصيدة من الرقائق واللطائف ومن ثم سماها بالنفحة القدسية ، إشارة إلى أنها واردات عليه من الحضرة الغيبية ، وافتتح نظم عقدها بنثر جواهر الظهور ، لأنه أول وارد أجرى الحق تياره عليه من ينابيع النور ، وفجر أنهاره من أنابيب جنانه ، وجعلها منسابة على عرصات لسانه ، ليحسوها السامعون بأوانى آذان التصديق ، ويرشفونها على أراضى قلوبهم لتنبت لهم من أزهار المعرفة كل ذى رونق أنيق ، فمن فك طلسم كنز جواهر ما نثره الناظم فى هذا المزبور ، على وفق ما أراده من مطابقة المشروع فهو من الأمناء أرباب الحبور والنور ، ومن عاند بحمله له على خلاف مضمون ما فى الرق المنشور ، فهو من أهل الظلمة والله لا يحب كل خوان كفور ، وهاك أيها المنصت إلى هذه الإشارات ، معنى قول الناظم : ظهرت — وع ما أصرح به لك فى هذا السجل من واضح العبارات — ، قوله ظهرت : أى بعد استتارى بغار

حرى التعبد والخمول ، اقتداء بأبى الزهراء وصبر على المقام الثابت فى يوم الذهول ، وظهورى كان بعد ما آن أوان القبول ، وفتح الحق لى أبواب الوصول ، وعرفنى كيف يكون منها الوصول إليه ، والعكوف على أعتابه والتذلل فى ساحاته بين يديه .

واعلم أنه حين آن الأوان المذكور ، جاءنى الأمر من السيد المبرور بالظهور ، فظهرت لا بنفسى بل بالله مرتديا برداء لا حول ولا قوة إلا بالله أى لا حول لى على تقريب عبد مضل إلى حمى مولاه ، ولا قوة لى على دفع خطرات نفسه الأمارة بالسوء إلا بالله العلى سبحانه بأن يحاكيه مخلوق فى استدلاله لمن أراد قربه عليه ، العظيم فى صفاته فلا يشابهه فى جذباته للعبد الآبق جذبات الحادث ولو توجه بكليته إليه ، وشمسى : أى وكراماتى وشبه الكرامات بها لشدة ظهورها ، وانتشار ذكرها كانتشار شعاع الشمس فى الخافقين ، ولهذا لما كان ذلك من وصفها نعتها بكثرة الضياء الكاشف عن حقيقة كل أمر مبهم والماحى لظلمة كل شك ومين .

واعلم أنه من جملة ما كان منبهما على الخليقة شأن خصوصيته فلما شاهدوا كراماته ، وسمعوا مؤلفاته ، استدلوا بهما عليه واستبان لهم بعد الأفول بدر عبوديته كما استدل الخفاش على وجود الشمس بكثرة الضيا ، وآب إلى وكره لكمه منه فى ناظره من صولة سلطنة نورها وعيا .

واعلم أن سبب نعته لها بكثرة الضياء وتخصيصه بظهوره فى البرية ، لكونهم كانوا يجهلون ما خصه الله به من المقامات العلية ، فلما لمعت لهم أنوار كراماته ، وأشعة سطعات بدور مؤلفاته ، استدلوا بكلا النورين على ولايته ، وأقبلوا عليه ليقتبسوا من أنوار مشكاة هدايته ، ومن جملة من استدل بمجموع ما ذكرناه على أنه وحيد الزمان ، ودرة صدفة الوقت والأوان ، وأقبل عليه غير مهمل فى الإقبال ، ولا معول على فسحة الأجل والفراغ من تزاحم الآمال ، وهرع إليه لينتشق من ضائع أزهار عرفانه

ويتضوع بمنشور لشر مندل نثر تبيانه ، العارف بالله الربانى ، مولانا الشيخ عبد الصمد القاطن بمكة الجاوى الفلبانى ، والولى الكامل ذو المناقب الفاخرة ، مولانا الشيخ حمد الحيلى الصعيدى نفعنا الله بهما جميعا فى الدنيا والآخرة ، فأما مولانا الشيخ عبد الصمد فإنه كان سبب اجتماعه بالأستاذ ، والباعث له على اقتطاف أزهار توجهاته حتى بدلاذ ، إنه رأى له مرة كتابا يسمى بالنفحات الإلهية ، جامعا لنفائس عرائس المعارف الربانية ، وسفرا قد حلته بحلاها مناقبه السنية ، ونمقت صفحات لجينه بمعادن محاسنه البهية ، فجمع حين سمع شاذيها شتات همته ، وزم مطاياه بعزم متين نحو فناء عزته قاطعا حبل اتصاله بالعلائق ، لافظا خلف ظهره كل قاطع وعائق ، حتى أناخ بها فى ذات الحى المأنوس ، واحتسى من كأسه حميا حياة النفوس وعاد إلى أم القرى ، والأنوار ساطعة على حر وجهه كشمس الضحى ، وترك بعد ذاك دراسة علم الظاهر واشتغل بالعلم الذى من ارتشف منه من غمرة غفلته صحا ، وأما مولانا الشيخ حمد الحيلى المذكور ، فإنه سمع بعض مؤلفات وشطحات ، ورأى بعض كرامات لناظمها المبرور ، فرغب بعد ماشاهد تلك الكرامات وتعطر بنوار استماع هاتيك المؤلفات ، فى ركوب يعبوب الجد إلى الاغتراف من سلسال رحيق أكوابه ، والانتظام فى سلك عقد بيعته ليكون ممن انتمى إلى سنى رفيع جنابه ، وتوجه بوجيه وجه فؤاده الصادى إلى خليفته بمصر مولانا الشيخ حمد العبادى ، واكترع من خندريسه الصافى ، ولحق بركب القوم ، واستظل معهم بظل ظلال أظلال علوة الضافى ربة المحاسن غالية السوم ، وكل واحد من هذين البدرين المسطورين ، صار داعيا إلى الله وله كرامات أظهر من النيرين ، وقد ذكرت بعضها فى رسالتى التى سميتها بالنفحة السمانية ، فى محاسن الطريقة القادرية .

واعلم أنى ما اقتصرت لك على ذكر هذين الهمامين ، إلا خوفا من التطويل ، وإلا فخلفاؤه كثيرون لايحصون لتفرقهم فى كل مستوطن ظليل ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : وشمسى أى وذكرى بالولاية فى الهوية نوره

ساطع أى منتشر فشبه ذكره بالشمس ولها شعاع وذلك الشعاع منبسط على البسيطة كانبساط نور الشمس على الوجود وعبر عن انتشاره بلفظة ساطع لشدة ظهوره فى جميع الأقطار ، والقرى والأمصار ، وأما معنى قوله وكلى لأسرار الوجود مطالع أى باعتبار كل فرد من العوالم التى اشتملت عليها ذاته كعالم الخيال وعالم المثال وعالم الفكر وعالم الوهم وغير ذلك مما هى منطوية عليه من عالم المعانى .

واعلم أن كل فرد من هذه العوالم المذكورة هى موجودة فيك لأنك إنسان مثله وهو يقابل بوجه توجهه إليك كل فرد منها فيك بنظيره منه اعتناء منه بك فينطبع مافيك فى مرآة قلبه لأن المؤمن إذا صقل قلبه بصقلة الذكر زالت الكدورات المكتسبة من الذنوب عن ظاهر وجهه وصار كالمرآة وهذا مصداق الحديث : « المؤمن مرآة المؤمن » ، فيشاهد مافيك من هذه العوالم كما تشاهد أنت صورتك فى المرآة فيمد كلا منها من الرقائق بما يوافق استعداده فلو تصور مثلا بعد ذلك خيالك صورة غير ما كان محافظا على مراقبتها وحصل منها تشويش له وسألته عن السبب لحدوثها فيه تجد علمها عنده لأن الله تعالى ماجعله نائبا عن رسوله فى أمته يدعوهم إلى الله حتى علمهم بما ينوط بهم من العلل والبواعث وغير ذلك مما يعالج ذلك به ، قال تعالى « علم الإنسان » أى الكامل « مالم يعلم » أى قبل أن يكمل ويصير داعيا إلى الله وهذا هو معنى قوله : وكلى لأسرار الوجود مطالع ، والوجود هنا بمعنى الموجود ، أى وكل فرد من عوالم ذاتى بأسرار كل فرد موجود من العوالم المماثلة لها فى نوعى الإنسانى مطالع لنجوم العلم بأمراضها وعلاجها وبما يصلح لها به معادها وبكل مايقربها إلى الله تعالى .

واعلم أن المريد إذا كان صادقا فى محبة شيخه وناصحا فى خدمته وصحبته فإنه يكافئه على ذلك عملا بقوله تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » وبقوله عليه الصلاة والسلام : « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه » ، ويقوله

العارف : كما يدين الفتى يدان ، أى بأن يقابل كل فرد فيه من هذه العوالم المذكورة بنظيرها منه ليحفظه من الوقوع فيما يخل بتوجهه كما حفظه فى صحبته مثال ذلك أمرك الشيخ بأن تكون دائما متخيلا بخيالك الصورة المحمدية فلازمت على ذلك إلى أن آن أوان الفتح رؤيته مشافهة ثم طرأ على خيالك تخيل صورة أخرى كادت أن تحجبه عن مرابته للصورة المحمدية فإن الشيخ فى هذه الورطة يدركك ويدفع عنك بسطوة سلطنة نور خياله ظلمة تلك الصورة الطارئة عليه قبل أن تتعاظم فتحجبه قبل الكشف عن الصورة التى كان يتخيلها فالشيخ الكامل لا يفارق مريده إذا كان معه على الشرط الذى يلزمه بنظيرها منه ، مثال هذه المعية ما أخبرنى به الشيخ إبراهيم الغلام الشافعى المدرس بالمسجد النبوى قال : رأيت ليلة كأنى أعرج إلى السماء ، حتى وصلت إليها فلما قربت منها رأيت الأستاذ رضى الله عنه سيدى الشيخ محمد السمان أمامى ، ودخل فيها قبلى فتبعته ودخلتها فرأيت فيها ملائكة لا يحصون لكثرتهم ورأيت أجسامهم نورية لونها لون الغمام ، ومشاهدتها لطيفة تقبل الخرق والالتئام ، بل رأيت بعضهم يدخل فى بعض ويخرج منه ، فوقفت أنظر إليهم لحظة ، ثم ألتفت لأنظر إلى الشيخ ، فرأيته صاعدا إلى الملأ الأعلى ، لا يلتفت إليهم لحين رأيته بهذه الحالة تركتهم واقتفيت أثره ثم لم يزل هو يصعد أمامى وأنا أصعد خلفه حتى انتبهت من النوم ، وأنا على تلك الحالة فلما أصبحت من الغد ذهبت إليه وأخبرته بالرؤيا فقال الأمر هو كذلك أى على ما رأيت من كونى معك وأن الملائكة كذلك .
ونظير هذه الواقعة أيضا ما أخبر العارف بالله الورع الزاهد التقى سيدى ومولاى الرئيس أحمد الزمزمى قال: كنت ليلة نائما فى زاوية الأستاذ فرأيت كأن عندى جارية تركية بيضاء حسنة صافية اللون نقية ، فجلست تلاعبنى وألاعبها إلى أن حصل الاحتلام ، فانتبهت مرعوبا من حصولها لى فى هذا المقام ، فلما أصبح الصباح وأشرقت الشمس البهية ، نزل الشيخ وجلس إلى جانبى ووجهه يضىء كالكواكب الدرية ، وسلم ، قبل أن يتكلم ، ونظر إلى

وجهى وتبسم ، وقال لى كيف حالك مع الجارية ، كان البارحة ، ياصاحب الرؤيا الصالحة ، ليت من بات البارحة بجانبك كان بجانبي ، ومن بات يلاعبك كان ملاعبي ، فخجلت حين سمعت منه ذلك ، وتعجبت من كشفه عما هنالك ، فتأمل رحمك الله فى هذه القضية اللطيفة ، يظهر لك لولا أنه كان معك فى الحضرة المثالية بروحه الشريفة ورأى ذلك ، ما أخبره بما صاوله هنالك .

واعلم أن جميع ما كشفت لك عنه حق ، وقول صرحت به الصوفية صدق ، وإن أنكرت جميع ماذكرته لك فيكفيك شاهد لى على ذلك ، قول باب مدينة العلم سيدنا على صهر رسول السيد المالك ، وهو قوله كرم الله وجهه :

أتحسب أنك جــــرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واعلم أنه لما كان مدار العارفين الفكر والجولان ، فهم يدخلون بأرواحهم فى كل عالم من عوالم الحس والمعانى وما يدخل وجوده تحت الإمكان ، ويلجون كل ماكان منها مظهرا للجلال والجمال ، لأنهم متصفون بصفة الكمال ، والناقص يقصر عن الدخول فى هذه الحضرات لنقصه وقصوره ، بخلاف من تكمل بتكميل الله له حين أفناه فيه عن إحساسه وشعوره ، لأن إحساسه وشعوره يقصران عن الكشف بعلم ما هو مذكور إلا إذا صار نورا لأن من شأن النور الانبساط على جميع ماهو مزبور ، فافهم ذلك .

ثم اعلم أنه يحتمل أن يكون معنى وكلى لأسرار الوجود مطالع أراد بالوجود الوجود المطلق وهو وجود الحق القائم به كل موجود والأسرار هى صفات الوجود المطلق المبطونة فى العارف المنصرف بها فى العالم وهذا معنى قوله مطالع أى وكلى باعتبار إفراد صفاتى المفاضة على من أنوار صفات الحق كسمعي وبصري ولساني ورجلي ويدى مظهر صفة من صفاته

دال على أن فاعل به فى كل حركة وسكون ، وموجود بوجوده متصرف به فى جميع الشئون .

واعلم أنه لولا صفاتنا المفاضة علينا من أنوار صفاته ماعلمنا معانى صفاته مثاله لولا يدنا التى نبطش بها ماعلمنا معنى الحديث وهو قوله عليه السلام « قلوب الخلائق بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء » ولولا أرجلنا مافهمنا معنى الحديث القدسى وهو قوله « من أتى إلى يمشى أتيته هرولة » ومعنى قوله عليه السلام « يضع الجبار قدمه على النار فتقول قط قط » والجبار بمعنى الجبر وهو مبالغة فيه لأن أهل النار إذا أيسوا من الخروج منها لعدم من يشفع لهم انكسرت قلوبهم إلى الله فإذا انكسرت قلوبهم وجدوه حينئذ جابرا لها بدليل قوله تعالى فى الحديث القدسى « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ووجدانهم له هو وضع قدم الرحمة السابقة للغضب على النار فيخفف عنهم العذاب .

واعلم أن الهرولة والبطش وتقليب القلوب والوضع والوجدان جميع ذلك ليس على ظاهره حاشا ربنا أن تكون له جارحة يتصرف بها بل هو منزه عن جميع ذلك «ليس كمثله شىء» فى ذاته وصفاته وأفعاله وإنما المراد منه النتيجة فقط فنتيجة الهرولة الإسراع بالعطاء والرحمة ونتيجة اليد الانتقام والإكرام ومن ثمة سمى نفسه المنتقم والكريم ونتيجة التقليب تقلب العبد من حالة إلى حالة قال عز من قائل «كل يوم هو فى شأن» فتارة يتجلى على العبد بالقبض فينقبض وتارة يتجلى عليه بالبسط فينبسط ومن ثمة سمى نفسه أيضا بالقابض والباسط ونتيجة السمع علمه بمقاصد الطالبين ونتيجة البصر إدراك ماهم عليه من الأحوال وقس على ذلك فى جميع ماورد من التشبيه ، فإذا قست عليه يظهر لك التنزيه ، وتعلم أن السمع والبصر واللسان مظاهر لمعان يستدل بها على توحيد صفات الحق وتنزيهها عن صفات الحوادث . ويحتمل كذلك أن يكون معنى قول الناظم وكلى لأسرار الوجود مطالع أن

يكون أشار بها للجاهل بتعلق صفات الحق بالموجودات بواسطة صفات العبد الباقى به بعد فنائه فيه بالمعنى المراد أى يا أيها الجاهل بمعانى صفات الحق إن أردت تعلمها فكل فرد من صفاتى مظهر سر من صفاته فتأمل فيها تستدل بها على تأثير صفات الحق بواسطة صفاتى فإنى أرى ماكان تحت تخوم الأرض وما فوق السماء وأسمع أصوات كل شىء وتسبيحه سواء كان بعيدا أو قريبا حتى إنى أسمع الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت وأخبرك بما تحدثك به نفسك والحاصل أن كلامى هذا فى وصف الناظم بهذه الصفات يشهد لى به الحديث القدسى وهو قول سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام « مازال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » وهذا الحديث صحيح ثابت لا ينكره أحد فتأمل رحمك الله كيف الحق عرفك بهذا الحديث مقام أهل الله ، حتى لا تنكر على أحد منهم إذا قال لك سمعت اليوم تسبيح الملائكة فى السماء السابعة ونظرت إلى فلان ساجدا تحت العرش أو رأيت عفريتا بالأمس تحت تخوم الأرض يفعل كذا وكذا أو أنى البارحة اجتمعت بفلان خلف جبل قاف لعلمك بنص هذا الحديث المذكور أنه ينظر بالله ويسمع بالله وينطق بالله إلى آخر ماوصفه الحق به جل وعلا فتأمل فى هذه العبارات ، بنظر الإنصاف تظهر لك منها معانى الإشارات ، وإلا فتوجه إذا أعياك غويصها ، وانبهم على قس فطنتك عويصها ، على نجائب النوافل الشرعية ، فى دفع المانع لك عن إدراك معانيها من ظلمات البشرية ، والله الموفق للسداد ، والهادى إلى طريق الرشاد ، ثم قال رضى الله عنه :

وَمُذْ لاَحَ بَدْرِى فِى سَمَائِى لِنَاظِرِى
أَفَلْنَ نُجُومُ الْغَيْرِ وهى طَوَالِعُ

وفى هذا البيت إشارة إلى أن فناء الأستاذ كان أولا فى الحقيقة المحمدية التى هى من نور الذات العلية ، بنص الحديث الوارد عن من فاز من الله

بالإذن فى التمنى ، وهو قوله « أنا من الله والمؤمنون منى » أى أنا كونت من نور الذات العلية ، والمؤمنون كونوا من أنوار كمالاتى القدسية ، وهذا الحديث إن أردت أن تفهم معناه ، بالوجه الذى فهمه أهل الله ، فقد جعل لك الحق مثلا من الخارج يدلك عليه ، وهو نور البدر الذى فى كل ليلة أنت تنظر إليه ، فإنك إذا تحققت فى أنواره ، تجدها منطبعة فيه من شمس نهاره ، وإذا تأملت فى نوره المنبسط على الأرض بنظر الاعتبار ، تراه منه منتشرا فى الآثار ، كذلك نوره صلى الله عليه وسلم منبسط وسار فى جميع الذرات ، كسريان الماء فى جميع النبات ، فهو حياة الوجود ، كما أن بالماء حياة العود ، ومن ثمة لما رأى الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأفخم ، نوره ساريا فى جميع الذرات الكونية ، وبدا له من ذاته التى عبر عنها بالسماء على اصطلاح الصوفية فنى فيه به عن ملاحظة بشريته ، وغاب عن رؤية جميع الأكوان بكليته وكونه فنى أولا فى شهود نور جماله الأقدس ، رجاء منه ليتوصل به إلى شهود كمال جمال الذات المقدس ، لأنه صلى الله عليه وسلم هو الواسطة العظمى بين العبد وربه ، والباب الذى منه دخل من آوى إلى حضرة قربه ، قال بعض العارفين ، فأنت باب الله ، أى امرىء ، أتاه من غيرك لا يدخل ، فإذا قد علمت بما أوردناه من الأدلة الكريمة ، بأنه مكون من نور الذات القديمة ، ظهر لك أن من ثمة لم يحط بكنه كماله أحد ، ولم يعلم بحقيقته إلا الواحد الأحد ، وتبين لك بأنه أبدع الخلق جمالا وكمالا صورة ومعنى كما قال الأبوصيرى :

فهو الذى تم معناه وصورته   ثم اصطفاه حبيبا بارىء النسم

وفهمت بعض إشارات قول الغزالى ليس فى الإمكان ، أبدع مما كان أى ليس فى الإمكان ، أبدع حسنا من الذى منه قد كان فى حضرة الحق قبل إبرازه إلى عالم الشهادة والعيان ، وليس من قد كان فى تلك الحضرة قبل خلق الزمان والمكان إلا حقيقته بصريح قوله صلى الله عليه وسلم « كنت نورا بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفى عام » ، وقوله عليه السلام « كنت نبيا ولا طين ولا ماء ولا أرض ولا سماء » ، ولولا أن ما كان أبدع منه فى

الحسن صورة ومعنى ماكون من نوره جميع ماكان وما يكون وما هو كائن بصريح قوله « أول ماخلق الله نور نبيك ياجابر وخلق منه الأشياء » ثم قال له « وأنت من تلك الأشياء » ثم اصطفاه لذاته حبيبا دون غيره وفضله عن العالمين ليلة أسرى به وأدناه منه كقاب قوسين إشارة منه إلى أنه صفوته منهما ثم أكد لهما ذلك بكشفه له الحجاب عن ذاته ورؤيته كفاحا ليعلم كلا الفريقين ، بأنه أكملهما فى النشأتين ، وأبدعهما حسنا بلا بين ، وأن نوره أصل لهما وهما فرع عنه ومن أجل ذلك أفهم الناظم بفحوى كلامه أنه كشف له عن ذلك النور ، فرآه ساريا فى كل حرف فى لوح الوجود مسطور .

واعلم أن الأستاذ رضى الله عنه ماشاهد نوره السارى فى هيكله وجميع الكائنات إلا بنوره المنبسط فيه وفى جميع الذرات ، لأن النشأة العنصرية حقيقتها ظلمة كثيفة ، والظلمة لاينسب إليها الكشف عن الحقائق اللطيفة ، وإنما الكشف والرؤية والإدراك للنور ، وإذا كان الأمر والشأن كذلك علمنا أنه ماشاهد ذلك النور إلا بالنور ، أعنى نور جمال الحضرة المحمدية ، إلا بنوره السارى فيه وفى سائر البرية ، ثم اعلم أن أستاذنا لما كان من العلماء العاملين بالدين القويم ، تمسك بالأمر الوارد فى الكلام القديم ، وهو قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » ، وأى وسيلة أشرف منه صلى الله عليه وسلم وأى واسطة فى معرفة العبد بربه أفضل منه وهو صاحب الوسيلة .

واعلم أن من دخل من بابه إلى حضرات الذات ، فهو أكمل عند المحققين من الصوفية ممن دخلها من باب الأسماء والصفات ، وأجدر أيضا بالإكمال ممن وصل إليها بالجذبة الإلهية ، لكونه دخلها من حيث أمره الحق قياما بوصف العبودية ، وقولنا أجدر بالإكمال لأنه قام مقام الأدب مع ربه ، حيث لازم أعتاب من أمره بالفناء فيه عن كل مايؤذن بحجبه ، ثم إن هذا القائم بما أمره به ربه بكمال الإيمان والتصديق ، يشارك المجذوب فى

النهاية ويزيد عليه بمعرفة سلوك الطريق ، لكونه سلكها ، وعرف سهلها ووعرها ، على يد السيد المحبوب فى البداية ، والمجذوب يفارقه فى معرفة ذلك وكمال الواسطة لأنه ما مر عليها بحكمه ، بل اختطفته قبل معرفه بذلك يد سابقات العناية بفضل ربه فإن رجع إلى الصحو والبداية شارك المتقدم ذكره فى معرفة الطريق ماخلا فى كمال معرفته بكمال من جاء بالهداية .
وأما من دخل حضرة الحق من باب الصفات والأسماء ، فهو أرفع درجة كذلك من المجذوب فى معرفة الوصول بها إلى المقام الأسمى لأنه كذلك من حيث دعته الذات العلية أم لها ، قال تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » فإذا رجع المجذوب إلى البداية ، وعرف ما سلكه من شاركه من أرباب الأسماء والصفات فى النهاية ، فيكون حينئذ فى ميزانه ، وفى معرفة سلوك الطريق من أقرانه .

واعلم أن الأغلب بأن يكون خاتم الولاية المحمدية من الذين دخلوا من بابه إلى رياض جنان معرفة الذات العلية لأنه تخلق فى البداية بآدابه مع مولاه ، وتكفل فى النهاية بكماله المخصوص به دون من سواه .

واعلم أنه لولا أن الوصول حضرة الحق كان بالواسطة أكمل ، لكان الحق بلغ حبيبه أحكامه ، وعرج به إليه فى الليلة التى عرفه فيها مقامه ، من غير واسطة جبريل إذا كان ذلك أجمل ، فافهم . واعلم ، أن السادة الصوفية رضى الله عنهم وأرضاهم اصطلحوا على أسام وجعلوها إشارة فيما بينهم يفهمون بها مقاصدهم ، ويبلغون بها مآربهم ، منها أنهم يشيرون بالبدر إلى الحقيقة المحمدية ، وبالنجم إلى المظاهر الكونية وبالشمس إلى الحضرة العلية وكل ذلك مذكور فى كتبهم فراجعه فيها تظفر بالأمنية ، فإذا راجعتها أيها المريد السالك ، وعثرت على اصطلاحاتهم فيها وظهر لك ماهنالك ، علمت حينئذ إنما أراد الناظم بذكر البدر فى هذا البيت المفرد بلامين ، جناب صاحب رئاسة قاب قوسين ، ذى المقام الأوحد ، والشأن العظيم الأمجد ،

وبذكر الشمس المنبسط نورها على سائر البريه ، مقدس لاهوت الحضرة الغيبية . وتعلم أيضا أنه ما أشار إلى المظاهر الكونية بذكر النجوم ، إلا سترا لما لديه من الأسرار الربانية عن الواقف مع الرسوم .

واعلم يا أخى أن البدر إذا استكمل نوره ، أفل نور كل كوكب وانعكس ظهوره ، والإشارة فى البيت إلى أنه لما ظهر نور بدره وهو محمد صلى الله عليه وسلم من ملكوت الكواكب ، أفلت صورها لغلبته عليها وغاب عن مشهده منها كل شارق وغارب ، وصار لايرى إلا حسنه وحسن كل ما هو به ظاهر ، خصوصا لما رآه بحرا ، لا ساحل له ولا أول ولا آخر ، وتبين له أن جميع الوجود فى لجته غائر ، والغائر كما علمت محال أن ترى ذاته ، أو أن تعلم بعد غوره نعوته وصفاته ، بخلاف البحر فإنه ثابت وجوده ، ومشاهده صفاته لا حدوده ومن ثمة لما تحقق الناظم بهذا المشهد الكريم ، فنى فى جمال مظهر مصداق « وإنك لعلى خلق عظيم » ، وقال مشيرا إلى فنائها فى شهوده ، وغيبته فيه عن إحساسه بوجوده ، أفلن نجوم الغير : أى غارت جميع أفراد المظاهر ، فى عباب نور جماله الباهر ، وصرت لا أرى منها خيالا ولا شبح ، إلا نور من الوجود بأسره كقطرة بها السحاب لنا سمح :

إن بدرى جماله من تبدى وانجلاء نوره جلا كل ظلمه
فهو راحى ومصباح مشكاة روحى وهو للقلب كاشف كل غمه
من به هام ساعدته الأمانى وكفاه الزمان ما قد أهمه

ويحتمل أن يكون معنى قوله ومذ لاح بدرى إلى آخر ماقال أى ومذ ظهر نور بدر ولايتى على سماء بشريتى ، للناظر الى بنظر الفراسة الإيمانية من الرجال ، وللمتأمل ببصر الفرق الصحيح فى الاستدلال ، أفلت عن مشهده حين رأى ذلك النور نجوم الأغيار ، وصار لايرى غيرى من أرباب الإرشاد والاستبصار ، لانطماس أنوارها لديه بسلطنة أشعة نور بدرى

حين استولى عليه ، وأن من استولى عليه نوره العبد الحقير ، حتى صرت لا ألتفت للأخذ من غيره من أمر بالإرشاد والتصدير . وقد أشار إلى مرة الولى الكامل المكمل الرشيد ، سيدى الشيخ محمد المكى أن أتلقن عنه اسما حين كنت بزبيد ، بواسطة العلامة ذى الفيض الرائق ، المزجاجى سيدى الشيخ عبد الخالق ، وأخبرنى الشيخ عبد الخالق عن نفسه أنه أخذ عن مشايخ جمة ، ولم يفتح عليه بمثل مافتح له على يده لأنه من أرباب الهمة ، فقلت له فى الجواب ، حين أكثر من الإطناب ، يامولانا الشيخ إنه لحرى بما تقول وإنه من الفاتحين لأبواب الوصل والقبول ، غير أن أستاذى الذى سلكت على يديه ، جدير بأن يمنحنى وأنا فى هذا الموضع بما أشرت به على وبجميع مالديه ، ثم بعد أيام مرض مولانا الشيخ محمد المذكور ، وجلس سقيما نحو ثلاث من الشهور ، فرأى ذات ليلة كأنى لقنته الطريقة السمانية ، فانتبه وهو يذكر الله وزال عنه مرضه بإذن رب البرية ،وعلم بهذه الرؤية بأن أستاذنا الهمام ، صاحب الوقت والمقدم على جميع من فيه من الخواص الكرام ، هذا ماصار على مولانا الشيخ محمد المذكور . وأما أخونا الشيخ عبد الخالق المزبور ، فإنه رأى ذات ليلة كأنه تلقن عن أستاذنا الطريقة الخلوتية ، فسافر من عامه وأخذ عنه وانتظم فى سلك الطريقة السمانية ، فتأمل فى كال همة هذا الأستاذ الكبير ، كيف غار على وجعلهم من إخوانى وعرفهم بمقامه الخطير . ثم بعد سياقنا لهذه القصة العجيبة ، فلنرجع إلى شرح باقى البيت ونبين معانى ألفاظه الغريبة ، فنقول :

اعلم أن الأستاذ رضى الله عنه ماشبه ذاته بالسماء بقوله ومذ لاح بدرى فى سمائى لناظرى وأشرق فى الحى ، إلا من كون أن ظاهرها شهادة وباطنها غيب كالسماء الحسية ، فإذا علمت ذلك ظهر لك أن تشبيهه بها ليس إلا من هذه الحيثية ، وتبين لك أنه لما حصلت المناسبة بينهما بهذا الوجه المستنير ، شبهها بها ليزداد فهما بتشبيهه الحاذق البصير ، وله أيضا وجه ثان فى التشبيه بها اقتضته القياسات الصحيحة العقلية ، وهو فى القوة مضاه للأدلة النقلية .

اعلم أنه لما كانت السماء مزينة بالكواكب الزهرية ، وذاته مزينة بنجوم صفاته الحسية والمعنوية ، كالسمع والبصر والكلام ، والعقل والوهم والخيال والفكر الذى به يكون الاستفهام ، وجميع حركاته المقابلة لحركات الفلك ، شبهها بها بهذا التشبيه الذى لاينكره من لعقله ملك ، وكل هذه الصفات الثلاثة المتقدم ذكرها حسية ، وأما المعنوية فهى العقل وما عطف عليه ومنها كونه سميعا بصيرا متكلما إلى غير ذلك ، وله وجه ثالث أيضا فى التشبيه ، لاتغرب مطابقته على كل جهبذ نبيه ، وهوأن الشخص كما أنه يستدل بانتقال أحوال النجوم ، من الشروق إلى الغروب ، ومن الغروب إلى الشروق ، على وحدانية الحى القيوم ، كذلك يستدل عليها الشخص بتغير صفاته البشرية ، وانتقالها من السقم إلى العافية ومن العافيه إلى السقم ومن القبض إلى البسط ومن البسط إلى القبض ومن نقض نية إلى نقض نية ، فتأمل كيف استدل سيدنا على بفسخ النية على وحدانية من هو على كل نفس قائم ، وقال كرم الله وجهه ورضى عنه : «عرفت الله بنقض العزائم» ، وتأمل كيف قام الحجة على قومه سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، بأفول الكواكب ومايدعون ألوهيته عبدة الأصنام ، حين لم يصدقوه بخبر الوحدانية ، وعكفوا على عبادة الكواكب السماوية ، وكيف ألزمهم بهانقص مايدعون كماله ، حتى بهت الذى كفر منهم وأعز الله دينه ونصر خليله ، ومن شروره أقاله .

واعلم أن الله تعالى جل شأنه ، وتقدست أسماؤه وعز سلطانه ، ماأوجدك من العدم إلى الوجود ، إلا لتستدل بذلك على قدمه وحدوث كل موجود ، ولاجعل مالك إلى الفناء والزوال ، إلا لتحقق بقائه على الأبد وتستدل على قهره لعباده بانصرام الآجال ، ولا أبرزك فى أحسن تركيب وأجمل صوره ، وحلاك بأكمل الصفات دون غيرك ممن أبرزته القدرة وخصك بالمواهب الموفورة ، إلا لتفرده بالقدرة الباهرة ، وتنزهه عن صفات الحوادث المتغايرة ، وتعلم أنها تحت تجلى صفاته القديمة مقهورة ، وما أشهدك عجائب ملكه وملكوته ، وأذاقك برد عفوه ورحمته ، إلا ليعرفك بذلك

أنه واحد الذات ، المتفرد بالاختراع وكمال الصفات ، فتعتمد عليه فى جميع قضاياك بهمة صادقة ونية مبرورة ، فافهم الإشارات إن كنت من ذوى الألباب ، وتدبر العبارات يفتح عن قريب لك الباب ، جعلنا الله وإياك عن تدبر العبارة ، وفهم الإشارة وألحقنا وإياك بمن ربحت لهم التجارة ، ثم قال رضى الله عنه :

وَلاَ غَيْرَ إِلاَّ اللهُ والغيرَ هَالِكٌ وَمَنْ يَشْهَد الأَغْيارَ فهو مُخَادَعُ

بفتح الدال أى ممكور به كإبليس اللعين ، وكغيره ممن استدرجهم الحق ببلوغ الأمانى فضلوا بها بعد اليقين .

واعلم أنه لما قدر الله فى أزله طرد إبليس من الحضرة القدسية ، قال له : « لا تعبد غيرى » كذا ذكره سيدى عبدالكريم الجيلى ذو الأنفاس المحمدية . ثم لما خلق الله آدم عليه السلام ، أمر بالسجود له الملائكة الكرام ، فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى لأنه شهد فى هذا المقام الغيرية ، وقد أمر بعدم السجود للغير من الحضرة الغيبية ، فلما التبس عليه الأمر امتنع عن السجود فظهر السر المقدر له فى الأزل وهو طرده ـ بسبب امتناعه ـ من حضرة الحى المعبود ، ولو علم أن من سجد بالأمر لله فقد عبد الله ، ولو تفطن بأن آدم موجود بوجود الله ، لكان أول الساجدين لكونه كان أكثرهم طاعة لله وأجل .

اعلم يا أخى أنى رأيت إبليس هذا مرتين ، مرة حين كنت فى أرض الهند والأخرى حين كنت بأرض الحرمين ، وقلت له فى المرة الأولى بلغنى عنك أنك كنت أعبد الخلق وأشدهم حبا لله ، وما من موضع شبر فى الأرض إلا ولك فيه سجدة لله ، فكيف عصيت بعد ذلك مولاك ؟ واتبعت بمخالفتك الأمر هواك ؟ . فقال لى ارتجالا فى الجواب ، ومن أكون أنا حتى أخالف رب الأرباب ، أثبت لى أن كنت رب علم وجود ، حتى به أكون خالفت المعبود ؟ ، فتعجبت من حسن جوابه وصوابه ، واستدللت به على سعة علمه

وآدابه ، وأما فى المرة الأخرى فإنى رأيته جالسا بين يدى أستاذنا حزيناً ، وعليه ثوب أسود رث قد صيره البعد للحزن رهينا ، ورأيت الأستاذ واضعا يده الشريفة على كتفيه ، يضرب بها ضربا خفيفا ، وهو واضع رأسه على ركبتيه ، كحر استعبده الغير بعد أن كان شريفا ، وسمعت الأستاذ يقول له بم نلت ذلك ؟ . فأجابه مذعنا بالصدود ، وأدمعه تجرى على الخدود ، نلته بعدم السجود لمظهر السيد المالك . وقول الناظم بم نلت ذلك أى بما نات ما انفردت به من القوة الإلهية لتحمل مظهر الجلال ، الذى لم يستطع حمله أحد من الملائكة وكل الرجال ؟ فأجابه بما هو مذكور والله أعلم بمعنى ما فى الكلام القديم منهور .

واعلم يا أخى أنه ما أظن أحدا مثلى ناقص الإعراب ، قليل الآداب ، لم يعرف الخطأ من الصواب ، ذكر ما ذكرته فى هذا الكتاب ، لأنى لم أستعن عليه بمطالعة سفر من مؤلفات الصوفية ، بل كنت فى حال تأليفى له معولا على ما يفاض به على من المواهب الربانية ، وناظرا إلى ما يمدنى به الأستاذ من المعارف ، فكل ماتراه فيه من هذا القبيل فتأمله إن كنت عارف ثم المرجو بعد ذلك من ذاتك الرفيعة ، أن تقيد ما ترى فيه من الخلل بقيد الشريعة وقد بينت لك وجه عذرى فى تنميق لهذه الأوراق ، فاعذرنى ان وجدت عيبا فيه وعاملنى بمكارم الأخلاق ، ولك الأجر الجزيل والثواب ، والمكافأة الحسنة فى يوم المآب ، ولنرجع إلى ما نحن فى صدده من بقية شرح هذا البيت النفيس ، بعد ما علمنا من أوله سبب طرد إبليس ، فنقول ، والله فى بيان ذلك المسئول :

اعلم أن معنى كلام الأستاذ المفيد لكل سالك ، ولا غير إلا الله والغير هالك ، أى ولا شىء موجود فى الوجود ، إلا بوجود الحى الموجود ، فوجود كل شىء مستفاض عليه من وجود الله ، فإذا اعتبرته من هذا الوجه تجد ذلك الشىء مضمحلا وهالكا تحت سطوات أنوار لا إله إلا الله .

واعلم أن معنى الإله هو كل مايلهيك عن الله ، قال تعالى « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » ، فمن جعل الآلهة الها واحدا فقد اهتدى إلى سواء السبيل، ومن رآها متعددة ومستقلا كل فرد منها بوجود فقد أخطأ فى البرهان والدليل . ومن ثمة قال الناظم رضى الله عنه وأرضاه ، وسقى بماء الرحمة والرضوان ثراه : ومن يشهد الأغيار فهو مخادع ، أى ومن يشهد الأغيار بوجود مستقل فهو مخادع ، أى ممكور به ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فبئس نتيجة ما شهد وليس ما هو آيل إليه وراجع ، لأن نتيجة شهود مخلوق بوجود مستقل فى الوجود ، يلزم منه نسبة فعله إليه وهذا شرك خفى عند أرباب الشهود ، لأنه أشركه فيما خص به نفسه من يقول للشىء « كن فيكون » . بدليل قوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » ، فالخلق لله والأمر لله رب العالمين ، بصريح الإ له الخلق والأمر « تبارك الله أحسن الخالقين » ، ومعنى قوله الإله الخلق والأمر ، أى الظاهر والباطن الذى هو الروح لأن الروح من الأمر قال تعالى « يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » ، وهى باطنة ، والقوالب والأشباح وغيرها من الأعراض والفرح والأتراح ظاهرة ، فإن قلت قد نسب الحق فعل العبد إليه فى أيات متعددة مكررة ، منها قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ومنها قوله وهو أصدق من نبه ونصح الغافل على إصلاح عقباه « ما أصابك من سيئة فمن نفسك وما أصابك من حسنة فمن الله » ، ومنها قوله تعالى على لسان نبيه الأواه ، « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » ، وقال عليه السلام محذرا للجاهل من معصية ربه ، « اعمل ما شئت فإنك مجزى به » ، فالجواب بأن الله سبحانه وتعالى حكيم ، خاطب كل عبد بما هو من حاله ومعتقده عليم ، فمن شهد نفسه واعتقد أنها فاعلة بالاستقلال ، خاطبه بما يدل على جزاء معتقده فى المآل ، وأما من رأى نفسه فاعلا بالله أحسن أم أساء ، أضمر أم فشا . فإنه أبهم جزاءه لشرفه فقال « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » . ثم اعلم أن من كان هذا مشهده فإن سيئاته تنقلب حسنات ، قال تعالى « أولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات ، لأنه قام بما أمره الحق به من شهود نسبة فعل العبد إلى مولاه . وتبرأ من انضمام شيء ما إليه متحققا بحقيقة لاحول ولاقوة إلا بالله . فإن قلت أيها السائل إذا كان الأمر كذلك ، كيف أمر الله بالاستغفار كل دان وقاص وحث على التوبة كل عاص ، أفصح لى أيها المتشدق بالكلام ، عن نتيجتهما حينئذ وأزل عنى الأوهام ، فالجواب : اعلم أيها السائل ، المترشح لحصول تصحيح المسائل . إنما تجب على العبد التوبة والاستغفار ، امتثالا للأمر الوارد بهما فى كلام العزيز الغفار ، وهو قوله فى الكتاب المبين ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين ، وقوله على لسان من بعثه برا للعالمين نصوحا ، يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، فتأمل كيف أمر الله نبيه بالاستغفار ، وهو معصوم من الذنوب الصغائر منها والكبائر وسيد الأبرار . فعلمنا من أمره لنبيه بالتوبة والاستغفار أن لهما نتائج . ومن فاز بها رقى من حضرة التقريب أوج المعارج . وهو قيامه بما أمر به من وصف العبودية ، التى نتيجة من اتصف بها تخلقه بأوصاف الربوبية ، وظهر لنا أنه ماحصل العذاب لمن تعذب يوم القيامة بالنار ، إلا من جهة كونه خالف الأمر وعدل عن التوبة والاستغفار .

واعلم أن العلماء المحققين من أرباب الأدب اتفقوا جميعاً على أن الحق خلق ونسب ، وما يسعنا حينئذ فى تعذيبه لعباده ، الوارد فى الكتاب والسنة على لسان أشرف عباده وهو قوله حاكيا عن الكبير المتعالى ، «هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى» . ولا يليق بنا فى ذلك إلا الإمساك عن السؤال عنه بالفهم السقيم . ولا يسعنا إلا التفويض له والتسليم . ولا يصلح لنا إلا لزوم الأدب معه عن البحث للسبب فى ذلك ، لكونه يفعل مايشاء وهو العلى العظيم السيد المالك ، ولكونه تعالى ، عن البحث قد نهانا ، فى كلامه المصون ، بقوله « لا يسئل عما يفعل وهم يسألون » ، وبين لنا فيه بأنه فاعل مختار ، فقال « وربك يخلق مايشاء ويختار » ، فإياك أن تعتقد بأن الإنسان يفعل بقدرته وارادته كل مايهواه ، فإن اعتقدت ذلك يكذبك قوله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ويلزم من اعتقادك هذا أنك نسبت له وجودا بالاستقلال، به يتحرك وليس الوجود إلا الكبير المتعال، وهو واحد كما علمت لا يقبل الانتقال والانقسام، لكونه صفة لواجب الوجود ذى الجلال والإكرام.

واعلم أنه يجوز لك أن تقرأ لفظه مخادع بكسر الدال إن أردت أن تصرف معناها للعارف، كما سأذكر لك ذلك مجملا بعبارات لطائف؛ منها أنك إذا رأيت أحدا من العارفين يجلس مع سفاسف الرجال الجاهلين، ويوافقهم على أفعالهم، ويتشدق فى المحافل بأقوالهم، فلا تقتد به فى فعله فإنه من أرباب التمكين فى التلوين، ولا تنكر عليه ذلك فإنه يخادع به - سترا لحاله - الفسقة الضالين، لئلا يصحبونه إذا تحققوا مقامه لعلة فاسدة فيمتحن بهم ويشوشون عليه مقاصده، ومنها أنه ما فعل ذلك إلا قبل أن يؤذن له فى الإرشاد، مستنظرا بتلك المخادعة الأمر به من رب العباد، فالعارف مع الخلق بظاهره، ومع الحق بباطنه وسرائره، فهو الجامع الفارق، والمعطى كل ذى حق حقه السالم الفارق، فافهم الجمع بين الضدين، إن كنت ذا عينين واقلع عن المين، تظفر بتصحيح الوجهين، ثم قال رضى الله عنه:

وَلَيْلِى لمَا جنّ عادَ بطَلْعَتِى
صباحًا فأنْوارِى شُمُوسٌ سَواطِعُ

أى ومشهودى فى البداية وهو الكون، وعبر عنه بالليل، لأن الكون حقيقته ظلمة، وإنما أناره وجود الحق فيه؛ كما صرح ابن عطاء الله بذلك فى حكمه بقوله «الكون كله ظلمة وإنما أناره وجود الحق فيه»، فمن شهد نور المكون منوطا به غاب عنه، وفاز من القشر باللباب، وارتفعت عنه ستائر ظلماته، ومن شهد الكون رجع إلى ما كان يشهده فى المآب. واحتجب عن رؤية شعاعه السارى فى جميع مرسوماته. ومعنى قولى رجع إلى ما كان يشهد فى المآب، أى إما إلى الجنة أو إلى النار، وكلاهما كون، فيكون رجوعه من كون إلى كون بخلاف من كان لا يشهد إلا المكون، فإن رجوعه لا يكون إلا إليه فى «مقعد صدق»، حيث لا مكان ولا زمان «عند مليك مقتدر».

واعلم أن السالك لابد له فى بداية أمره أن يشهد الأكوان ، ومن أجل ذلك تجد كثيرا منهم من يقف عندها وينقطع عن مقام الإحسان ، إلا من ارتفع عنه بهمته وتعداه ، وتفطن لإشارته وتخطاه ، لأن الكون ومافيه برمته يناديه بلسان الحال ، الذى تطلبه أمامك . فلا تغتر بزينتى وظواهر الأحوال . ولما كان الكون من وصفه يقطع من وقف عنده وركن إليه ويصد عن مطلوبه من عول عليه ؛ أراد الناظم أن يبين أنه قد عرض له مثل ذلك فى حالة سيره فأعرض عنه وتعداه ، وطلب مقام الإحسان ولم يلتفت إلى غيره ، إلى أن أدرك منه ما كان يتمناه ، فقال : وليلى لما جن عاد بطلعتى صباحا ، أى وكونى ، وأضافه إلى نفسه لكونه كان يلتفت إليه فى البداية ، وقوله : عاد بطلعتى صباحا ، أى فى النهاية . والطلعة هى الصعدة من طلعت الجبل إذا رقيت إلى أعلاه ، ومعناه : ورجع ظلام الكون بصعودى عن رؤيته إلى شهود المكون كأنه صباح من شدة النور يتلألأ سناه : وأما قوله رضى الله عنه : فأنوار شموسى سواطع . وذكر الأنوار بصيغة الجمع إشارة إلى أن لكل ذرة من الكون نورا ساطعاً وأضاف الأنوار إليه لكونه صار يشهدها دون غيره ممن لم يتحقق بما انطوى عليه، ونعتها بسواطع لشدة نورها الذى به انجابت عنه ظلمة الأكوان ، ووصل بتلألؤ أنواره إلى مقام الإحسان، فافهم . ويحتمل أن معنى: وليلى لما جن ، يشير إلى ذاته لأنها كون ، وعبرت عنها بالكون لأنها مظهر «كن» ، ولكونها أيضاجامعة لجميع ما انطوى الكون عليه من الأسرار الإلهية والحكم الربانية ، كما شاهد ذلك أرباب الكشف على أسرار العلوم اللدنية ، وصرح بها كسيدنا على وسيدنا أحمد الزيلعى حيث قال :

أنا عرشها والكرسى   أنا للسما بانيها

وكما قال سيدنا على الخواص لسيدنا عبد الوهاب الشعرانى حيث رأى أعماله مكتوبة فى جبهته ، أنالوحك وأنا كتابك ، وإذا ظهر لك من دليلى هذا ما كنت تستبعد من كلام الناظم معناه علمت حينئذ أن ماقاله حق ، وتبين لك

معنى قوله: وليلى إلى آخر البيت أن كلامه صدق . ثم إذا ظهر لك المعنى واقتصرت على فهمك فيه فبها ونعمت وإلا فهاك منى توضيح معناه ، زيادة على مايعطيه لك إذا وصلت إلى حل رموز مبناه .

اعلم أن معنى البيت حسب ماظهر لى أن قوله : وليلى ؛ أى وهيكلى لما أظلم بسبب الذنوب التى اكتسبتها فى بداية سيرى إلى الله وهى رؤية كونى أنى سائر إليه بهمة ذاتى . ومتوجه إليه بعزائم توجهاتى ، ومقبل عليه بحركاتها فى الطاعات . ومتأخر بسكناتها عن تعاطى مايمنعها عن الوصول إلى أرفع الدرجات . غافل عن معنى قوله « ولوشاء ربك مافعلوه » . مع أنى فى كل يوم أتلوه ، ولما أطلعنى الحق على مفهوم « ومابكم من نعمة فمن الله » وأشهدنى بعد تزكيتى لذاتى أنى سائر به إليه بكل مافرضه على لسان نبيه ومصطفاه . ما زلت بعد ذلك أشاهد منه النعم ، وألاحظ أن سيرى به إليه فى كل لحظة ونسم . وحتى انجلى عن سمائى ظلام شهود الأغيار ، وأشرقت من أفلاكها نجوم صفاتى فاهتدى السائر بها على حمى ربة الخدار . وصرت كلى نورا يقتبس منى السائرون إليها ، ومنهلا عذبا يرده الصادرون والواردون ودليلا عليها . وهذا الاحتمال صحيح ظاهر المعنى ، اقتطفت أزهاره أنامل الفكر من أفنان المبنى . لأن الولى إذا طهر نفسه من درن الصفات البشرية ، وذكاها بالرياضات والأعمال الشرعية تنعكس ظلمتها بعد إدخاله لها فى نار المجاهدات نورا وهيجا ، كما ينعكس سواد الفضة إذا أدخلتها النار بياضا بهيجا ودليل أن الولى بعد تزكيته لنفسه يصير ذاته نورانية ؛ تشكله بكل صورة حسنة وليس ذلك من وصف البشرية. ومن ثمة سميت الأبدال أبدالا ، لتبدلهم من صورة إلى صورة وتغيرهم حالا لحالا ، ثم اعلم أيضاً أنه يفهم من قوله وليلى لما جن: أن الظلمة طارئة عليه ، وأنه كان نورا قبل أن تمديدها الشبهات بالمأكل والمشرب إليه ، لأن الشبهة تجر إلى الحرام ، والحرام ظلمة ، والظلمة باطل ، والحق نور ، ومتى قبل النور الظلمة أو عولت هى فى قبولها عليه ؟ . ويؤيد ذلك أن العبد يقول يارب يارب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه

حرام ، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لهذا ؟ لأنه تكثف ظلمة بشريته بأكل الباطل ، والاستجابة نور والنور لا يقبل الظلمة بل يتجنبها كتجنب ضوء النهار إذا أقبلت ظلمة الليل ، والبياض والسواد نقيضان ، والنقيضان لا يجتمعان ، فافهم .

واعلم أن كل مولود يولد على الفطرة الإسلامية منور الطوية ، وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، إما حقيقة أو حكما بتركهما له يخوض فى بحر ظلمة صفاته البشرية ، إلى أن يقع فى المعاصى التى تعتقد اليهود والنصارى والمجوس حلها كشرب الخمر وغيره فيرتكبها كما وردت بذلك الأخبار النبوية . واعلم أن المولود على الفطرة يبرز للوجود على ماعاهد الله عليه حين كان فى عالم الأرواح ، قابلا لتجليات الحق الإلهية الواردة مساء وصباح ، لصفائه من الكدورات إلى قبل أوان التكليف ، فإن استعد لها فى ذلك الوقت بالنوافل المشروعة ، والتجنب عن الشبهة والحرام وقام بعزائم السنن الموضوعة ، وردت عليه بسهولة وتلطيف ، وانطبعت فى مرآة قلبه أنوار الطاعات ، فيكشف بها عن موطنه الأصلى الذى فيه أخذ الله العهد على جميع المخلوقات . فإذا وصل فى الكشف إلى هذا المقام ، دعا الخلائق إلى موطنهم الأصلى بخروج أرواحهم بيد المجاهدة من أقفاص الأجسام ، ومن تعاطى الأسباب المانعة له عن شهود المقام المذكور ، واشتغل بها قبل أو بعد حصول التكليف المزبور ؛ كالكفر الجلى أو الشرك الخفى؛وهو نسبة أفعاله إليه ، وكصرفه جميع ما أنعم الله به عليه ، من الجوارح الظاهرة والباطنة فى غير ما أشار به الحق عليه . فمن فعل ذلك فقد عرض نفسه لانطباع ظلمة كل معصية فيها عرضا ، وصارت ذاته كلها ظلمة محضا . ويكون حينئذ محلا لمظهر الصفات الجلالية كالبطش والانتقام ، لأن نفسه لما اتصفت بما سبق لا تطهر إلا بهما فى هذا المقام ، لشدة خبث ما انطوى عليه من الذنوب ، وصعوبة زوال ما اكتسبته من موبقات العيوب . واعلم أن محتد كل ظلمة تحدث فى الشخص من ثلاث ، بل من أربعة أشياء : المباح ، والشبهة ، والحرام ، والمشكوك فيه ، وكل واحد من الأربعة ظلمة لكن بعضها أخف

من بعض وأخفها ظلمة المباح وأشدها ظلمة الحرام ، ومن ثمة فرضت المشايخ على المريد أن لا يأكل إلا عند الفاقة بقدر الحاجة ، لئلا يتساهل فى الأكل ويملأ جوفه فيظلم قلبه ويرتكب المعاصى فتتكاثر ظلماته وتعمى عليه طريق الحق فلا يعرفها بعد ذلك لفقده أنوار الطاعة واستيلاء ظلمات المعاصى عليه.

ثم اعلم أن معنى قول الناظم رضى الله عنه : فأنوارى شموس سواطع؛ يحتمل أن يشير إلى أن لكل جارحة منه نورا اكتسبته بقيامها بما أمرت به من تجرى نسبة ذلك إليها ، وكذلك لكل طاعة اكتسبها بعوالمه الباطنة نور ، لكنه غير معول عليها ، وأنه امتزجت بجميع هذه الأنوار ذاته ، حتى صارت كلها نورا محضا ولها ضياء لامع ، يشهده من جلا مرآة قلبه وحسم كدوراتها بتوجه قاطع . ولقد صدق فيما نسب إلى نفسه من أنوار الطاعات حتى رجعت بها ذاته كلها نورا ، كما شاهد ذلك جماعة من أرباب المكاشفات منهم السيد الجليل ذو الشمائل المفتخرة ، مولانا السيد أحمد صنو السيد يس مفتى البصرة ، قال : احتجب الشيخ عنى مرة ثلاثة أيام سوية ، فذهبت لما اشتد بى الشوق لرؤيته إلى الحضرة النبوية ، وشكوت عليه ألم ما لقيت من احتجاب الشيخ المذكور ، وبكيت عنده وتحادر دمعى كاللؤلؤ المنثور ، ومضيت من عنده إلى زاوية الأستاذ ، رجاء أن أصادفه بها جالسا فيطمئن برؤيته الفؤاد ، فلما دخلت فيها وجدته جالسا على كرسى من خلف الباب ، فسلمت عليه ووقفت بين يديه فأشار لى بالجلوس لجلست بعد ما قبلت الأعتاب ، وجعلت أنظر إليه بنظر التصديق بولايته وبصر الإيقان ، فرأيت رجليه تحت تخوم الأرض ورأسه لاحقا بعرش الرحمن ، فغبت فى هذا المشهد نحو ربع ساعة فلكية ، مستغرقا فيه لا أشعر بالمظاهر الكونية ، ثم غاب عنى المشهد ورأيته فى مشهد ثان ، وهو أنه شهدته قبة من نور وجميع الكائنات فى وسطها فغبت فى هذا المشهد عن كيانى ، ثم غاب أيضا هذا المشهد عنى ورأيته فى مشهد ثالث نورا بحتا صرفا قد ملأ الوجود ، ولم أر أرضا ولا سماء ولا خلقا ولا نفس ولا شيئا سواه موجود ، فغبت فى هذا المشهد

غيبة ظننت أنى منها لا أفيق ، وسكرت من لذة سكره حتى كأنى عاصرت العتيق ، فلما أفقت من غمرة هذه الأحوال ، التفت إلى الأستاذ وقال :

وقضى يعقوب حاجتـــه وانتهى زيد إلى الوطر

ثم قام عنى ودخل منزله وانصرف ، بعد ماتفضل على برؤية هذه المشاهد الثلاثة وعطف ، وعرفنى بها أنه الواحد فى الوجود ، والجوهر الفرد دون كل من هو موجود . ودخل مرة ثلاثة نفر من أهل نعمان عليه ، بعد ما استأذنوه فى الدخول وقبلوا ركبتيه ، وجلسوا بين يديه ، فقدم لهم الطعام وجلس يباسطهم مباسطة الوالد لولده فى الكلام ، فخطر فى قلب واحد منهم أن يطلب منه أورادا ، وخطر فى خاطر الثانى لو أنه يدعو له بأن الله يرزقه أولادا ، وأما الثالث لم يخطر بباله شىء لأنه مادخل عليه إلا بقصد زيارته ، والانتظام فى سلك عقد بيعته ، ثم أن الشيخ أخذ قرطاسا وكتب فيه أورادا ودفعه للأول ، ودعا للثانى بأن يرزقه الله أولادا لأنه عليه فى ذلك قد كان عول ، ثم دعاهم جميعا وأجلسهم بين يديه ، ولقنهم الذكر وأوصاهم بتقوى الله واعتمادهم فى السر والعلانية عليه ، فلما انصرفوا عنه وخرجوا إلى باب الدار قال لهم ثالثهم أين الشيخ ؟ فقالوا له هو الذى كنا عنده ، فقال لهم أنا ما رأيت شخصا وإنما رأيت نورا يخطف الأبصار .

اعلم أن كل فرد من الناس يرى الولى بقدر استعداده وقابليته ، فمنهم من يراه بشرا مثله وذلك لضعفه بسبب الذنوب الذى اكتسبها فى نور بصيرته ، ومنهم من يراه نورا وذلك هو الذى قد تنور بنور الفراسة الإيمانية ، القاشع عن سماء قلبه سحب الأوهام النفسية ، فمن نظر إلى الولى بالنظر الأول حرم نفعه ، وندم فى المآب وتشتت عليه جمعه ، ومن نظر إليه بالنظر الثانى ، أخذ عنه وفاز فى الدنيا بالمنى وفى العقبى بالأمانى ، وطاب فى جنة العرفان مقيله ورتعه . فاحذر أيها المريد أن تكون ككفار قريش الذين نظروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بنظر السخرية ، لما حجبوا عن حقيقته بصفاته

البشرية ، وقالوا : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » حرموا فى الدنيا بركته وفى الآخرة شفاعته وضلوا عن الطريقة السوية ، ويكفيك مقتا لهم أن الحق وصفهم بأنهم ميتون ، بقوله « إنك ميت وإنهم ميتون » أى إنك يا محمد ميت الصفات البشرية ، حى بالصفات الإلهية ، وإنهم ميتون لايشهدون تلك الصفات فلو كانوا أحياء لرأوك متصفا بها حيا بحياة مقدس الذات . فاحترز أيها المريد ، أن تنظر إلى أستاذك بنظرهم فتحرم المزيد ، بل كن كمن نظر من قريش إلى النبى بنظر الإيمان والتصديق ، حتى تحفك أنواره وتلتحق بذلك الفريق ، وفقنا الله وإياك لما يحبه ويرضاه ، وحشرنا معهم فى ذلك اليوم إنه سميع قريب مجيب لمن ناداه ، آمين . ثم قال رضى الله عنه ونفعنا به ، وألحقنا يوم الفزع الأكبر بركبه ، آمين آمين آمين :

أَنَا كُنْتُ مكنونا لِسرِّ عِلِيَّتُهُ وَعنْ فَهْمِهِ إِدْرَاكُ غَيْرِى قَاطِعُ

المكنون هو الشىء المستور لنفاسته كالجوهرة المكنونة فى الأصداف، وشبه نفسه بها لبيان رفعته ومقامه على بقية المتصدرين للإرشاد والإسعاف وأردت بذكر الأصداف الأوقات قال سيدى عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه .

صدفتم هى الأكوان تطوى وتنشر
وفى صدف الأوقات للحق جوهر

لأنه كان مستترا بمسايرته لها حسب ماتقتضيه من الأحوال . سترا لحاله قبل أن يؤمر بالإرشاد عن أهل زمانه من المنكرين وأرباب الجدال . وإليه الإشارة بقوله : لسر علبته ، أى من نفسى ، وهو أنى فى ذلك الوقت لم أكن أهلا للظهور فى العالم الحسى، قبل أن يأتينى الأمر به من قبل الرحمن. ولكون أن أهل عصرى لايسلمون لى فيه حتى يظهر لهم الحق من إرهاصاتى ما أقيم به عليهم الدليل والبرهان ، فلما اطلع عليهم من سماء فضله بدر إرهاصاتى ،

أمرنى بالظهور لهم ووزرنى بإشراق شمس كراماتى . وهذا السر عن إدراكه تقصر عقود أولى الأفهام ، إلا على من كان فى ميدانى من طبقات الأنام ، ومن أجل ذلك لما كان هذا الفهم عزيزا إدراكه . وقليلا مايوجد فى الناس دراكه . قال رضى الله عنه مشيرا إلى حسم أمانى من هو فى تحصيله طامع:
ومن دون إدراك غيرى قاطع . أى مقطوع بحسام تصور فهمه عن إدراك ماخص الله به أولياءه ، ووهب من خزانة كرمه أصفياءه ، فلما أن آن أوان ظهور هذه الجوهرة اليتيمة ، فتق سيدها رتق صدفتها فى الوقت الذى علم أنه سيكون لها فيه قيمة ، وأبرزها فيه رحمة منه على أهله ، ليستضيء بنورها جاهله من ظلمة جهله ، ويهتدى بها على منازل الأحباب ، ومراكز الوصول منهم والاقتراب ، ويستدل أيضا بها المتحير فى فلاة إنكاره وغور أوهامه ، على عدل « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فيرضى بقسط القاسم وأحكامه . ويحتمل أن يكون معنى أما كنت مكنونا أى مستورا بأذيال الخفاء والخمول ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يتعبد بغار حراء الليالى ذوات العدد خفية كما هو منقول. واستتارى كان فى ذلك الوقت لسر علته أنا ، وفهمته دون غيرى ممن لم يستطعم شراب المحبة ولم يتجرع مرارة حميا الفنا ، لأن من لم يذق صافى حياه . ولم يستطعم رحيق المحبة لم يذق طعم حلاوة البقاء بالله ، والمرارة هى مخالفته النفس وهواها ، وردها قهرا بسيف المجاهدة عن مناها ، قال الأبوصيرى رضى الله عنه :

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم

وهذا السر أى سر الاستتار المذكور . والخمول الذى ضمنت معناه البيت المزبور ، عن الفهم به والعلم بحقيقته إدراك غيرى ممن لم يعرف بأحوال السلوك ، قاطع له عدم اطلاعه عليهما ولو وازنت فطانته فطانة الملوك .

واعلم أنه لما أذاقنى الحق طعم الفناء وقطع بى واديه . وأوصلنى إلى مقام

البقاء وأحلني في ناديه ، وعرفني كيف الوصول يكون منه إليه . وكيف التملق به يكون إذا وقفت بين يديه ، جاءني الأمر بالظهور لإرشاد العباد ، وإبلاغ مالدى من الحكمة على لسان أشرف العباد ، وجعله الحق واسطة بيني وبينه في الأمر بالظهور بعد الخمول ، ليكون دعائي مطابقا لدعائه في الإجابة والقبول ، ولأكون متأدبا معه بآدابه ، ومقبلا على حضرته من بابه ومن لم يتأدب مع الواسطة لم يتقن الأدب مع الموسوط ، فاحتفل بالأدب معه لترق به عنده بعد الهبوط .

واعلم أنه مما دلنا على أن الأستاذ ماظهر إلا بواسطة الحقيقة المحمدية . إنه قال لنا مرة ونحن جلوس بين يديه في ضحوية . لاتعجبوا ممن بارزني من أهل المدينة بالإنكار ، فإنهم لم يتفق لهم أنهم رأوا واحدا قبلي ظهر بها من أهل الولاية والوقار . وإنما ظهرت أنا فيها بأمر ورد على من الملك القهار ، على لسان الواسطة في إظهار الوجود بعد الاستتار ، صلى الله عليه وسلم ، وجعلنا في الدنيا والآخرة ممن انتمى إليه . ودخل مرة شخص عليه من تلامذته فوجده جالسامتغير الحال . وبيده درة يضرب بها الأرض وقد ظهرت عليه آثار الجلال . وسمعه يقول أكان لأويس القرني أتباع ؟ أكان لأويس القرني أتباع ؟ ويكرر ذلك حتى مست الرجل هيبة منه حين رأى عليه من الجلال مالا يستطيع حمله إلا من كان على قدمه في الاتباع ؟ فعلمنا من كلامه الأول والثاني ، أنه ماظهر إلا بأمر ممن جاء بالسبع المثاني ، وظهر لنا منه أيضا أنه ماتصدر للإرشاد إلا وهو فيه غير راغب ، مخافة أن يشغله عن دوام شهود محبوبه ويكون له كالحاجب . ثم قال رضي الله عنه مشيرا إلى أن دعوته للمريدين كانت سابقة من اليوم الذي فتق الله فيه رتق الملأ . وهو اليوم الذي خاطب فيه الحق الأرواح بـ « ألست بربكم ، فقالوا بلى » ، ويؤيد إشارته لفظ الحديث ، الوارد عن النبي ، الشائع عند كل متقدم في العلم وحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم وزاده علوا وشرف : « الأرواح جنود مجندة

ماتعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف » ، أى ماتعارف منها يوم أخذ الميثاق ، حصلت الألفة بينهم فى دار المحن والشقاق . وماتناكر منها فى ذلك المقام ، اختلف للجهل السابق لهم فيه حتى برزوا فى عالم الأجسام فتألف كل مريد بشيخه فى هذه الدار ، دليل على سبق معرفته به حين كانوا أرواحا فى حضرة الأنوار ، وهو هذا البيت النفيس . العارى عن كل مايفهم من ظاهرة ذو رأى خسيس ، وهو :

وَيوْمَ أَلَسْتُ الكلُّ أجابُوا لدَعْوَتِي

وهامُوا بحُسْنِي والدمُوعُ هَوَامِعُ

وفى هذا البيت إشارة إلى أن الله تعالى اتخذه وليا من ذلك اليوم. وجعله داعيا وأمره بإرشاد القوم . فدعاهم إلى الله وهم أرواح فى تلك الحضرة بلسان الإرشاد . فنهم من أعرض عن دعوته ومنهم من قبل منه واستفاد ، وماأجابه منهم إلا من عرفه بالولاية ، وماجنح عن دعوته إلا من سترها الله عنه بعدم اطلاعه على سابقة العناية . ثم لما برزوا جميعا بقوالبهم البشرية إلى عالم الصور والشهادة . دعا الكل فأجابه منهم من أخذ عنه فى عالم الأرواح لتكون أشباحهم مطابقة لها فى الإفادة فظهر بإجابة من أجاب دعوته فى هذه الدار . طبق ماسبق له فى تلك الحضرة مذ كانوا أنوار .

واعلم أن كل من أخذ عنه أو عن ولى لله فاز فى العقبى بالسلامة . بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « اجعلوا لكم عند الفقراء يدا فإن لهم دولة يوم القيامة » ، فالسعيد من مات على ذلك ولم يعقب أخذه عنهم برده . وختم عقد أيامه وسلك نظام أعوامه بخاتمة الصدق لتكمل به له العدة .

واعلم أن المراد بالفقراء هنا الفقراء الذين هم مقتدون فى فقرهم بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وهو الفقر الاختيارى الذى به افتخر على سائر الأنام بقوله وهو أصـــدق القائلين : « الفقر فخرى وبه أفتخر » أى على سائر العالمين .

واعلم أن فقره صلى الله عليه وسلم كان اختياريا . ليس كما عليه غيره من الفقر الاضطرارى ، وشاهده أن الله خيره بين أن يؤتيه مفاتيح خزائن السموات ويكون له جميع ما فى الأرض من الجبال فضة وذهبا . أو أن يكون عبدا فقيرا إليه فى جميع حركاته وسكناته فاختار الفقر ، وأن يكون عبدا شكورا ، وأعرض عن ذلك كله وأبى . قال الأبوصيرى رضى الله عنه :

وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فأراها أيما شمم

وله فقر آخر معنوى وهو أشرف من الأول وهو الفقر الباطنى والفقر الباطنى هو اعتماد العبد فى جميع أحواله الظاهرة والباطنة على الله . وغناه بشهود جماله والحضور معه فى حضرات كماله عن كل ما سواه . كما قال لسان من اقتدى به فيه . وسلك مسلكه بهداية بارئه :

وبى غنى عن جميع الكون غيركموا
أما إليكم فإنى صادق لفقير

ولسنا نرى أحدا متصفا بعد الأنبياء بهذين الفقرين فى الوجود . إلا الأولياء الذين أخرجوا من قلوبهم محبة كل ماسوى المعبود .

واعلم ياأخى أنه مابرز إلى هذا الوجود ، إلا ما كان فى خزانة المنزه عن الاتحاد والحدود ، وهذا باتفاق العلماء الراسخين ، والصوفية المحققين ، فأول الممكنات عالم الأرواح فكل روح أبرزتها القدرة من حضرة العلم بما خصصتها الإرادة ، تظهر فى عالمها بذلك التخصيص ، فروح الشيخ لما خصصتها الإرادة الأزلية بالولاية والإرشاد ، ظهرت بها فى عالمها ، ودعت كل روح أبرزتها القدرة الإلهية وخصصتها الإرادة الربانية ، بأن تكون مريدة له فأجابته وأخذت عنه . فلما برزوا جميعا من حضرة الغيب ، إلى عالم الصور والشهادة بعد شق الجيب ، برز كل منها بصورة ما كان عليه فى

حضرة الأرواح . ودليله استعدادهم للأخذ واستسلامهم له فى حضرة الأشباح . فليس فى الإمكان، إلا ما فى العلم قد كان ، وماظهر فى عالم الأشباح إلا ما كان فى عالم الأرواح . ومابرز فى عالم الأرواح إلا ما كان فى خزانة علم العزيز الفتاح :

ليس فى الكون غير ما كان قدما
هكذا جاء عن نبى كريم
فتنبعه تلق ماقلت حقا
طبق ماجاء فى الكلام القديم

وأما معنى قوله رضى الله عنه : وهاموا بحسنى والدموع هوامع . أى هامت أرواح المريدين بعد ظهورهم فى عالم الشهادة بحسنى الذى أخلفه الحق على من تخلق بصفات الكمال، كما هامت سابقا بروحى يوم « ألست » حين ظهرت لهم بمظهر الجمال . حتى يتحقق ما كنا عليه فى حضرة « الأرواح جنود مجندة » ويظهر سر « ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فى حضرة الشهادة المجردة . وعبر بالحسن عن صفاته لأن الصفات الحسنة تدل على كمال من اتصف بها والشخص كما علمت لا يصير حسنا إلا بالأخلاق الحسنة ، كما أنه لا يصير مستقبحا إلا بالصفات التى هى غير مستحسنة ، ولولا أن الصفات الحسنة ترفع الشخص فى كل مكان وزمان . ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أمته بالتخلق بها بقوله « تخلقوا بأخلاق الرحمان » . وأما من تراه هام به من غير المريدين ، فهيامه مسبب، والمسبب قد يزول بانقطاع السبب وقد لا يزول. بخلاف هيام المريدين الصادقين ، فإنه من حضرة «كان الله وهو قديم » والقديم لا يزول ولا يحول . وإن أردت أن تعرف ما السبب الباعث لهيام غير المريدين للأستاذ لتحترز إذا عرفت باعثه من الوقوع فى شركه وتنجو من الفساد .

فاعلم أن السبب الباعث لهم عليه ينقسم إلى قسمين - ومن تعلق بواحد منهما بعد من الصدق مثل بعد ما بين المشرقين - : الأول من السبب المذكور ، والباعث المزبور ، هو أن كل من سمع بصفاته وآمن بالغيب ، فهذا تنقص

محبته وإيمانه خصوصا إذا سمع بضدها من يتشبه بالصلحاء من أهل الإفك والريب . والقسم الثانى هو كل من كان يعهد منه إحسانا ومعروفا . وهذا كذلك، بقطعهما عنه ينقص حبه له إذا لم يكن به ملطوفا ، لكن هذا يكون أستاذه معه بين رجاء دوام صحبته ، وخوف انقطاع حبل مودته ، خلاف الأول لأنه ربما يتذكر معروفه فينصف من نفسه ، ويتحاشاه ويرجع القهقرى إلى الصدق فى محبته ، ويهجر هجره ويتوقاه ، ويعود إلى صحبته غب توبته من رجسه . وهنا قسم ثالث يرجى منه دوام الصحبة ، وعدم انصرام أسباب المحبة ، وهو كل من سمع بنعته الجميل فخالطه ليتحقق ذلك ، فإن وجدها طبق ماسمع الغائب لابد أن يصدق فى محبته بعد كشفه ماهنالك. ومن ثمة لما كانت المخالطة سبباً موصلا إلى سبق صدق المحبة ، نعت النبى المحققون بها وقالوا من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه .

واعلم أنى ماقسمت لك هذا التقسيم ، وبرهنت لك عن باعثه السقيم ، إلا بعد مارأيت كثيرا من الفقراء كان يواصلهم الأستاذ ، فلما قطع عنهم الوصلة ليمتحنهم بذلك رجعوا عن محبته بعد ذلك الوداد ، إلا القليل منهم يحصرهم التعداد . وكذلك شاهدت من المريدين غير الصادقين ومن جماعة من الناس ، كان يقدمهم فى حضرته فلما أخرهم ليختبرهم تغيروا ، ومحتد ذلك كله الرضى عن النفس المخالفة لطريق الأكياس ، فكل مريد يكون مع أستاذه كذلك ، فهو لايفلح أبدا ولو رقى فى العبادة إلى أعلى المدارك .

واعلم أنه لما كان مما يدل على صدق المحب فى هيامه ، انسياب سيب دمعه من المحاجر وانسجامه ، قال الناظم رحمه الله مشيرا إلى من يجهل هيام الصادقين من تلامذته بما يدل عليه ، ليتحقق ذلك وزول ماكان من الوهم لديه ، وهو قوله : والدموع هوامع . أى تجرى دموع تلامذتى حين يسمعون بذكرى من أجفانهم كأنها أمطار ، وبالانهمال تسارع .

واعلم أنه مادلنا على حب المريدين له حين كانوا أرواحا ، إلا حبهم له بعد ظهورهم فى عالم الصور قوالبا وأشباحا ، ويؤيده أخذهم عنه وصدقهم فى صحبته ، وكثرة تفاوضهم بذكره فيما بينهم والقيام بخدمته، وشاهد ذلك إجراء دمع كل واحد منهم إذا سمع به على صفحات خدوده ، واضطراب جميع جوارحه بعد سكونها وسائر وجوده ، كما شاهدت ذلك من جماعة متعددة كهول واضداد حين جرى بينى وبينهم ذكر مناقب الأستاذ ، منهم العلامة الصالح التقى ، سيدى الشيخ ابراهيم الزمزمى ، لازال غيث رحمة الحق على ضريح ضمه همى ، وذكر محاسنه فى الخافقين نمى .

اعلم أنى كنت يوما جالسا عنده فتذاكرنا محاسن الأستاذ ورفده ، فرأيته اهتش جسمه وبكى ، فتعجبت من فعله . فقال يا أخى لاتعجب فإن من شأنى إذا سمعت بذكر الأستاذ البكا . ومنهم المحب العاشق ، المخلص فى محبة الشيخ بقلب صادق . سيدنا ومولانا ذو الخلق الحسن الباهر . القاضى عباس المكى ابن المرحوم عبدالقادر ، كان إذا سمع بمحاسن الأستاذ الغريبة ، تجرى دموعه على خدوده كأنه قريب عهد بمصيبه :

إذا ماجرى بين المحبين ذكركم	تفيض دموعى كالحيا من محاجرى
ولولا دموعى ذبت من فرط عشقكم	وأصبحت ضيفا بين أهل المقابر
جزى الله عنى الدمع خيرا وليته	يدوم لكى يطفى لهيب ضمائرى
ويبقى لباقى الجسم حتى به لكم	أحن إذا ما أبصرتكم نواظرى

سمعت من بعض الإخوان ، يقول سمعت من أستاذنا قطب الأكوان ، قال يوما ونحن جلوس بين يديه ، مامات القاضى عباس إلا بحبنا حين نقل عليه ، ثم قال رضى الله عنه وأرضاه ، وسقانا ببركته من كأس حبه رحيق حمياه :

تَشَفَّعَتْ ذَاتِي حِينَ لَاحَتْ لِأَعْيُنِي
صِفَاتِي فَطَرْفِي فِي جَمَالِي رَاتِعُ

فإن قلت هذا كلام محله الاعتراض ، لما فيه من شائبة الأغراض ، لأنه يلزم من تعشقه لذاته إيثارها على الغير ، وهذا غير ممدوح لما فى إيثار الغير من الخير لقوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر على نفسه ويأمر به من أصحابه الخلاصة ،كسيدى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومن كان من أصحابه فى ميزانهم من العلم بالله وعزمه فى الإنفاق على ، وأمر من اختشى الضيعة منهم بإمساك الفضول ، وقال « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » . فالجواب أن المراد بالإيثار فى الآية الشريفة الإيثار بحطام الدنيا الفانية التى حقيقتها جيفة بصريح الحديث الوارد عن سيد الأحباب ، وهو قوله عليه السلام « الدنيا جيفة وطلابها كلاب » ، لا المراد به تقديم غيرك عليك فى الطاعات ، ولا بما فيه مضرة لإخوانك من المؤمنين والمؤمنات ، لأن ثواب الطاعة آيل إليك ، وإثم المضرة عائد عليك ، فتأمل فى قول من قدرهما على النفوس بصريح الآيات ، وهو قوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » أى لها ثواب ما اكتسبته من الطاعات وعليها إثم ما اكتسبته من الخطيئات ، وقال عليه الصلاة والسلام « عش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزى به » أى فى يوم العرض والزحام. وليس أيضا من الإيثار ان تؤثر على محبة نفسك محبة الغير ، لأنه ربما أنك إذا فعلت ذلك أهملت لعدم مبالاتك بها فترعى حول حمى الشر والضير . وصرت كأنك ماسمعت نداء لسان الحال ، حين قال لجوارحك أما وعيتم أما أصغيتم ، إلى صريح قول ذى الجلال ، « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، وقول أفضل من بين طرق الضلال والعمل المقبول ، « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » . وأن من عيالك التى تكون عنهم مخاطبا يوم القيامة ومسئولا ، نفسك وجوارحك بدليل قوله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، فأين أنت من قوله عليه السلام « عليك

بخويصة نفسك ، هل كنت عن سمع ذلك لاهيا بأنسك ؟ أم ثاويا فى منازل طمسك ؟ فإن قلت قد ورد أن كمال الإيمان لايتحصل للمرء إلا بإيثار محبة الغير على محبة نفسه خلافا لقولك الذى مر ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « الآن تم إيمانك ياعمر » حين قال له « لأنت أحب إلى يارسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسى التى بين جنبى » فالجواب أن إيثار محبة الأنبياء فرض لازم محتم ، وكذلك الأولياء والصحابة وأهل البيت وصلحاء الأمم ، وهو من أجل الطاعات ، وأجمل العبادات والقربات ، إذ لو لم يتصف الشخص بذلك لكان ضعيف الايمان مردود الأعمال ، لقوله عليه الصلاة والسلام « من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل الله منه صرفا ولاعدلا » أى لافرضا ولانفلا ، والسب محتده البغض ، والبغض فرع عن عدم المحبة ، فما بالك بمن لم يحب الأنبياء والأولياء وأهل البيت وصلحاء الأمم ، فمن آثر حبهم فقد تسبب لنفسه فى تحصيل كمال الأيمان لها وصلاح الأحوال ، والأحاديث الوارة فى كمال إيمان من آثر حب هؤلاء السادات كثيرة ، والأخبار الإلهية والأقوال المصطفوية فى ذم من آثر حب غيرهم المفضى بمن اتصف به إلى الخسران فى كتب أهل السنة شهيرة ، فاسئل عنها الراسخين فى العلم من أهل التنوير ، يبرهنوا لك عن صحة أخبارها ولا ينبئك مثل خبير .

واعلم أنه لما كانت نفس الإنسان هى مطيته فى تحصيل الصفات الجميلة . والكمالات الجليلة ، وإضافات كمالها إليه ، وتعدى نفعها إلى الغير وعود ثوابها عليه . ورأى الناظم نفسه ماوصل إلى مقام الكمال ، إلا بإعانتها له على ذلك ولا ظفر بمشاهدة مطلق الجمال إلا بصدق توجهاتها إلى ماهنا لك . ونظر إلى تأثير صفاتها فى الرجال . فرآهم قد بلغوا بها مراتب الكمال . تعشقها حينئذ ، خصوصاً حين رأى خلعة كمالها على الأغيار . وكذلك خصها لما رأى أنه ما وصل إلى مقام الخلافة إلا بواسطتها من كمال المحبة بالإيثار .

ـ نواعلم أن من كمالاته التى اتصف بها بعد ما زكت ذاته بالمجاهدة ، العلم بالله والورع والزهد والكرم والصبر وحسن الأخلاق والمشاهدة . فهو لما رأى بعض تلامذته ظهروا بهذه الصفات الكاملة . وأرشدوا بها إلى مقام الكمال كل نفس جاهلة . ورأى جميع حسنات الجميع فى ميزانه تكون يوم الحسرة والندامة . بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » وتحقق أنه ما تحصل على هذه الحسنات وجلائل النعم ، الوارده فى حديث « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » ، إلا بواسطتها وهمتها العلية . تعشقها وآثر حبها على حب سائر البرية . عملا بقوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه » وبما أتانا به أن قال « من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه » . وأى معروف أجل مما صنعته معه نفسه الشريفة . قربته من حضرة مولاه حتى تنعم بمخاطبته . ودنت له بموتها رؤيته . ومشاهدة حضرته المنيفة . والمراد بالموتة هنا الموتة المعنوية ، للخبر الوارد بالسند الصحيح عن السادة الصوفية ، وهو قوله عليه الصلاة والسلاة « إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » أى إما بالموت الحسى للغـــافل . أو بالموت المعنوى للكامل الواصل . فافهم يا أخى كلام الناظم بالمعنى المراد . تهد إنشاء الله تعالى إلى سبيل الرشاد .

واعلم أنه لما كان جمال الصنعة يدل على كمال الصانع ، وكل صانع إذا أعجبته صنعته لا بد أن يتفقدها بعود النظر إليها ، لأنه كلما أعاد نظره فيها وأعجبته حمد الله على ذلك . وافتخر بها على من شاركه فيها افتخار العارف على السالك . قال الناظم : فطرفى فى جمالى رائع . الرتع : هو انتقال الدابة من مرعى إلى مرعى آخر . ورتع العارف : هو انتقال نظره من مظهر صفات إلى مظهر آخر ، وعبر بالجمال عن الصفات ، لأنه ما صار جميلا إلا بها

عند جميع المخلوقات . وأراد بالصفات مظاهرها وهم تلامذته لأن الصفات لا ترى ، فتعين حينئذ أن المراد مظاهرها وهم تلامذته من باب « واسأل القرية التى كنا فيها » أى واسأل أهل القرية وهذا القياس صحيح بلا امتراء . لأن من تلامذته من ظهر بصفة العلم بالحقائق . ومن كان كذلك فهو مظهر علمه بين الخلائق . ومنهم من ظهر بالحلم وحسن الأخلاق ، ومن كان كذلك فهو مظهر حلمه الذى طاب مورده وراق ، ومنهم من ظهر بالصبر والورع فى جميع الأحوال ، ومن كان كذلك فهو مظهر صبره وورعه اللذين هما من صفات الكمال فى الرجال ، وقس على ذلك فى جميع الصفات التى تحلت بها ذاته . فكل مريد ظهر بصفة من هذه الصفات فهو مظهر ما أفاضت به عليه صفاته ، ويحتمل أن يكون معنى تعشقت ذاتى : أى لكون أن بها كان استدلالى على كمال توحيد من يقول للشىء « كن فيكون » لما أقت جدار « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . خصوصا لما ظهرت لى بعد ما أمعنت النظر فيها منها صفاتى . فرأيتها مستمدة من صفات الحق كما استمدت بالحياة من حياته حياتى ، وأن من صفاته الوجود ، ولولا ذلك الاستمداد لبقيت فى ظلمة العدم مفقود ، وكذلك من صفاته السميع ولولا ذلك الاستمداد لسمعى ما عرفت معناه ، وأن من صفاته البصير ولولا بصرى المستمد من أنوار هذه الصفة ماعرفت معنى البصير ، وأبصرت بلا جارحة كل جليل وحقير . ولما ظهر لى بكشف نور « وفى أنفسكم » أنى محل للظهور . ومنبع لأنوار أسمائه وصفاته على ممر الدهور ، وتحققت أنى لست للفعل الصادر منى إلا آله ، وتيقنت أنه ليس الفاعل بها فى الحقيقة إلا ربها وما أنا له إلا كالآلة ، جعلت طرفى دائما ينظر فى محاسن مايبرزه بها منى ، حالة كونى متبرئا من نسبة شىء منه إلى تاركا حياء منه مقالة إنى إنى .

واعلم أيضاً ياأخى أنك إذا فهمت معنى كلامى هذا وظهر لك كالمحسوس.
لاتنكر حينئذ على أحد من الفقراء إذا أكرم نفسه بالمطعم والشرب
والملبوس ، لعلمك أنه ماأكرمها إلا لكونها كانت واسطة له فى معرفته بربه،
وصنعة يديه المنزهتين عن الشبيه وسبباً فى قربه ، وما أحبها أيضاً وآثرها
بجميع ذلك ، إلا لمحبة الله لها وتسخيره لهـــا جميع مافى الممالك ،
ولولا أن هذا النوع الإنسانى كان أكرم الخلق على مولاه ، وأحبهم إليه
دون ماعداه ، ماباشر الحق بيديه تركيب بنيته ، وأبرزه فى العالمين على
صورته ، واتخذ منه خليلا لذاته ونجياً وصفياً،وروحاً ونبياً وولياً ،وحبيباً
رقى به إلى مقام لم يصله أحد غيره من المخلوقات ، وأفاض على البعض منه
علماً لم يكن عند أهل السموات ، وفضله على غيره من المخلوقين ، وسخر له
جميع مافى السموات والأرضين . قال تعالى « وسخر لكم ما فى السموات وما
فى الأرض جميعاً ، منه وقال تعالى « علم الإنسان ما لم يعلم»أى ما لم يعلمه غيره
من العوالم الآخذة عنه ، فالأولياء رضى الله عنهم ما أكرموا بجميع ماذكر
إلا مكرم السلام ، لشهوة فاسدة ونية كاسدة كالعوام ، بل اقتداء بفعله
وليستعينوا بها على خدمته ، وإظهار الشكر له بين خليقته ، فافهم مقاصد القوم
الكرام ، وتظفر بالنجاة من اعتقادات العوام . قال رضى الله عنه :

أشَاهِدُ فى مِرْآةِ ذَاتِى بِمَشْيَتِى ... صِفَاتِى فَأصْبُو نَحْوَهَا وأسَارِعُ

وفى هذا البيت إشارة إلى أن من طهر نفسه بماء المجاهدة الشرعية .
وزكاها بإخراجه لها من حوالك الصفات البشرية ، فإنها تصفو من
الكدورات ، وتنجلى حتى تصير كالمرآة ، بل تصير كل جارحة منها مرآة لها
نور لشدة صفائها يكشف به عن ماحدث فى بعضها من الكدورات ، فما
حدث فى مرآة بصره مثلا من كدر التفاته إلى غير الله انطبع فى مرآة سمعه،

وما حدث فى مرآة سمعه من دون سماعه لفضول الكلام انطبع فى مرآة بصره ، وما طرى مثلا فى مرآة قلبه من ران ميل إلى سوى الحق انطبع فى مرآة يده . فإن قلت الحائل موجود بين مرآة القلب واليد ، ومن شرط الانطباع المقابلة ، فالجواب أن الحائل الذى أشرت إليه صار شفافا بعد التزكية لا يحجب ماوراءه كما هو عادة كل شفاف ، وقس على ذلك فى مرائى ذاته . ويكفيك دليلا أن الله تعالى كشف لك عن حقيقة من حفظهم من سوء الآثام بإظهار جزء منه فى مثل ضوء الشمس بقوله تعالى : « وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » . أخبرنى بعض الفقراء قال : كان لى شيخ إذا نظرت إلى وجهه أرى صورتى فيه لشدة صفائه . وقوله أشاهد فى مرآة ذاتى ، دليلا على دوام مراقبته لذاته لئلا تخرج عما حدثها ، ودليلا على محافظته لجوارحه لئــــلا تقع فى ورطة ما نهيت عنه ، ودليلا أيضا على أن كل جارحة منه يصدق عليها أنها مرآة ولكنها لما تساوت فى الصورة والمعنى نزل الجميع منزلة المرآة الواحدة ، فقال أشاهد فى مرآة ذاتى، ومعنى أشاهد إلى آخر الشطر الأول أى أقابل مرآة ذاتى بمرآة مسمعى وعبرت عن المشاهدة بالمقابلة لكون ان المشاهدة لا تصح بدون المقابلة إما حقيقة أو تصويراً ، وقوله: صفاتى أى مرآة كل جارحة منى -لأنها صفاته- صارت فى هذا المقام بعد صقله لها بمصقلة الطاعات . فأصبو أى فأتوجه إليها إذا علمت بكدر حدث عندها بانطباعه فى مرآة سمعى بانجلائه عنها بمصقلة التوبة والاستغفار وأسارع لها بهما حتى تعود إلى صفائها .

اعلم أن قولى هذا له مثال من الخارج وهو أنه إذا ظفر مثلا سمعك بكلام غير موافق لك وتكدر بعد صفائه منه قلبك ، فإن ذلك الكدر ينطبع فى جميع وجودك ، وكذلك بصرك إذا نظر إلى شىء كان غنيا عنه وتكدر بنظره إليه سرك انطبع كدره كذلك فى جميع ذاتك ، وقس على ذلك فى جميع جوارحك . فظهر من هذا القول أن معنى الانطباع الكدر مثال

ذلك أن اللسان إذا هفا مثلا بهفوة بشتم أحد أو اغتيابه وتكدر بإثم الهفوة أو الغيبة فإن جميع الأعضاء تتكدر لصفائها لعلمها أن ضررها لا يختص به بل تشاركه فيه إذا اقتص الحق منه ، وكذلك البصر إذا تكدر بإثم النظر إلى محرم تكدرت جميع الأعضاء لتحققها بمشاركتها له فى حصول الألم إذا عوقب بذلك ، فافهم . ولا يوجد هذا الوصف إلا فيمن كانت مرآة ذاته صقيلة ، وأما من كانت مرآته مظلمة فإنه يأتى الذنب ولا يبالى لظلمتها ، إذ لو كانت مصقولة لانطبع كدر الذنب فيها ولتاب منه خوفا من العقوبة ، كما خافها الأول ، ومن ثمة وجبت التوبة على كل مؤمن من كل ذنب اكتسبته كل جارحة منه لتكون سببا لتطهيرها من درن ما اكتسبته. ومن أجل ذلك حكم بعض الصوفية على المريد بالوضوء بعد الغيبة والكذب والنميمة ليكون جامعا بين الطهارة الحسية والمعنوية ، إشارة إلى عظم الذنب الذى اكتسبته جوارحه، ومن ثمة أيضا تجد بعض المريدين إذا حجب عنه الكشف يعلم أن وجه مرآة قلبه قد حدث فيها كدر منع عنها انطباع الأشياء فيها ، ويستدل بذلك على أنه لابد أذنب ذنبا بجارحة من جوارحه فيتنبه له ويتوب منه فافهم . ويحتمل أنه أشار بالبيت إلى أنه قد تخلق بأخلاق الرحمن حتى صار يرى ويسمع وينطق بغير جارحة مخصوصة ، فيبصر من غير بصره ويسمع من غير أذن ، وينطق من غير لسان ، ومن هذا القبيل أرباب القلوب ، وهم الذين رفعوا ـ بالنوافل الشرعية ـ عن سمائها روائح الذنوب ، فإنهم يخاطبون بعضهم بلسانها ، ويسمعون خطبها بآذانها ، ويبصرون من غير جارحة ما من العلل فى باطن المحجوب .

واعلم أن فى كل شخص جنودا مجندة منها جند الحسد وجند الكبر وجند الشح وجند العجب وجند الرياسة وغير ذلك من الجنود المستقبحة وهى المشار إليها بالصفات البشرية ، وهذه الجنود المذكورة لا تخرج إلا إذا قوبلت بعسكر النوافل الشرعية ، فإذا قابلها الشخص بهذه العساكر وأخرجها قهرا من حصن النفس صارت النفس خالية مستعدة لحلول صفات الحق فيها

فحينئذ يفيض الحق عليها من صفاته فتبصر بخلقة بأخلاقه متصفة بأوصافه ، ويصير كأهل الجنة يبصر الحق بلا جارحة ، ويبصر كذلك ما لا يبصره النظر بلا جارحة ، وإنما يبصر الجميع بصفات الحق ويسمع خطاب الكل بصفاته ، وقد ثبت أن سيدنا ياقوت العرشى كان يسمع ديك العرش فى الأوقات الخمسة يؤذن وفى وقت السحر ، وليس ذلك من طاقة البشر .

واعلم أن أهل الجنة ماحصلت الرؤية لهم وسماع خطاب الحق إلا بعد دخولهم الجنة ، وما دخلوا الجنة إلا بعد الموت والمحاسبة ودخول النار من استحقها منهم . وكذلك أهل الله ماحصلت لهم رؤية الحق بعين البصيرة فى الدنيا والتخلق بأخلاقه إلا بعد ما أماتوا نفوسهم بسيف المجاهدة ، وأدخلوها فى نار المحبة ، وحاسبوها على النقير والقطمير ، ومن مات بهذا الموت المشار إليه بقوله عليه السلام « موتوا قبل أن تموتوا وحاسبوا نفوسكم قبل أن تحاسبوا » وحاسب نفسه ودخل نار المحبة لتطهيرها ، ومر على صراط الشريعة وورد حوض العلم بالله ، دخل جنة المعرفة به ورأى ربه فيها بصفته وخاطبه فيها بهويته ، فاظفر بهذه الإشارات ، تظفر بالأمنيات . ثم اعلم أنه يحتمل أن معنى قوله : أشاهد فى مرآة ذاتى إلى آخر البيت : أنه أراد بالمرآة الكون لأنه مرآة العارف لايخفى عليه منه شىء ، كما لايخفى على من طالع فى المرآة من أحواله أمر ما ، ومن ثمة نسبها إليه وقال : مرآة ذاتى ، قال العارف بالله سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه :

نظرت إلى بلاد الله جمعا   كخردلة على حكم اتصـــالى

وقوله : أشاهد ، يدل على دوام نظره إليه وهذا اللفظ إلى آخره يفهم منه أنه فوض إليه أمر الكون يتصرف فيه وأنه أقام فى كل ناحيه منه جماعة من خواصه لحفظ تلك الناحية لأن ذلك من لازمه ـ كما هو مشاهد من الخارج ممن ولى أمر الناس ـ وهو مع ذلك لاينفك بمدهم بالتوجه منه بدليل قوله فأصبو نحوها وقوله أشاهد فى مرآة ذاتى بمسمعى أى أسمع ، ونزل المسموع

منزلة المشاهد لكثرة تواتره . وقوله بسمعى أى بإصغاء سمعى لتواتر أخبار تأثيرات مظاهر صفاتى فى الكون ، وليس مظاهر صفاته إلا تلامذته كما قررنا لك ذلك سابقا .

واعلم أنه لما كانت الصفات معانيا لا تدرك ، والمسموع يشهد ، بل إنما المسموع والمدرك حقائق محسوسة ، بآلات محسوسة ، قدر الناظم المضاف فيها وحذفه لضيق المحل قياسا على قوله تعالى « واسئل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها » أى واسئل أهل العير ، والعير هى الجمال ، والجمال كما علمت لا تسأل فافهم ذلك ، ويحتمل أن يكون معنى أشاهد إلى آخر البيت أى أسمع ذكر محاسن مظاهر صفاتى بالثناء عليهم بين الناس فأصبو نحوها ، أى فأتوجه نحو ذات الحق بالثناء عليها حين أسمع ذلك ، وأسارع لها بالشكر ، حيث جعلت تلامذتى ممن يثنى عليهم بالثناء الحسن الجميل كالسادة الأكياس ، أو بمعنى فأتوجه لها بحفظ قلوبها من الغرور إذا بلغها ثناء العباد عليها ، وأسارع لها بذلك خشية عليها من الوقوع فيه والكل محتمل ، ويحتمل أيضا أن يكون معنى البيت أشاهد أى أرى تأثيرات مظاهر صفاتى فيمن أخذ عنهم كالزهد والصبر والورع والعلم بالله فأحمد الله تعالى على ذلك وأصبو نحوهم ، أى فأتوجه بالدعاء لهم إلى الله وأسارع به إليهم ، لعلمى أن كل ذلك يكون فى ميزانى بواسطتهم ، ويحتمل أن تكون تأثيرات مظاهر صفاته المراد بها كراماتهم ، فهو يفرح إذا رأى أو سمع أن أحدا من تلامذته أو تلامذة تلامذته ظهرت له كرامات كإغاثة مصاب أو دفع بلاء عن مؤمن أو غير ذلك ، مما يطلق عليه اسم الكرامات ، ويحتمل أن يكون المعنى أنه يشاهد - هو - تأثرات صفاته فى مظاهرها الآخذين عنه من غير واسطة ، كما هو السابق الفهم والمشاهد لنا .

كما شاهدنا ذلك من جماعة جاؤا إليه فرادى فتوجه له كل واحد منهم بحال فقام من عنده وهو متصف بذلك الحال من ساعته منهم العلامة الشيخ

إبراهيم خليل دخل عليه فتوجه إليه وتكلم معه فى الوحدة ، بالعلم بالله فما قام من عنده إلا وهو عارف عالم بالعلم الذى علمته خواص أوليائه .

ومنهم مولانا الحاج رجب الصعيدى كان من أهل الثروة مستغرقا فى حب الدنيا دخل عليه فتوجه له فى الزهد وتكلم معه فيه فلما سمع ذلك منه قام من عنده ومضى إلى داره وأنفق جميع أمواله . وأمثال هؤلاء كثيرون وإنما اقتصرنا على ذكر هذين الشيخين خوفا من التطويل .

وقد صار للفقير مثل ذلك ، اعلم أنى كنت جاهلا بهذا العلم فدخلت عليه يوما فوجدته واقفا على باب داره فقبلت يده فالتقط نواة من الأرض ودفعها إلى وقال لى تأمل فيها فجعلت أنظر إليها لا أدرى ما مراده بذلك فقال لى أفهمت شيئا منها؟ قلت لا ياسيدى فقال انظر إلى هذا الخط المستطيل فيها ، فإنه يدل على الوحدة وسيكون لك فيها قدم ، ففرحت ببشارته ثم بعد مدة يسيرة فتح الله على بأبيات فى الوحدة ، بل عدة قصايد وأغلبهما بحمد الله استعملت فى مجالس الأذكار ، وانتشرت فى بعض الأقطار .

منها القصيدة التى مطلعها :

قسما بسر السر من تكوينى — وبنوره المشهود فى التكوين
حاشا تكون الكائنات جميعها — هى عينه فى مركز التعيين
بل إنما هى من عباب وجوده — موج بدا بملابس التفنين
هذا هو الحق اليقين قدم على — هذا الشهود ومل عن التلوين
وأقم لحيطته لكى ترقى بها — فيه لأوج مراتب التمكين
إياك فى ذا الملك تشهد غيره — ما ثم غير شؤونه بيقين
وإليه يرجع كل أمر مثل ما — منه بدا فى غاية التحسين
فانهض وخذ إن رمت نعت كماله — وجلاله يا صاح من تبيينى

هذا الوجود وإن تعدد واحد والكل مظهر كن بدا فى الحين
وجميعها كلماته ومداده نور الوجود هيولة التدوين

وهذه القصيدة فيها طول وفى ذكرنا منها لهذا القدر كفاية ومنها القصيدة التى مطلعها :

فى الحى قالوا غزال ليس يحكيه شمس ولا قمر فى الحسن والتيه
وأن للقوم خماراً وعندهم خمر وساق لهم فى الحان يسقيه
وقطرة منه تغنى الكون أجمعه وفى شهود جمال الحب تفنيه

ومنها القصيدة التى مطلعها

سحبت ذيولى التيه فخراً بنشأتى وهمت بسكرى بين صحى وعشرتى
ومن يكن السمان ساقيه كيف لا يتيه على الأكوان فخراً بنشأة
ويسحب أذيالا وينشد معلنا ظفرت بحبل الله فى سير سيرتى
سقيت مدام الحب من كف سيد عظيم النما بحر طما فى الحقيقة
مدامة غيب لو سقاها لميت لعاد إلى الدنيا وقام بسرعة
فنيت بها عما سواها وها أنا بها لم أزل فان عن الخلق جملة
وعن عالم الملك انتقلت بفضلها إلى ملكوت الله رفعا لرتبتى
وشاهدت أسرار الغيوب بكشفها وجئت لها منها بكل رقيقة

وهذه القصيدة تنوف عن مائة بيت .

ثم بعد نظم القصائد فتح الله على فألفت فى الحقائق كتبا ، وجعلت منها جملة « مرشدة الطلاب ، إلى سلوك طريق الأحباب » ومنها « الفتوحات السمانية ، فى السلوك والوحدانية » ، ومنها « المواهب الربانية فى محاسن طريقة القادرية » ، ومنها « فتح الجيب ، فى شرح توضأ بماء الغيب » ، ومنها « قطف أزهار العلوم اللدنية ، فى شرح النفحة القدسية » ، المنسوبة إلى الناظم رحمه الله تعالى وغيرها ، ثم أنى ألفت صلاة فى الجيب سميتها « بالفرج

القريب ، وحزباً سميته ، الحزب الأغر للحفظ من كل شر ، وجميع هذه المؤلفات نقلت بحمد الله تعالى واستعملت فى أغلب الجهات .

وكل ذلك مدده أجراه الحق على لسانى بفضله ، وأنا أبرأ إلى الله أن اعتقد أن ذلك من علمى بل علم أجرى الحق خلجاته على لسان أحقر العبيد من ينبوع تيار أمداد « ولدينا مزيد » .

أعلم يا أخى أن المشايخ لما أطلعهم الحق على استعداد كل مريد أمد ، كل واحد منهم على حسب قابليته واستعداده ثم أن من شفقتهم لم يدعوا المريد فى مقام واحد إذا وجدوه طالباً للزيادة ، بل من فتوتهم يتوجهون له فى حصولها ويسارعون له بالافادة. وإلى هذه المسارعة أشار الناظم بقوله: فأصبو نحوها وأسارع أى فأقبل عليها أى على المريدين بما طلبوه من زيادة المدد ، وأسارع لهم به ليكون كما لهم على يدى فى النهاية ، كما كان دخولهم فى طريق الله عليها فى البداية . وهذا ما ظهر من معنى البيت لفهمى السقيم ، ومن لديه زيادة من الأحوان فليلحقه به « وفوق كل ذى علم عليم » ، ثم قال رضى الله عنه وأرضاه ، وسقى بمزن الإحسان ثراه .

وكلُّ وُجُودِى بِى مَشُوقٌ وهَائِمٌ

وقَلْبِى فِى وَصْلِى وقُرْبِى طَامِعُ

أى وكل ما فى ذاتى موجود من الجوارح الحسية ، كالسمع والبصر واليد والرجل واللسان وما فيها من الجوارح المعنوية، كما بينته فى هذا البيان وهى الروح والقلب والسر وعالم المثال والعقل الوهم والفكر والخيال ؛ الكل منهم بى مشوق أى مفتن ،وعبر عن الاعتناء بالشوق لكون الاعتناء نتيجته عند أهل الصفاء والذوق . وهذا أمر ظاهر من الخارج ومعول عليه لأن كل من اشتاق إلى شىء اعتنى بالأسباب الموصلة إليه .

واعلم أن السبب الباعث لمجموعها على الاعتناء بمهماتى . وإعانتها لى بارتكابها لعزائم ماخلقت من أجله لتقرب منى بتعاطيها أمنياتى، أنها لما

سمعت قوله تعالى «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» وخبر «من أعان مسلماً فله كذا وكذا من الأجر» ونظائر هذه الأدلة وأمثالها. وقوله عز من قائل «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» وتحققت أن الهداية المتوقفة على وجود المجاهدة إذا أصابني وابل منها لابد أن يصيبها طلة فتكون شريكتي في حصول الفائدة، أعانني كل فرد منها بارتكاب ماخلق من أجله، مترشحاً به إلى ارتشاف هواطل فضله، فالجوارح الحسيه أعانتني بكفها عن محارم الله، وساعدتني بارتكابها لجميع مابه أمرها الله، والمعنوية أعانتني بتوجهها في جميع الحالات إليه، وأسعفتني بحسن مراقبتها له وصدق اعتمادها عليه.

واعلم أن في هذا البيت إشارة لطيفة، يفهم دقائقها من كانت أخلاقه شريفة، والاشارة فيه أن الشيخ شبه جوارحه بالنجائب، وذاته الشريفة بالراكب، والآخذ بأزمتها شوقه ومقصوده بسيرها معشوقة ليراه بعين بصيرته بعد كشفه بتوجهها لحجاب بشريته، فالجوارح مثلا لما علمت بمقصوده، وتحققت أنه محتاج إلى اعانتها ليستعين بها على فناء وجوده. المتوقف عليه شهود جمال المحبوب، بدليل قوله «من ماتت نفسه فقد رأى ربه وفاز بالمطلوب»، أعانته طمعا في حصول ثواب «من قضى لاخيه المؤمن حاجة قضى الله له بها سبعين حاجة»، وعملا بقول رسول ذي الجلال والإكرام، عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»، ورأت نفسها جارته وقد وجب عليها أن تراعي جواره أعانته لمقتضى الحديث بما هو محتم عليها، وطمعاً في وصول نتيجته عمل السائر بها إليها، خصوصا لما علمت بأن لذة النتيجة المذكورة لا تختص بجنابه، بل تشاركه فيها لكونها بضمته منوطة بإهابه، كما تشاركه في الإحساس بالألم ولذة التواجد.

وشاهد هذه المشاركة قوله عليه السلام «المؤمنون كالجسد الواحد» فكل عضو منه يصدق عليه مؤمن بالله، ودليله أن الإيمان تصديق

بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، فإقرار اللسان هو إيمانه ، وعمل الجوارح كذلك هو إيمانها ، وتصديق القلب هو إيمانه ؛ ومن ثمة من كفر بواحد منها أو بمجموعها أن يكون يجحد بها متعمداً لغير الله تعالى أو تكلم كلمة كفر حكمنا بكفره وإن كان قلبه مطمئناً بالإيمان مع أنه ما كفر إلا اللسان.

ومن هذا القبيل من سرق متاع أحد قطعت يده وهو تعذيبها لكونها كفرت بنعمة الله عليها ونعمة الله عليها بأن أباح لها أن تأخذ بقدر الحاجة إذا فقدت الحلال ، وخافت الهلاك .

فإن قلت لم يعذب الجسد بوزر اللسان وغيره من الجوارح وهو برىء منه ؟ فالجواب أن الجسد جميعه تابع للسمع والبصر واللسان فإذا تنعم أحدهم بفعل ما ، سواء كان حلالا أو حراما تنعم الجسد كله ؛ وهذا التنعم إذا كان محتده حرام فهو حرام ، فمن هذا الوجه حيث شاركهم فى التنعم بالحرمة استحق التعذيب ليكون مكفرا لوزر التنعم عنه وإلى هذا التكفير الإشارة فى قوله تعالى « الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

والحالة أنه ما زنى إلا الفرج وقوله تعالى « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » وهذا هو الحكم العدل وأما كون مباشرة هذا الفعل باليد لقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا بمثل ما أعتدى عليكم » .

وبهذا الوجه فى هـــذا المقام وهو مباشرة اليد للفعل ظهر أنه ليس هو كفرا منها إذ لو كان كفراً لجرى حكم القصاص عليها كما جرى على من تقدم ذكرهم فافهم ، فظهر من هذه العبارة أن الكل من الأعضاء مؤمن ممتثل لأمر الله مالم يخالف ، وهذه المشاركة التى قدمنا ذكرها لا ينكرها من المخلوقين أحد. ألا ترى أنك إذا تألم عضو منك تألم سائر الجسد وإذا تنعم تنعمت سائر الأركان حتى الروح منك والسر والجنان ، وهو بالنسبة إلى ما احتوت عليه ذاتك شيء يسير ، فكم فيك من عالم لم تشعر به ومن ثمة يسمى العارف

بالعالم الكبير ، فافهم . وأما معنى قول الناظم قدس الله سره ونفعنا ببركته من كل سوء وضره ، «وقلبى فى وصلى وقربى طامع » أى فى وصلى بعفو الله لما علم أنى تبت عن الالتفات إلى ماسواه ، وفى قربى من حضرته بعد مباينتى لكل ماعداه ، حين تحقق ذلك منى طامع لعلمه بأن من فارق الكون رجع إلى من هو له صانع . ويحتمل أن المعنى وقلبى فى وصلى أى إلى الموضع الذى كان منه فصلى والموضع الذى انفصل منه باعتبار روحه هو الملأ الأعلى ومن انفصلت روحه بالموت الحسى أو المعنوى رجع إليه ومن رجع إليه كان أقرب إلى حضرة الرب ممن بقيت روحه محبوسة فى قفص الجسم لانحطاطها به إلى العالم السفلى ومن ثمة طمع قلبه فى حضرة الله لما تحققت أن روحه الشريف فارقت جسده الكريم بالموت المعنوى .

ثم اعلم أنه يحتمل أيضاً أن يكون معنى قوله : وقلبى إلى آخر البيت أى وقلبى فى لحوقى بأصلى ، وأصل كل شىء كما علمت النور المحمدى بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا جابر رضى الله عنه « أول ماخلق الله نور نبيك ياجابر وخلق منه الأشياء وأنت من تلك الأشياء » ومن اتصل بهذا النور المذكور ، بعد فناء بشريته بالموت المزبور ، كان أقرب من حضرة الرب ممن لم يتصل به لكون أن لا شىء أقرب من هذا النور من حضرة ربه بدليل قول من أهلك القرون السابقة وأفنى : « ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » . فتأمل فى كلام الناظم رضى الله عنه وأرضاه ، وافهمه بالمعنى الذى بيناه لك وأوضحناه ، ولا تتبع أهواء قوم قد ضلوا عنه بتتبعهم لآرائهم ، واضلو به غيرهم فرجعوا جميعاً حين نسبوا الناظم فيها إلى مالا خير فيه من حضرة الحق إلى ورائهم ، بدليل الحديث الوارد من حضرة الله على لسان أصدق القائلين عند الرب ، وأكرمهم منزلة عنده وأقرب ، وهو قوله « من عادى لى وليا فقد آذنه بالحرب » . أعاذنا الله وإياك وكل مؤمن من ذلك وحمانا جميعاً من الوقوع فى ورطة المهالك . لأن من فسر كلام الأولياء برأيه فقد خطأهم ومن خطأهم فقد جهلهم بتجهيله لهم آذاهم ، ومن

آذاهم فقد عاداهم . ومن عاداهم وقع فى الوعيد وهى محاربة الله له نسأل الله العافية . وهذا الانكار كثير . ومن الأولياء من أوذى به لأن كثيرا من الناس من أنكر عليهم - بسبب ما سمعوه منهم حتى نسبوه إلى الكفر - لعدم فهمهم بمقاصد القوم ومنهم الجنيد البغدادى وسيدى محى الدين بن العربى وسيدى عمر بن الفارض وسيدى منصور الحلاج حين قال أنا الحق ، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين فالحذر الحذر ياأخى من مطالعة كتب الصوفية قبل أن تدخل فى طريقهم وتصل إلى ما وصلوا إليه من مفهوم معنى كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن القوم رضى الله عنه منعوا عن مطالعة كتبهم إلا بعد تصفية النفوس من كدر الذنوب فاعلم ذلك ثم قال رضى الله عنه ونفعنا به آمين :

وَأَيْسَرُ ما حُسْنِي يَهِيمُ بِبَعْضِهِ فُؤَادِي وَنَفْسِي فِي الغَرَامِ تُتَابِعُ

اعلم أن فى هذا البيت إشارتين الإشارة الأولى فى النصف الأول منه وهو قوله « وأيسر ما حسنى » والإشارة الثانية فى قوله «يهيم ببعضه» وهى فى النصف الأخير من البيت . فالإشارة الأولى تدل على أنه أراد بالحسن نور محمد صلى الله عليه وسلم السارى فى جميع ذرات الوجود والإشارة الثانية تدل على أن الحسن يتبعض فمن نظر إلى صورها فرق بين حسنها وقبيحها ومن نظر إلى أنها مظهر من مظاهر النور المحمدى رآها كلها حسنة قال تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » أى إذا نظرت إلى حقيقته .

واعلم أن النور المحمدى هو روح الأرواح ويظهر بكل صورة ومن ثمة لم يدرك حقيقته أحد من خلق الله تعالى ، فكل ذرة من الكون تظهر بصورة روحها وتلك الروح تظهر بصورة النور المحمدى الذى هو روحها ، وحيث كان هذا النور المذكور يتبعض باعتبار مظاهره لا حقيقته لأن حقيقته بسيطة . قال الناظم «وأيسر» أى وأقل ما إذا بدا حسنى وأضافه لنفسه لأنه به

صار حسناً ، كما صارت به كل الأشياء عند حسنة ، وقوله يهيم ببعضه ، يشير إلى أنه سار فى كل صورة من صور الأكوان ذلك الحسن الذى هو عبارة عن النور ، فهو يهيم بكل صورة على حدة لكونها من بعض ظهورات ذلك النور وقوله هذا حق . لأن النور المحمدى سارفى كل ذرة كما بيناه لك ومن ثمة إذا تحقق الولى بحقيقة هذا النور المحمدى يظهر بصورة النبى كما وقع للشبلى فإنه ظهر يوماً لتلميذ له بالصورة المحمدية وقال له اشهد بأنى رسول الله وكان ذلك التلميذ من أهل الكشف فقال « أشهد أنك رسول الله » بل ويظهر بكل صورة شاء فافهم . وسمى الشبلى بهذا الاسم لكونه تأسد فى الولاية بالتصريف والشبل هو الأسد .

واعلم أنه إذا تجلى عليه ذلك الحسن فى بعض من الصور ورآه ببصيرته هام به فؤاده ، وخص الفؤاد بالهيام إشارة إلى أنه من استعداده ، ويفهم منه أيضاً أن ذاته منطوية على عوالم غيره وسكت عن ذكرها تحويلا على الشارح . وها أنا أبينها لك مفصلة فن عوالمها الروح والقلب والسر وسر السر والخفى وأخفى الخفى والعقل والوهم والفكر والخيال وغير ذلك مما دخل تحت ستر « ويخلق ما لا تعلمون » .

واعلم أن لكل فرد من هذه العوالم ذكراً وتوجها وإدراكا وأقل الجميع ادراكا العقل ، لأنه من شعاع الروح ، وليس إدراكه إذا تبين أنه من شعاعها كادراكها .

ولما كان كذلك قال الناظم : « وأيسر ما حسنى يهيم ببعضه فؤادى » ، والمراد بالفؤاد العقل وتعبيره به عنه من باب ذكر المحل وإرادة الحال لأن الفؤاد حقيقة قطعة لحم صنوبرى لا إدراك له وليس الادراك إلا للعقل ، ولكن لما كان العقل محله الفؤاد عبر به عنه وإذا كان كذلك فيكون المعنى وأيسر ما حسنى أى وأقلها فى عوالم ذاتى إدراكا يهيم ببعض حسنى إذا مابدا له ما منها أومن غيرها ، إذ لو بدا له كله لذاب من فرط حسنه لكونه أضعف استعداداً مما فى ذاتى من العوالم لتحمل رؤية جميعه لو بدا له .

واعلم أنه من لازم من كان مدركاً ، أن يكون مطيعاً فى نفس الأمر ، وإن لم يكن يشعر هو بذلك . فكل فرد من هذه العوالم المذكورة الحسية والمعنوية له طاعة تختص به حسب استعداده لها فى الأزل . فنهم من تكون طاعته بالأعضاء الحسية وهى الأجسام ومنهم من تكون طاعته سرية وهم عالم المعنى كالروح والعقل وغيرهما ومنهم من تكون بالتسبيح كبعض الملائكة قال تعالى « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ويسبحون بحمده وهم لا يسأمون » .

ولما كانت هذه العوالم أى المعنوية الموجودة فى الإنسان كلها نورانية كالملائكة كانت عبادتهم كذلك بالتسبيح كالملائكة . قال تعالى « وأن من شىء إلا يسبح بحمده » وكل فرد منها يطلق عليه شىء فجميع ما ذكرناهم من العوالم فى شرح هذا البيت بهذا الدليل مسبحون مطيعون وذاكرون .

وقد ذكرت طاعة كل فرد منهم فى رسالتى التى سميتها « بالنفحة السمانية فى طريقة القادرية » . فراجعه فيها تظهر لك طاعة كل فرد منهم وكذلك مذكورة فى كتب السادة الصوفية بأوضح إشارة وألطف عبارة فتأمله فيها ترشد بها إنشاء الله تعالى على الصواب وفقنا الله وإياك للسداد . وسلك بنا جميعا سبل الرشاد .

واعم أن قولنا سابقا ، ومن لازم من كان مدركا أن يكون مطيعا فى نفس الأمر إلى آخره ، يشهد له قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وقوله حق فإذا كان الأمر كذلك فالكل عابد إما على وفق الأمر أو على وفق الإرادة ما ثمّ عاص أبدا إلا من أطاع الارادة وخالف الأمر فهذا يحكم عليه من هذه الحيثية بالعصيان وإن كان هو فى نفس الأمر مطيع للإرادة والله أعلم .

واعلم أنه يحتمل أن يكون معنى قوله « وأيسر ما حسنى » أى وأقرب شىء منى إذاما بدا لى حسنى السارى سره فى كل ذرة ، يهيم ببعضه فؤادى لأنه أسرع

انجذابا إلى الهيام من شاركه فيه من عوالم ذاتى ، وأراد بالحسن وجود الحق الذى هو به قائم وأضافه إلى نفسه لكونه ليس هو بحسن إلا مادام هو قائم به وحيث كان الوجود واحدا سارفى كل ذرة من ذرات الكون بعضه لكن باعتبار مظاهره . لأن الوجود المطلق لا يتبعض والله أعلم . والفؤاد هو باطن القلب وليس فى باطن القلب إلا العقل وهو نور يتصل شعاعه إلى الدماغ وهو المسمى بالجزء الاختيارى الذى به يميز الشخص بين طيب الأشياء وخبيثها وإليه الاشارة فى قوله تعالى « ألا إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » أى عقل ولما فوض الحق للإنسان ، أمره بعد ما خلق العقل وأودعه فيه وجعله نورا له يهتدى به على عواقب الخير والشر بعد ما بين له أسبابهما وحذره عن الشر ، فإن مال بعد ذلك إلى الشر أخذ به ، لأن من كان فى يده نور يمشى به فى ظلمة الجهل الذى حذره الله منه ووقع فيه فليس له بعد ذلك على الله حجة ، بل الحجة البالغة لله عليه يوم القيامة لكونه أعطاه نورا يمشى به فى الناس وبين له طريق الخير والشر ونتيجة كل واحد منهما .

ثم أتبع الناظم الفؤاد بذكر النفس ، والنفس هى الروح للرابطة الحاصلة بينهما والرابطة هى كونه من شعاعها ، فقال « ونفسى فى الغرام » وهو شدة الحب « تتابع » أى تتابع الفؤاد حين استطعمت لذة الحب بمتابعتها له فيه وذاقت نتيجته التى هى شهود المحبوب .

واعلم أن هذا العلم الذى ذكرته فى هذا الكتاب المتضمن للاشارات المزبورة والعوالم المذكورة من العلوم التى خص الله بها خواصه من عباده ، ولذلك لم يتعرض لها العلماء بظاهر الشريعة لأنهم من عالم الصور ، وماذكرناه فى شرح هذا البيت من العوالم جميعا هى من عالم المعانى . فالأولياء رضى الله عنهم لما خرجوا من عالم الصور بفنائهم عنه بالموت المعنوى التحقوا بعالم المعنى وشاهدوا منه ما شاهدوا وأخبروا بما رأوا ، فمن كان من عالم الصور

تعلق عليه به ومن كان من عام المعنى تعلق عليه به ، فإذا علمت ذلك فلاينبغى حينئذ لك أن تنكر على الأولياء فى علمهم هذا إلا إذا وصلت إلى مقامهم ، فلك حينئذ التوقف إذا رأيته غير مطابق للحقيقة والشريعة ، لا الإنكار عليهم ، حملا على أن الله اعلمهم على علم غير ما اعلمك عليه خصوصية منه لهم قال عز من قائل « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » وقال جل شأنه « وفوق كل ذى علم عليم » وقال سبحانه وتعالى « يختص برحمته من يشاء » .

واعلم أنه يفهم من كلام الناظم أنه جعل الحسن كليا لأنه ذكر له جزء بقوله «بهم ببعضه» . وهذا التفسير على غير ما به فسرته لك سابقا لأنى سابقا فسرته لك بالوجود المطلق وتفسيره هنا إذا إردت بيانه ، نقول لك إذا كان الأمر كما أشار إليه فيحتاج حينئذ أن نبين لك أجزاءه وتثبتها لك بحديث صحيح يؤيد لك ما ذكره .

واعلم أنه من أفراد الحسن الحلم والعلم بالله وحسن الخلق والصبر والزهد والورع والتواضع ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ومخالقتهم بالخلق الحسن . قال صلى الله عليه وسلم « وخالق الناس بخلق حسن » وقال عليه السلام « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » ومنه الإيثار والكرم وترك الرجل ما لا يعنيه لقوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه » ومنه أيضا لين الجانب للبر والفاجر خصوصاً لمن كان تابعا له . قال عز من قائل « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، وقال عز من قائل « فبما رحمة من الله لنت لهم ولوكنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » فكل فرد من هذه الصفات المذكورة جزء من الحسن ، ولم تكمل هذه الصفات لأحد إلا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو الذى أعطى الحسن كله وليوسف عليه السلام نصفه ، لما ورد أنه أعطى شطر الحسن :

تجمع الحسن فيه فهو واحده ... وليس يحكيه فى أوصافه أحد
وحسن كل مليح لو بدا لهم ... من حسنه البعض طرا نحوه سجدوا

وقد بعض الحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل الحديث الذى أوردناه سابقا وهو قوله عليه السلام « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » وقوله عليه السلام « وخالق الناس بخلق حسن » ومن هنا للتبعيض وبجمع هذه الصفات كلها حسن الخلق ، ومن ثمة مدح الله نبيه به فقال عز من قائل « وإنك لعلى خلق عظيم » فالخلق العظيم هو الفلك الأعظم المحيط بجميع دوائر الصفات المذكورة ، كما أن العرش العظيم يحيط بجميع دوائر الكون العلوية والسفلية ، ودليلنا على أن الشيخ له وجه صحيح فى إشارته بتبعيض الحسن قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وفى هذا الحديث إشارة إلى أن الحسن كلى وله أجزاء ومن أجزائه ترك المرء ما لا يعنيه كما قررناه وأفراد ما لا يعنى الرجل لا تحصى وترك كل فرد منها جزء من الحسن الجامع لاضدادها .

واعلم أنه كما أن هذه الصفات الحميدة جنود مجنده فى مدينه جسم الإنسان الكامل يتصرف بها فى إخراج ضدها من قرى الأجسام ممن صدق فى محبته من المريدين ويخرجه بقوتها من أسر البخل له إلى ميدان اتصافه بالكرم ، ومن وصفه بالشح إلى أخذه بالايثار ومن صفة الغضب إلى صفة الحلم ، فكذلك له عوالم تسمى عوالم المعانى يتصرف بسراياها الكائنة فى ذاته كالروح والسر والنفس وغيرهم فى عوالم المعانى الكاينة فى ذات المريد المذكور فيتوجه كل عالم منها بهمته لما خلق له ويوجه كذلك هو كل سرية منها كائنة فى ذاته لما خلقت له ، ومن ثمة لما كان الفؤاد من جملة ما خلق لأجله استعداده للهيام . والروح استعدادها للمحبة .وصف كلا منهما فى البيت بما هو مخلوق من أجله .

واعلم أن نتيجة الهيام للقلب والمحبة للروح راجعة إليهما فالقلب إذا هام مثلاً بشىء وادركه الإنسان فإنه يتروح به بعد حزنه لفقدة ، وكذلك الروح إذا تعلق حبها بحسن الخلق مثلا واتصف به الشخص فإنه فى القبر كما ورد

فى صورة رجل جميل الصورة فيستأنس به من الوحشة .

واعلم أن الناظم رضى الله عنه .اذكر لك فى هذه القصيدة الروح والقلب وخص كل فرد منهما بوصف إلا ليبين لك أن لكل فرد من العوالم التى فيك استعدادا به يكون متوجها إذا اعتنه بهمك لما خلق له « إن خيرا فخير وإن شرا فشر » وقد بين الحق لك كليهما وأوضح لك طريقهما ونتيجتهما فقال « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملته من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر والبر ما أطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب .

واعلم أيضا أن الأستاذ ما بعض لك الحسن إلا ليرشدك بذلك على أنه لاتحبه إذا رأيته متصفا بجميع أفراده أو ببعض منها لما فى ذلك من وجود علة والعلة كاعلمت عارضة ، والعارض ربما أن يزول بعارض آخر ، بل كن محبا له من جهة كونه وليا لانك إن أحببته من جهة كونه متصفا بالكرم أو بالحلم أو بأى وصف جميل كان ، فإنك على شفا فى محبته لكونه محلا لتجليات الحق فربما يتجلى عليه ضدهافيظهر به ، فتنفر نفسك منه لعدم علمك من أنه مظهر للتجليات الربانية . وأما إذا كنت محبا له لكونه وليا لله فقط فإنك حينئذ تنتفع به بخلاف ما إذا أحببته من جهة كونه كريما أو حليما أو عالما فإنك إذا أحببته من هذه الحيثية تكون حينئذ على خطر عظيم كما شاهدنا ذلك من جماعة أحبوا الأستاذ لما رأوه عاملهم بحطام الدنيا فلما أمسك عنهم نفروا عنه والعياذ بالله فمن كان هـــذا وصفه فهو من المؤلفة قلوبهم .

واعلم أن الناس يتفاوتون فى أغراضهم مع مشايخهم فنهم من يحب شيخه إذا ظهر له مثلا بصفة العلم فهذا إذا جاء إلى شيخه المرة بعد المرة وفى كل مرة يسأله عن مسأله فإذا ، تستر عنه بالجهل ولم يجبه عنها ليمتحن صدقه ، فإنه إذا لم يكن يعلم بمراد المشايخ فى ذلك يبعد عنه مقدار ميل . ومنهم من

يحب شيخه إذا ظهر له بصفة الكرم ، فإذا أمسك عنه ليختبره فى محبته فإن هذا يبعد عن شيخه مقدار فرسخ بخلاف الأول ، والسبب فى ذلك أن حب الدنيا فى القلوب أشد من غيرها ، فكذلك لما كان حبها أشد كانت كراهة من امسكها فى قلوب الناس أشد ، وهذا لاينكره أحد ، وكل ذلك يحسه من نفسه الإنسان ، ومن ثمة قال صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فالمشايخ إنما يستترون بهذه الأحوال ليكشفوا بها عن صدق المريدين فى طلبهم فمن وجدوه ليس مقصوده ـ من الصحبة ـ إلا ليقربوه من حضرة مولاه فهذا يمنحوه الأسرار ، لأنه أهل له ، ومن وجدوه بخلاف ذلك أبعدوه من حضرتهم شيئا فشيئا ومنعوا الفقراء من صحبته لئلا يفسد عليهم نياتهم .

واعلم يا أخى أن كل فرد من الصفات التى قد منا ذكرها هو حسن فى نفسه ويجمعها كلها الحسن الكلى وهى الولاية فكل من كان متصفا بها فهو قطعا يكون جامعا لجميع الكمالات ، ولجمع أفراد محاسن الصفات ، فمن وقف من المريدين مع كمال واحد ظهر له من شيخه فهو محجوب به مادام واقفا عنده عن ولايته وهذا هو الذى يخشى عليه من الردة إذا ظهر له ضده ، ما لم يكن عارفا بتجليات الحق على العبد ومن نظر إلى خصوصيته بنظر خاص ولم يلتفت إلى غيرها انتفع به وأدرك منه ما لا يدركه غيره ممن وقف عند حد كمال واحد أو أكثر ظهر له من شيخه :

أخلصت حبى لكم صرفا لأنكم	خلاصة الحق صدقا من خليقته
تخلصوا يا حماة الدار عبدكم	من قبضة البين كى يحظى بغيته
ومن كدوراته صفوه على إذا	صفيتموه بصافيكم بصفوته
حاشاكم تهملوا يا أهل كاظمة	لكاظم الغيظ مقصودا لقلته

ثم قال رضى الله عنه وأرضاه ، وسقى بماء المغفرة والرضوان ثراه :

فَسَمْعِي مُشْتَاقٌ لِيَشْهَدَ بَهْجَتِي   وَطَرْفِي مُصْغٍ وَالْفُؤَادُ يُرَاجِعُ

ويفهم من هذا البيت أن لكل جارحة وصف غير ما هى موصوفة به عادة ولله خرق العوائد ، ومن عرف الله تعالى بالقدرة لاينكر ذلك ، فقد أثبت الله وجود مثل ذلك فى الدنيا ، ألا ترى إلى النبى صلى الله عليه وسلم كيف كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه وقد ذكرنا لك فى أول الكتاب أن الشخص إذا تخلق بأخلاق الحق واتصف بصفاته لاتتقيد صفاته بشىء دون شىء بل يصير كله سمعا وبصراً ولسانا ، فإن وجد مثل ذلك فى ولى فهو كرامة نالها من طريق الإرث منه صلى الله عليه وسلم . إذا كان محمديا أو ابراهيميا أو موسويا أو عيسويا لأن كل ولى هو وارث لحال نبى وما من كرامة تصدر منه إلا هى معجزة لذلك النبى الذى هو وارث لحاله . ومن عرف معنى « تخلقوا بأخلاق الرحمن » الحديث وقوله عليه السلام « خلق الله آدم على صورة الرحمن » لاينكر ذلك بل يسلم لكل ولى ادعى ذلك.وماذكرنا لك هذه الأدلة إلا لنثبت به فؤادك على التصديق بكرامات الأولياء وخصوصياتهم ، وإلا فمراد الناظم بهذا الكلام وهو قوله وسمعى مشتاق ليشهد بهجتى، أى ليستمع بإنصاته ذكر محاسن بهجتى ، والبهجة هى الزينة بكل شىء حسن استعد لها ومن جملة ذلك الشىء الثناء الحسن عليه ليكون ذلك الاستماع سببا باعثا له على زيادة الشكر لله تعالى حيث أجرى ذلك على ألسنة الناس.وزينة الرجل بشهرته عند الناس بالصفات الحميدة من تمام نعم الله عليه ، لأنها كالشهادة له بذلك . ومن شهد الناس فيه بالخير فهو من أهل الخير لقوله عليه السلام « أنتم شهداء الله فى الأرض » ومن ثمة لما بلغ بعض العوام هذا الحديث إذا مات عنده ميت يأتى برجلين ويدفع لهما دراهم ويتركهما يمشيان تحت جنازة الميت يناديان كان من أهل الخير رحمة الله عليه رجاء أن يغفر الله للميت بشهادتهما .

قال بعض أهل الفضل ألسنة الخلق أقلام الحق فمن جرت أقلام الحق

بسعادته فهو سعيد ، وأما تعبير الناظم عن استماع الخير بقوله « ليشهد » لأن تواترة ينزله منزلة المشاهد بالعين حتى أنك لو فحصت عنه بعد ذلك تجده طبق ماسمعت به ، وكذلك إسناده للشوق إلى السمع إنما هو مجاز لأن الشوق لا يكون إلا بالقلب ، ولكن لما كانت الجوارح تبعا له فى اشتراكها معه فى لذة استماع الخير إن كان حسنا وتألمها به إن كان شينا ، وهى له بمنزلة الجواسيس نزلها منزلته فيما نسبه إليها ، والسمع لما كان مسلكا لاستماع مايحصل به الشوق للقلب ويشاركه فى اللذة به نسبه إليه ، وكونه مشتاقا ليشهد أى ليستمع ذكر محاسنه لايعترض عليه فيه لنيته الصالحة قال عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات » لأنه ربما تكون نيته بذلك التوجه الكلى إلى الله بالشكر إذا سمع ذلك ، وزيادة الشهود للمعنى الذى تضمنته الآية الشريفة وهى قوله « انطقنا الله الذى انطق كل شىء » .

فالعارف إذا مدح انبسط لأنه لايرى المدح إلا من الله كما لايرى الذم إلا منه فهو فى كلا الحالتين أى حالة المدح والذم ينبسط بخلاف الزاهد ، لأن الزاهد ينقبض فى كلا الحالتين أى حالة المدح والذم ينبسط بخلاف الزاهد ، لأن الزاهد ينقبض فى الحالتين لكونه يرى ذلك صادرا من المخلوق حقيقة على خلاف الأول ، والزاهد بخلاف الجاهل لأن الجاهل فى حالة المدح ينبسط وفى حالة الذم ينقبض لأنه واقف مع حظ نفسه . ومما يدلك على أن الأول وهو العارف أنه يشهد المدح والذم كلاهما صادرا من الحق حقيقة قول الناظم رضى الله عنه « وطرفى مصغ والفؤاد يراجع » أى مصغ بإطراقه إلى الأرض حياء من المادح له فى الحضرة بلسان عبد من عبيدة وهو بين يديه ، لأن الوجود بأسره حضرة الحق وما من عبد وجد فى الحضرة إلا وهو بين يديه .

قال تعالى « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا » فالعارف يطرق برأسه إلى الأرض إذا مدحه أحد فى حضرته حياء من المادح له

حقيقة . فيظن الجاهل أنه يفعل ذلك حياء من الناس . قال الجنيد رضى الله عنه مكثت أربعين سنة أخاطب الحق فيظن الناس أنى أخاطبهم . ورأيت مرة إنسانا دخل على الناظم وشتمه شتما عنيفا وهو منصت خافض نظره إلى الأرض كالرجل المستحي من المؤدب له ، فلما سكت ، قال له هل بقى عندك شيء مما تؤدبنا به ؟ قال لا ، وقام من عنده وانصرف . فجاء شخص إلى الشيخ من أولاده وقال له ياسيدى كيف سكتم عنه؟ لم لا تشكونه إلى الحكام؟ فقال له يا ولدى ماصنع معنا شيئا يوجب لنا أن نشتكيه بل إنما ذكرنا بعيوبنا .

وفى الحقيقة ان الله هو الذى أنطقه بذلك ، فسكت حين سمع ذلك منه ولم يتكلم بعد ذلك ، فتأمل رحمك الله فى كمال هذا الشهود المشير إلى تحققه به وإلى إطراق رأسه إلى الأرض كالمستحي منه وهو يشتمه يظهر لك أنه يشهد نفسه بين يدى الحق وهو يؤدبه بلسان عبد من عبيده ، ولاشك أن العبد إذا مدحه سيده وهو بين يديه أو شتمه لتأديبه يغض طرفه ويطرق برأسه إلى الأرض حياء منه وهو مع ذلك يثنى عليه إما بلسانه ، وإما بقلبه إذا منعه شدة الحياء عن النطق به خصوصا إذا كان محسنا فى حقه . وإلى هذا الإغضاء والثناء بالقلب أشار الناظم بقوله : «وطرفى مصغ والفؤاد يراجع » أى وطرفى مغض باجفانه مطرق بها إلى الأرض خجلا من سيدى حالة كونه يخاطبنى بما به يصلح أودى والفؤاد منى يراجعه فى طلب الزيادة من الخطاب المشير لى إلى سلوك طريق الأدب ويثنى عليه حيث تفضل على بما هو أهله من الاعتناء بى ، وعبر الناظم بالإصغاء عن الإغضاء والإطراق لأن ذلك وصف من أراد أن يتحقق الخبر وكذلك وصف المستحي من المادح سيما أن كان ممن يستحي منه .

واعلم يا أخى أنه لك أن تحمل معنى البيت جميعه على ظاهره إيمانا بكمال قدرة الله تعالى كما أنك تؤمن بأن الإنسان تشهد عليه يوم القيامة جوارحه إيمانا كاملا وتصديقا منك بخبر « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم

وأرجلهم بما كانوا يعملون ، ومن جعل ذلك يوم القيامة قادر على أنه يجعله فى الدنيا ولا مانع لأن الدنيا والآخرة عنده على حد سواء فى إبراز القدرة .

وقد جعل ذلك فى الدنيا كما بيناه لك فى أماكن عديدة فى هذا الكتاب وأبرزها على يد أنبيائه وأوليائه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة عنده فى إبراز كمال القدرة على حد سواء ، وكثير من الأولياء من كانت تذكر الله جوارحه ولسانه منصت . ويؤيد ذلك قوله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » وكل عضو من الإنسان يسمى شيئا « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » لكونه متوقفا على السماع وسماعه ممتنع لوجود الحجاب وهو « ران » ذنوبكم الذى ختم الله به أسماعكم فلم تسمع التسبيح بسببه ومن القوم من يسجد قلبه وجسده ساكن ، أخبرنا الشيخ الصالح العلامة مولانا الشيخ عبد الرحمن بن عبدالعزيز العمرى نسبا والسمانى مشربا قال كنت يوما فى المعلا بمكة فسمعت كل أعضائى تقول الله الله بلسان طلق فصيح ، وأخبرنا مرة أيضا قال جاء رجل يزور الشيخ وكنت جالسا عنده ومن عادة الأستاذ فى الغالب أنه إذا جاء إليه أحد يضيفه على الأسودين، التمر والماء وكان عندى تمر فى جراب لى فى الخلوة فسمعت قلب الشيخ بأذنى قال ياعبد الرحمن أذهب وآتنا من التمر الذى عندك فى الجراب فذهبت وجئت به إليه فقدمه للرجل ورأيت وجه الشيخ حين جئت به إليه يتهلل فرحا ثم بعد ذلك ذهب الرجل من عنده فقال لى بديهة هذا هو الكشف الذى كنت سألتنى عنه ، لأنى قلت له مرة ياسيدى الحمدلله ببركتكم حصل لنا الذوق إلا الكشف فإنى ما عرفت حقيقته فسكت عنى إلى أن صارت هذه الواقعة ، فأخبرنى بأن الكشف هكذا يكون .

وكان الولى الكامل والعارف الواصل سيدى عبد الله الحداد رضى الله عنه كفيفا فدخل عليه يوما خدامه فى الخلوة فوجد حوله نحوا من عشرة من الكتب وهو جالس فى وسطها وجسده الشريف كله عيون وهو ينظر

فيها ، وأمثال هذه الكرامات كثيرا ما صارت من الأولياء رضى الله عنهم .
وكل من عرف أن الولى إذا وصل إلى مقام البقاء بالله عزوجل يصير يبصر بلا جارحة وينطق ويسمع بلا جارحة لا ينكر على أحد من أولياء الله تعالى إذا ادعى أنه يسمع أو يبصر أو يتكلم بلا جارحة ، ولا يستبعد ذلك إلا ناقص الإيمان أو جاهل طبع الله على قلبه لم يفهم معنى قوله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «مازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» الحديث .

ولما تقاربنا سمعت خطابه
بسمع فؤادى حين لى قال ياعبدى
فجاوبه سرى بلبيك سيدى
وفزت بما أرجوه منه وبالقصد
وساور روحى فاستنارت سرائرى
بما سر وارتاح الفؤاد من الفقد
وقرت عيونى بالمنا منه والحشا
حشته بروح القدس خافقة السعد

والحاصل أن كلام العارفين لايخرج عن حد الشريعة إذا أول ، وباب التأويل كما علمت واسع وإلا فأى فائدة فى تسميتهم بالعارفين إذا كانت أقوالهم خارجة عن حد الشريعة وهذا محال ، ومن رد أقوالهم فهو من أهل الجدل والإضلال ثم قال رضى الله عنه وقدس سره وجعل فى عالم اللاهوت مقره :

وَقُرَّةُ عَيْنِي فى الصَّلاةِ جَمَلْتُهَا فَمَا هُوَ كُلِّي نَحْوَهَا اليومَ خاشِعُ

قرة العين هو سرورها وفرحها برؤية المحبوب وشهود جماله بعد ما كان عنه محجوبا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبب إلى من دنياكم ثلاث

الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة ، وليس قرة عين المصلى فى الصلاة إلا شهود جمال المصلى له .

اعلم أن لله تعالى فى كل طاعة تجل يختص بها ، وكذلك لكل عبادة للمتعبد بها تجل يذوقه حالة كونه يتعبد بأى عبادة كانت ، وذوق ذلك التجلى هو الذى يحمل العباد على الجد فى العبادة حتى يصير جسدهم كالشن البالى ، وله جل شأنه للعارفين فى الصلاة تجل خاص بهم فكل عارف كان ، على قدم نبى له تجل يختص به بطريق الإرث لذلك النبى الذى هو على طريقته فى الحال ، والتجلى الأعظم فى الصلاة لا يكون إلا لأعظم الأنبياء قدرا ولمن كان على قدمه من العارفين ، فمن كان على قدمه من العارفين فهو أرفعهم مقاما أى أرفع من بقية الأولياء درجة ، وإلى هذا التجلى أرشد صلى الله عليه وسلم كل عارف بقوله « اعبد الله كأنك تراه » ثم بين له الوصف الذى إذا اتصف به فى حالة الصلاة تحصل الرؤية له فقال « فإن لم تكن تراه » أى فإن لم تكن؛ بأن فنيت عن كل ما سواه حتى رؤية نفسك فى حالة الصلاة تراه حينئذ رؤية تليق بكماله « فإنه يراك » جل شأنه كيف تبرزها فينزلك حيث أنزلته إن رؤية فرؤية ، وإن شهودا فشهود ، وإن غفلة فغفلة ، وإن نسيانا فنسيان ، ونسيان الحق وغفلته عبارة عن عدم قبوله للطاعة المقرونة بهما .

قال عز من قائل « إنا نسيناهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » والصلاة هى وقت الملاقاة والمخاطبة والخلوة بالمحبوب فمن نسى الحق فى هذا الوقت نسيه الحق كما نسيه ، ونسيان الحق هو عبارة عن عدم تجليه على المصلى مع الغفلة عقوبة له لعدم؛ استحضاره لما أشارت به إليه حروف الصلاة وهى أربعة الصاد وهى إشارة إلى مصادفة الحق فيها للمتوجه بها إليه . واللام وهى إشارة إلى لقائه به بعد فنائه عنه ، والألف إشارة إلى الإستقامة فيهما ، واتصالها باللام إشارة إلى اتصاله بعد قيامه بما تضمنته الحروف من طلب كمال التوجه

بمجوبه . وفسر المحبوب بما تشير إليه التاء وهى إشارة إلى التعين الأول المعبر عنه عند الصوفيه بالنور المحمدى وهو نهاية كشف المتوجه فى الصلاة. ومن صادف هذا النور فى صلاته ولاقاه واتصل به فقد صادق الحق لأنه نور الحضرة الذاتية ، وكون أن هذا النور هو نهاية كشف المصلى لأنه منبع حقيقته ولا يمكنه التجاوز عنها ، وليس التجاوز بالكشف فى الصلاة إلى الحضرة الذاتية إلا للحقيقة المحمدية ، لانها منبع نوره الذى كونت منه حقيقته فافهم ذلك . كان بعض العارفين إذا سمع الأذان ترتعد فرائصه ويقول قد دعانا الجبار إلى ملاقاته فلا يسكن حتى يعود منها .

وأعلم أن رؤية النبى للحق(1) . . . . ذاتى من دون حجاب على الدوام والاستمرار فيكون متنعما فى جسده بثمار الجنة وحورها وولدانها وأنهارها وأشجارها وأطيارها وروحه متنعمة بجولانها مع الملائكة فى عالم الجبروت . وسره متنعم بدوام شهودى وسماع خطابى ، وعكوفه على أعتابى ، وتلذذه برؤية جنابى فى عالم اللاهوت .

وأعلم أن الصلاة ماسميت صلاة إلا لكون أن بها تحصل الوصلة بين العبد وربه من غير واسطة أو لكونها صلة منه خص بها هذا النوع الإنسانى دون غيره من المخلوقات ، قال تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » أى لضعف استعدادهم لها خصوصا حين أطلعهم الحق على عقوبة من لم يحسنها وأخل بها « وحملها الانسان » لقوة إستعداده المفاض عليه من القوة الإلهية وشرف همته فى طلب الحق بها « إنه كان ظلوما » أى لنفسه وهذا الظلم هو الممدوح لأنه إشارة إلى تكليفها بما لاتطيقه من المجاهدة الشرعية. قال صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر » أى جهاد الكفار « إلى الجهاد الأكبر » أى

(1) هنا نقص بالمخطوط بمقدار ورقة واحدة به شرح باقى البيت .

جهاد النفس ، جهولا - أى بقدرها - إذ لو كان عارفا بها ما ظلمها بارتكاب المعاصى حتى دنسها فاحتاجت إلى ما يطهرها وكلفت به وهو ارتكاب عزائم الأمور فى الطاعات وحبسها عن مشتهياتها فى قفص المخالفة وسجن الجوع وحبس السهر وقيد الصمت وسجن العزلة ، حتى رجعت إلى صفاتها وآبت إلى محتدها بعد خروجها من دركات البعد وظلمة عنائها . فافهم الاشارة من الكلام واعرف قدر نفسك أيها الغلام . ثم قال رضى الله عنه :

أَقُولُ لَهَا لَمَّا بِقَلْبِي تَحَجَّبَتْ
وفى السِّرِّ مِنْهَا والفُؤَادِ مَوَاضِعُ

اعلم يا أخى أن العبد فى قبضة الحق ، والحق سبحانه وتعالى «كل يوم هو فى شأن» فتارة يتجلى عليه بالجمال البحت وتارة بالجلال المحض وهما صفتان قد سيتان له ، فإذا أراد أن يبسطه رفع الحجاب المانع له عن شهود جماله ويتجلى عليه باسمه فيشهد نور جماله الأقدس منبسطا فى كل الوجود فيفنى فيه عن رؤية الجمال الحادث حتى عن نفسه ، لأنه متى لم يفن عن رؤية نفسه ولو كان فانيا عن رؤية الغير لم يظفر برؤية الجمال المطلق فتأمل كيف عرف الحق سيدنا موسى عليه السلام بأن رؤيته لا تحصل إلا بعد الفناء حين قال «رب أرنى أنظر إليك» .

فقال له فى الجواب «لن ترانى» أى مادمت حيا ترى نفسك باقيا بها «ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه» ولم يتغير عن حاله «فسوف ترانى» ، وسوف للتنفيس أى الآن ياموسى فى وقت طلبك للرؤية لن ترانى إلا بعد ما تنظر إلى الجبل وترى كيف يؤول من هيبة تجلى ذاتى عليه حينئذ ترانى ، وفى توقيفه رؤيته لموسى على نظره إلى الجبل وما يؤول إليه حاله فيه تعليم له بلسان إشارة تذكره إلى أن الرؤية لا تحصل إلا بعد الفناء فلما تجلى ربه للجبل وموسى ينظر إليه كما أمره ربه «جعله دكا» إشارة إلى الفناء

« وخر موسى صعقا » والصعقة الفناء بالموت قال تعالى « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض » وموتة موسى هنا التى هى عبارة عن فناء صفاته البشريه ، معنوية أى ماتت صفاته البشرية واتصف بصفات الربوبية فرأى ربه بصفته القديمة لا بصفاته فظهر سر قوله تعالى « ولكن انظر إلى الجبل » ولولا ذلك النظر لم يصعق عليه السلام. وظهر كذلك سر التنفيس للرؤية فى قوله « فسوف ترانى » لأنه مارآه إلا بعد ماتدكدك الجبل وفنى عن صفاته البشرية المتوقفة على رؤيته وصعقته عليه السلام فلما أفاق وتحقق بعد صعقته أن طلبه للرؤية منه كان على خلاف الأولى، لأن الأولى له كان أن لا يطلبها بنفسه إلا بربه بعد فنائه عنها قال « سبحانك » أى أنزهك أن يراك شخص وهو باق بنفسه « تبت إليك » من سؤالى الرؤية قبل اتصافى بصفاتك « وأنا أول المسلمين » أى المستسلمين لأوامرك فى عدم طلبى لشىء قبل استحقاقى له لأنه إساءة أدب فى حق العارفين بك .

واعلم أن سيدنا موسى عليه السلام ما كان يجهل أن الرؤية لا تكون إلا بعد الموت ولكن إنما كلفه طلبها غلبة حب الحق عليه ، فاستعجل فى الطلب ليظهر سر قوله تعالى « وخلق الانسان عجولا » .

واعلم أيضا أن التجلى المذكور كان لسيدنا موسى بصفة النور ، وتجلى الحق على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء كان بذاته ثم لم يزل جل شأنه يتجلى عليه فى بعض الاحيان بها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ولا يزال . وإلى هذا التجلى الذاتى أشار صلى الله عليه وسلم بقوله « لى ساعة مع ربى لا يسعنى فيها ملك مقرب ولا نبى مرسل » ثم أن الحق جل شأنه من رحمته بالعبد المصطفى لقربة لم يجعل دائما تجليه عليه بمظهر الجمال ، لئلا تزل قدمه لأن مقام البسط يجره إلى ذلك ، بل يتجلى عليه فى بعض الأوقات لحفظه من الوقوع فى ذلك باسمه القابض الذى هو مظهر الجلال فيظهر به وجلا له هو عبارة عن احتجابه عنه بأن يرده إلى رؤية المظاهر ويطلعه على

ما أعد له فى الجنة من المنازل والمقامات وإلى هذه المقامات والمنازل أشار ابن الفارض رضى الله عنه بقوله .

إن كان منزلتى فى الحب عندكموا ماقد رأيت فقد ضيعت أيامى

وهذه المقامات والمنازل كلها حجب ، وإلى رؤيتها إشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » والغين الحجاب ومن ثمة سمى الغيم غينا لأنه يحجب عن رؤية السماء وتخصيصه صلى الله عليه وسلم للاستغفار بهذا العدد المذكور فيه إشارة إلى أن العاصى إذا استغفر الله بهذا القدر من ذنبه غفرله ، وإلى أنه أى هذا العدد فى الاستغفار أسرع إنتاجا فى المغفرة وهو عظيم عند الله أى عدده ، وقد بين فضله فى قوله تعالى « استغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وبين به العلة فى عدم قبوله وهو كفرهم وموتهم على الإصرار به وأن الاستغفار بعد الموت ولو كان بالعدد المذكور لايفيد فى حق من مات مصرا على الكفر ولو لم تكن هذه العلة موجودة فيهم لغفر لهم إن شاء .

فإن قلت إن إبراهيم استغفر لآزر قبل موته ومع ذلك لم يؤمن ، الجواب إن آزر كان مشركا ، وقد أخبرنا الله تعالى بأنه لايغفر للشرك بقولة تعالى « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » إلا بمحض الفضل لاعن باعث الاستغفار ، بخلاف الكافر لأنه قد يغفر له أى يستر عنه كفره بالإيمان عن باعث استغفار نبى أوولى ، لأنه داخل فى حزب قوله « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » أى مادون الشرك لأنه ظلم عظيم . قال تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » فالكافر قد يقبل فيه الاستغفار مالم يمت عليه لقوله جل وعلا « وماتوا وهم كافرون » إذا أراد ، وفى جعله للاستغفار فى حق الكافر قدرا معلوما ، فيه إشارة إلى أنه ربما إذا بلغ ذلك يقبل منه ولكنه لكونه قد أعلمه الله أن الشقاوة قد سبقت لهم فى الازل فامسك

عن الإتمام ورضى بحكم العزيز القهار، كما أنه أعلم إبراهيم أن الشقاوة قد سبقت لآزر ـ والله اعلم ـ وله الخيار بعد ذلك لأنه « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ».

واعلم أن عين الانبياء وكمل الأولياء أنوار تحجبهم عن دوام شهود الحق فهم يستغفرون منها لأن مقصود الجميع دوام شهود الحق والحضور معه وليس لهم غرض فى أنوار ومنازل ولا مقامات كما قال بعضهم :

وما مقصودهم جنات عدن — ولا الحور الحسان ولا الخياما
سوى نظر الجليل فذا مناهم وهـــذا مقصد القوم الكراما

قال بعض المحققين: بيننا وبين الحق سبعون ألف حجاب من نور وهو مع ذلك أقرب إلينا من حبل الوريد . فعلم من هذا الكلام أن الإشارة فى بيانه لعدد استغفاره فى قوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى » أى فى بعض الأحيان « فاستغفر الله فى اليوم » أى فى اليوم الذى يغان على فيه « سبعين مرة » ، إلى هذه الانوار وفهم أيضا منه أن استغفار مرة يكفر ذنب ألف حجاب من الأنوار المذكورة وهذا فى حق الانبياء والمرسلين والأولياء العارفين .

وأما فى حق عصاة المؤمنين فاستغفاره مرة يطفىء الله عنهم مسيرة خريف واحد من جهنم ، لأنه ورد فى الأخبار أن « فى جهنم سبعين خريفاً من نار » بعدد الاستغفار والخريف الواحد مسيرة سبعين سنة . ولما كان الناظم رضى الله عنه وارثا محمديا ،ومحلا للتجليات الجلالية والجمالية،ومشهده مصطفوياً ، ومرامه أن لايحتجب عنه مشهده، لئلا يفوته بسبب ذلك مقصده أتى لنا بما يشير إلى مقامه .

ويدلنا به على حرصه على حب شهوده لمحبوبه ودوامه ، وإلى أنه وصل إلى مقام « لى ساعة مع ربى » من طريق الوراثة المحمدية فقال « أقول لها

لما بقلبي تحجبت ، وهذا الكلام يدل على أنه تكلم به وهو في مقام تجلي الجمال بعد انتقاله من مقام تجلي الجلال لأن مقام الجلال يلزم المحب عنه النطق مراده للمحبوب لأنه مقام هيبة وخشية .

ومقام الجمال مقام بسط ومشاهدة ومكالمة . وقوله « أقول لها لما بقلبي تحجبت » أي حين ردتني إلى شهود المظاهر الكونية واحتجبت عني بها بعدما كنت في الحضرة بين يديها مشاهدا لأنوار جمالها القدسية ، ثم ردتني إلى شهود جمال الذات العلية وأوقفتني في مقام الخطاب في الحضرة الأنسية أيحسن هذا الفعل منك بمغرم؟ وهذا اللفظ هو مقول القول كما صرح به في البيت الآتي وقال هذا اللفظ من باب التذلل لأن المقام يقتضي البسط لأنه مقام تجل بالجمال . وفيه يباح الطلب للمتجلي عليه به، كما ورد أن الحق قال لسيدنا موسى حين كان مع الحق فيه « ياموسى سلني حتى شراك نعلك والملح لطعامك » وقال لنبيه محمد « سلني ياحبيبي ماشئت » . ومما يدلك على أنه قال ذلك من باب التذلل تصديره للبيت الآتي ذكره بالاستفهام الانكاري كما أوردناه هنا وهو قوله أيحسن هذا الفعل .

واعلم أن الذي أوجب لنا أن نحمل الاستفهام على الإنكار قوله عليه الصلاة والسلام « ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه » والناظم لاشك في ولايته ، ومن لازم من يكون ولياً وعارفاً بالله تعالى أن يكون عالماً بنص هذا الحديث المذكور بأن الله تعالى شأنه لا تخلو أفعاله كلها عن حكمة، فتعين لنا بهذه الأدلة كلها حينئذ أن الناظم عالم بسر تحجب الحق عنه وإنما استفهم عن ذلك طمعاً منه في استماع رد الجواب ليستلذ سمعه كما استلذت بصيرته بالشهود ، لتكون جميع ذاته مستلذة وليكون أيضاً جامعاً في حضرة التجلي الجمالي بعد رفع الحجاب بين الشهود . وسماع الخطاب، ويحتمل أن يكون معنى قوله « لما بقلبي تحجبت » أي لما برجوعها بي من حضرة انفرادي بها والاستئناس بشهودها إلى حضرة مقام الإرشاد ، لأدل بها عليها من ضل

عنها من عيدها تحجبت ، لأن لا بد للمرشد كما علمت أن يكون له ولو أدنى التفات إلى من يرشده فى بعض الأحيان خوفا من أنه إذا غفل عنه يفسد عليه حاله ، ونفوراً من دخوله فى الوعيد الوارد فى حق من غفل عن أداء حقوق من تعلق بذمته ووجبت عليه تربيته وسياسته ، وهو قول النبى الصادق المقبول «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول» فكما أنه يجب عليه سياسة أهله وولده وجوارحه ومراعاتهم فى كل حركة وسكون لئلا يقعوا فيما يضرهم فى الدنيا والآخرة ، كذلك تجب عليه سياسة من يرشده ومراعاته خوفاً من أن يقع فيما يخل بتوجهه فيستضر بسبب ذلك . ومن ثمة كان صلى الله عليه وسلم دائماً يعظ أصحابه ويقول لهم «إذا رأى أحد منكم رؤيا فليخبرنى بها» ليستدل بها على أحوالهم فيصلح ما اختل منها . ومما يدل على أنه كان صلى الله عليه وسلم دائما مهتما بصلاحهم قوله صلى الله عليه وسلم «أعينونى على أنفسكم» .

واعلم أن مقام الإرشاد وإن كان هو فى الظاهر أنزل درجة من مقام دوام شغل العارف بالله تعالى وشهوده له فهو فى الحقيقة أعلى من وجهين :

الأول أن مقام الإرشاد متعد نفعه إلى الغير .

الثانى يدل على أن صاحبه كان محبوباً بعد ما كان محباً وهذا مشاهد من الخارج ، لأن الإنسان إذا أحب شخصا نزله منزلته فيمن يعول والخلق عيال الله ، كما ورد فى الحديث «وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» ولولا أن المرشد كان أحب الخلق إلى الله ما حكمه فيهم ، وأمره عليهم ، ووكل إليه سياستهم ، وجعله دليلا لهم إلى حضرة ربهم . ولولا — كذلك — أن مقام الارشاد أكمل ، ما أمر الحق الرسل به وأمر بالرجوع حبيبه صلى الله عليه وسلم من مقام خلوته بربه فى غار حراء إلى مقام الإرشاد ودعاء الخلق إلى الله تعالى فافهم . ويحتمل أن يكون الناظم رضي الله تعالى عنه يعاتب نفسه بقوله «أقول لها لما بقلبى تحجبت» لأن الكامل

ولو بلغ ما بلغ فى درجات الكمال فهو يرى نفسه فى التقصير . فقوله « أقول لها » أى أقول لنفسى « لما بقلبى » أى حين بى رجعت من إرتكاب عزائم الأمور فى الطاعات إلى أهونها رجاء أن تكون عاملة فى بعض الأحيان بقوله عليه الصلاة والسلام « روحوا القلب تارة بعد تارة » حتى تحجبت بسبب ذلك عن شهود ما كانت تلاحظه حين كانت مرتكبة لعزائم الأمور فى الطاعات من الأنوار ، والحالة أن فى السر منها أى من تلك الأنوار حين أقول لها أيحسن هذا الفعل منك بمغرم ؟ وفى الفؤاد مواضع مشحونة بها أى بتلك الأنوار ومعنى أيحسن هذا الفعل منك أى وهو أخذك بالأيسر من الطاعات بعد تلك الهمة حتى حجبتنى بسبب ذلك عما كنت تجدينه حين كنت مرتكبة لعزائم الأمور من الذوق .

واعلم أنه مما دلنا على أن الشيخ وصل إلى مقام لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل أى ولا وارث حال نبى مرسل ما أخبرنا به الرجل الصالح وهو الأخ عبد الله بن أبى السعود قال : كنت ليلة جالساً عند باب الزاوية إلى أن مضى جانب من الليل فخرج الشيخ منها فلما رأيته أقبلت عليه وقبلت يده فمشى طالباً نحو شباك الجمال الذى فى جدار المسجد مقابلا لشباك الملائكة ومنه ترى الحجرة النبوية ، فتبعته إلى باب الجبر ، ووقفت عنده وتقدم هو ومشى إلى أن وصل إلى الشباك وتوجه منه لزيارة المصطفى فلما وقف عنده رأيت نوراً يخطف بالبصر قد خرج من الشباك فى صورة إنسان ورأيت الشيخ وقع على أقدامه وقبلهما ومشى ذلك النور والشيخ معه إلى أن وصل إلى السكة التى منها يصل إلى بقيع الغرقد وفارقه الشيخ ودخل زاويته ومضى ذلك النور فعرفت أنه النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم إن الشيخ جلس بعد ذلك أياما مختليا بنفسه لم يقابل فيها أحداً فجاء شخص من تلامذته وسأل عن الشيخ فقالوا له هو فى منزله وأخبروه أن له سبعة أيام لا يواجه أحداً فترك كلامهم ومضى إليه ودخل عليه فى الموضع

الذى هو فيه وسلم عليه فرد عليه السلام ثم نظر إلى وجه الشيخ فرأى أثار الغضب عليه فرجع من ساعته فلما جاء وقت العصر نزل الشيخ إلى الزاوية فجاء من كان حاضراً هنك من التلاميذ وجلسوا بين يديه وساق لهم حكاية فى كلام أحوال الأولياء إلى أن قال : لا ينبغى لأحد من المريدين أن يدخل على شيخه إذا سمع بأنه قد اعتزل عن الناس وخلا بنفسه لأن الولى الكامل له ساعة مع ربه لا يسعه فيها ملك مقرب ولا وارث حال نبى مرسل من أهل عصره . فعلمنا من كلامه أنه قد وصل إلى هذا المقام ، فكيف وهو السيد الهمام .

وعلمنا منه أنه وارث محمدى لأنه قال صلى الله عليه وسلم « ساعة مع ربى لا يسعنى فيها ملك مقرب ولا نبى مرسل » ولكن لما كان حال النبى المرسل أوسع من حال النبى غير المرسل وحال النبى أوسع من حال الولى تعين لنا أن نقدر المضاف ونقول قد وصل أستاذنا بصريح ما ذكرناه من الأدلة وبما أشار به إلى نفسه إلى مقام «لى ساعة مع ربى لا يسعنى فيها ملك مقرب ولا وارث حال نبى مرسل » ورفعنا الإشكال بذكر المضاف .

ثم اعلم وفقنا الله وإياك أن الشيخ لما ذكر أنه خاطب الحق بلسان سره بقوله « أقول لها لما بقلبى تحجبت »خاف أن يظن أحد أن ذلك القول فيه إساءة أدب ممن كان قاصر الفهم فبين وجه العذر بذكر ما حمله على القول فقال « وفى السر منها والفؤاد مواضع » أى قلت ذلك والحالة أن فى باطن روحى وباطن فؤادى مواطن مشحونه بحبها وهو الذى حملنى على ذلك القول لما تغلب سلطانه على إدراكى فغيبنى عن الاحساس . وقد ورد فى الاخبار « إذا أخذ ما وهب » وهو العقل « أسقط ما أوجب » وهو الأدب فافهم ثم قال رضى الله عنه :

أَيَحْسُنُ هَذا النِّعلُ مِنْكَ بِمُغْرَمٍ
حَشَاهُ بِجُذْوى البَيْنِ بَعْدَكِ لاَسِعُ

الغرام شدة الحب ، والحشا باطن الرجل ، والجذوة هى القطعة من النار وهذا البيت هو مقول القول المذكور فى البيت الذى قبله .

اعلم أنه لاشىء بعد مشاهدة المحبوب عند المحب ألذ من مخاطبته ولا أعذب من سماع مناجاته وتأمل فى سيدنا موسى عليه السلام لما كان غرضه كثرة سماع الخطاب كيف كثر أوصاف عصاه حين سأله الحق عنها بقوله « وما تلك بيمينك ياموسى » فأجابه بقوله « هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » وأبهم المآرب وما أبهمها إلا رغبة فى أن يسأله الحق عن كل مأرب على حدة حتى يطول السؤال والجواب ،ولولا أنه كانت تلك نيته لاكتفى فى الجواب بقوله«هى عصاى» لأن الحق جل شأنه ما سأله إلا عنها ، ولما كان مقصود كل عارف محب لجناب المولى جل وعلى بعد المشاهدة سماع خطابه ليستلذ سمعه بذلك كما استلذت بصيرته بالنظر إليه ، وكان الناظم من العارفين المحبين صدر هذا البيت بالاستفهام الانكارى ، وحملناه على أنه انكارى لأن المستفهم به عارف وكل عارف يعلم أن أفعال الحق كلها عن حكم إلهية ، وأنه « لا يسئل عما يفعل» وإن الأدب فى ترك السؤال عن ذلك ، لكنه لما كانت العلة ماذكرناها أبيح له السؤال وظهرت من البيت علة أخرى موجبة لسؤاله بالاستفهام الإنكارى وهى قوله فى الشطر الآخر « حشاه بجذوى البين بعدك لاسع » أى محرق حشاه بنار الفراق ، بعد ذاك النعيم بقربك والتلاق ، فعلمنا من ذكره لهذه العلة وهى الاحراق ، أنها هى التى حملته على الاستفهام عن شىء يعلمه ليطفىء بسلسبيل الجواب حر مايؤنسه من الإحراق .

واعلم أن من العارفين من لو احتجب عنه الحق درجة واحدة ماعد نفسه من المؤمنين ، ومنهم من لو احتجب الحق عنه درجة واحدة ما حسب نفسه فى الأحياء ، ومنهم من لوخطرت على قلبه خطرة سوى الحق لقضى

على نفسه بالردة ، وأحوالهم مع الحق لا يطلع عليها أحد غير سيدهم ومولاهم - ورد فى بعض الأخبار « أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم أحد سوانى » وإذا كانت أولياؤه تحت قبابه لا يعرفهم أحد غيره ، فأحوالهم بعدم أطلاع غيره عليها من باب أولى وأخرى ، لكونها معانى لا تدرك قال بعض أهل الفضل .

لله تحت قباب الذل طائفة أخفاهم برداء العز إجلالا
هم السلاطين فى أطمار مسكنة
جروا عـــلى فلك الخضراء أذيالا

فإذا كان الأمر كذلك فالتسليم لما يصدر منهم من المعارف الدالة على أحوالهم كأمثال هذه الألفاظ التى ذكرها الشيخ فى هذه القصيدة أولا .

ثم اعلم أنه يحتمل أن يكون قوله أيحسن هذا الفعل منك بمغرم إلى آخر ما قال يعاتب به نفسه على غفلتها عن طلب مقام الشهود ، من ابتداء سيرها لما رأى ما فيه من الكمالات بعد الإنتهاء ، والأنس بمشاهدة الجمال المطلق لأنه محب ، وليس مرام المحب من الوجود إلا دوام مشاهدة جمال المحبوب وسماع خطابه ، ليكون ممن عرف وشاهد وتحقق وغرف ، وقوله « حشاه بجذوى البين بعدك لاسع » أى بعدك عن طلب الشهود من ابتداء سيرك بنار فراقك له فى ذلك الوقت لاسع أحشائى ، كلما أتذكر إهمالك له ، يحكى أن رجلا كان يدور فى الشوارع والسكك والصبيان يمشون خلفه ويرجونه بالحجارة ، فأخذت بعض الناس الشفقة عليه ، فقال لهم : لم تفعلون به هكذا ؟ فقالوا إنه يزعم أنه يرى ربه ، فحين سمع منهم ذلك ، دنا منه وقال له أتسمع ما يقولون هؤلاء ؟ فقال له أذهب عنى يا بطال ، وعزته وجلاله لو احتجب عنى طرفة عين ما عددت نفسى من الأحياء .

اعلم أن نتيجة حب العبد لله أن يصير محبوبا له ونتيجة حب الله للعبد تخصيصه له بالقرب منه والشهود والمخاطبة :

ما لذلى بعد ما شاهدت حسنكم   حسن سواه ولا عينى له نظرت

وحبكم منذ ما قد ذقت صفوته
صرفا عن المزج عفت مهجتى وأبت

وأذن قلبى لم تهـــوى استماع سوى
حديثكم بعد ما ألحـــانة سمعت

ثم قال يستعطف محبوبته عليه بذكره لها مآل حاله إذا احتجبت عنه :

أيا رَبّةَ الوجْهِ الجميلِ أنا الذى
دِيارِى بِفَرْطِ الهَجْرِ مِنْكِ بَلاَقِـعُ

ومعناه أيا صاحبة الوجه الجميل بمخالفته للحوادث ، المنزه فى كماله أن يشابهه الجمال الحادث ، والوجه هو وجود الحق القائم به كلما سواه ؛ قال تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله » ، أى أينما تتوجهون بعقولكم أو بذواتكم إلى أى جهة كانت لطلب شىء ما ، فما تجدون ثم أى هناك فى الموضع الذى توجهتم إليه إلا وجود الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام « اتق الله حيث ما كنت تجده أمامك » أى فى ذلك المقام الذى أتيت له ، وهذا الحديث محتو على شرط ومشروط الشرط التقوى والمشروط وجدان الحق ، فمن لم يأت بالشرط لم يجد المشروط ، كوجدان من أتى بالشرط ، فإن صاحب الشرط يجده بالذوق ويشهده بالكشف ، ويراه ببصيرته ، ومن ثمة نجد بعض المجاذيب الذين تحققوا بالكشف ورأوا بعين بصيرتهم وجوده ساريا فى كل ذرات الوجود يسجدون إلى كل جهة ، لغلبة شهود وجود الحق فى تلك الجهة عليهم فيظن من يراهم حين يفعلون ذلك أنهم جهال بالقبلة ، بل ومن الناس من يكفرهم ، ولو تأملوا ، يجدون أنفسهم هم الجهال لكونهم يجهلون أحوال من يرونه يفعل ذلك ، ولو اطلعوا على ما يشاهدونه لعذروهم ، بل وتمنوا أنهم لو كانوا مثلهم حين يعلمون أنهم ما سجدوا إلا للحق لا للجهة ، وفهموا إشارة المصلين إلى البيت العتيق من جميع الجهات ، وظهر لهم معنى قوله « أينما تولوا فثم وجه الله » ، وقوله عليه السلام « اتق الله حيثما كنت تجده

تجاهك ، وقوله « إذا سألت فاسئل الله » أى فأشهد حين تسأل انك لا تسأل إلا الله لأنه لامعطى إلا هو ؛ وأما معنى قوله أنا الذى ديارى بفرط الهجر منك بلاقع ، أى أنا الذى يعود ضرر احتجابك على ولو مقدار لحظة وترجع ذاتى بعد أن كانت عامرة ، بدوام الشهود ، بلاقع أى خالية منه ومن الآنس به وترادف الأنوار .

شعر من كلام الأستاذ نفع الله به :

خليلى إن الحب أحرق مهجتى ... وأنحلنى عظما وقلبا وقالبا

وكيف وجودى ليس يفنى ومتلفى ... غرامى بليلى حين فى القلب طنبا

وخامر لحمى والجوارح بعد ما ... آثار باحشاء المحب تلهبا

أيا ربة الوجه الجميل الذى به ... أضاءت على الأكوان شرقا ومغربا

اعيذى من الهجران صبا جفونه ... من الدمع أضحت يامنى النفس خلبا

ولا تقصدينى بالصدود لأنه ... خراب ديارى منه يحدث إن ربا

اعلم أن الناظم إنما أراد بقوله ديارى — وعنى بذلك — إلا ذاته وشبهها بالديار ، لأن الديار هى ما احتوت على منازل وسكان ، ولما كانت ذاته كذلك محتوية على منازل وسكان شبهها بالديار ، فمن سكان ذاته العقل ومنزله الدماغ ، ومن سكانها الروح ومنزلها الجسد ، ومن سكانها الإدراك ومحله الحواس الخمس . ومن سكانها النية وموضعها القلب ، ومن سكانها الفكر ومظنته العقل فأشار رضى الله عنه إلى أن هذه المنازل كلها لو احتجب عنه جمال الحق ولو أدنى من لحظة تصير بلا قع ، أى خالية من سكانها وهذا مشاهد فيمن يعشق الجمال الحسى إذا مارأى محبوبه يوما واحدا يتشوش عليه حاله حتى لأنه لم يذق النوم فى يومه ذلك وليلته . وهذا أول

منزل خلا من ساكنه ، فإن النوم منزله العيون ، وقس على ذلك فى بقية المنازل من الذات ، والحاصل أن هذا البيت يفهم منه أن الشيخ رضى الله عنه دائما مشاهد جمال محبوبه وأنه يطلب منه أن لا يحتجب عنه طرفة عين خوفا من عاقبة الاحتجاب الذى عبر عنه فى الشطر الأخير بالهجر . وقوله : أيا ربة الوجه الجميل ، فيه إشارة أيضاً إلى أنه يحذر نفسه من الجهل بعد المعرفة ومعناه أى : أيا صاحبة الدليل على وحدانية الحق الجميل لكونك أخذتيه من الكتاب والسنة ، أنا الذى ديارى أى ذاتى إذا اشركتى معه أحدا فى وحدانيته بعد استدلالك عليها تصبح خالية من نور العلم التى كانت متصفه به بأن لا موجود فى الوجود ولا حى فيه ولا فاعل فيه إلا الله وترجع إلى دركات درجات العوام .

واعلم يا أخى أن تعبيرى فى الشرح عن فرط الهجر بأدناه ، لكون أن مقامه يقتضى ذلك الحكاية التى سبقناها وذكرنا فيها قول ذلك الولى : ولو احتجب عنى طرفة عين ما عددت نفسى من الأحياء ، ثم قال رضى الله عنه وجعل فى مقعد الصدق مسكنه . ونفعنا به آمين .

فَلاَ تُنْكِرُوا يَاعَاذِلُونَ تَوَلُّهِى وَقَوْلِى لِنَفْسِى وَالْغَرَامُ يُنَازِعُ

العادلون جمع عادل ، والعادل هو الذى يرد الشيء إلى أصله ، وهو على قسمين عدل مذموم ، وعدل ممدوح ، فالمذموم هو عدل من انحرف بالزهد عن الدنيا مثلا برده إليها ، والممدوح هو عدل من انحرف عن التقوى برده بعد الإنحراف إليها . والوله هى حالة تكون أشبه بالغيبوبه تحصل للمحب فى المحبوب من شدة الحب وذكر الناظم هذا البيت توطئة للبيت الآتى ذكره بعده . لأن ظاهر لفظه منحرف عما يفهمه عقل العادل ولو لم يكن منحرفا عنده لما عدله . ولك أن تقرأ ياعاذلون بالذال المعجمة وهو أظهر والأول أدق معنى والعادل هو اللائم على الحب لجهله بأن الحب يذمث الأخلاق وله قوة جاذبة لميل المحبوب إليه قال بعض الأدباء :

ما جزاء من يصد إلا صدوداً وجزاء من يحب الا يحب

وفى قوله « فلا تنكروا » إلى آخر ماقال إشارة أخرى أيضاً إلى أن البيت محتمل للتوجيه الصارف عن الإنكار عليه . فلا ينبغى لأحد بمجرد مايرى لفظه أو يسمعه أن يحكم عليه بالخروج عن قيد الشريعة إلا بعد التوجيه ، فله حينئذ -إن وجده خارجا عما حده الشارع- الإنكار ، وأيضاً فى قوله ولا تنكروا إلى آخر البيت تنبيه على أنه سيذكر من شطحاته شيئاً ، فى هذه القصيدة فليتحر المنصت والقارىء والكاتب أن يتوهم كل منهم مايخل بمعرفته لئلا يعذ له لأن العذل محتده الإنكار والمنكر على خطر عظيم كما ورد به الحديث .

اعلم أيها الأخ أن معنى فلا تنكروا -أى ياأيها العاذلون- على فى تولهى وهو شدة حبى لإظهار ماخص الله به هذا النوع الإنسانى من الأسرار والمعارف دون غيره من أنواع المخلوقات ، بدليل قوله عليه السلام « خلق الله آدم على صورته » ، ودليل قوله « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » الخ ماقال ، وقوله « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » فما قلت إلا مبينا كمال هذا النوع الإنسانى ، فكيف تنكرون على فى إظهار ذلك وقد بينت لكم ماحملنى على إبرازه من خزانة سرى بقولى : « والغرام ينازع » أى ينازعنى على أن أفشى ذلك لنفسى لكى تعرف قدر ماأنعم الله به عليها . ولأخرج من ورطة « من علمه الله علماً فكتمه عن الناس ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » وفى قوله عليه السلام « فكتمه عن الناس » ، ولم يقل عن الخلق أو عن العباد إشارة إلى أنه كان يعلم بأن هذا النوع مظهر ذات الحق وأسمائه وصفاته وافعاله بالعلم الذى علمه فى حضرة « الأرواح جنود مجندة » ولكنه لما برز إلى عالم الشهادة وتعاطى الأسباب التى ينشأ عنها النسيان ، نسى ما كان يعلمه ومن ثمة سمى بالناس فاحتاج إلى مذكر فبعث اليه الرسل مذكرين ثم ورثتهم وهم العلماء العاملون بعلمهم فافهم .

واعلم ياأخى أن هذا البيت يدل على أن الله قد أطلعه على أن هنا من ينكر عليه ، فلهذا صدره بلام النهى تنبيها منه لهم على تركه . وتخصيصه بالنداء لهم وتصريحه بذكرهم بوصف العذل دليل على ذلك ، وبهذا النهى والنداء ظهر أن

الله قد أطلعه عليهم وعرفه بهم من يوم «ألست» لأن المنادى لاينادى إلامن ينظره ويراه فافهم ، فهو ناداهم بأول البيت ونهاهم عن الإنكار فيه وبين فى آخره الوجه الذى حمله على افشاء السر وهو الغرام ليعذروه فى ذلك ويقفوا من الانكار عليه .

دع عذل من شفه الحادى بالحان فهام وجدا بذكرى جيرة البان
وخـــذ أحاديث من بالمنحنى نزلوا
من أضلعى واحتسى من صرفها الهانى
واترك أراجيف لاه بات يذكرها واصغ لمـــالك أبديه بآذان
الكنز أنت لحاول ما استطعت على إخراج ما فيك من أفراد عرفان
واعذر فديتك من بالسر باح فقد
صرحت باسم الذى الكشف ألجانى

ثم قال : سقى الله بماء المغفرة ضريحاً ضمه ، واعاد علينا ووالدينا وأهل طريقه من مواهبه الجمة :

فَجَلَّ كَمَالِى عَنْ شَبِيهٍ تَنَزُّهاً
فَرَوْضُ جَمَالِى بِالْكَمَائِمِ يَانِعُ

واعلم أن قوله جل كمالى عن ، هذه لفظه تنزيه ، ومعناه تنزه كمالى عن أن يشابهنى فيه أحد من المخلوقات تنزيها من الحق لى ، والمراد بالكمال هنا كمال الانسان الكامل ، وهذا اللفظ من ملوك المقال ، ولا يتكلم بها إلاملوك الرجال ؛ لأن تحته اشارة تدل على كمال هذا النوع الإنسانى ، وهى أوضح من صريح العبارات عند من صقل مرآة فكرة وتأمل فى الأحاديث المصرحة بذلك والدليل القرآنى ودقق نظر فكره فى دليل الصوفيه المستنبط من كلام النبى ، والآيات المشيرة إلى كمال هذا النوع وشرفه على سائر المخلوقات ، فمن الأدلة القرآنية سجود الملائكة لآدم وهذا الفعل مستلزم لشرف المسجود له على الساجد ، ثم من

الأدلة المشيرة إلى كمال شرفه على جميع المخلوقات قوله تعالى «مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى» ولم يرد أنه خلق شيئا غير هذا النوع بيديه المنزهتين عن الشبيه ثم مما يدل على أنه أكمل وأجل واتم نشأة وأحسن صنعة من كل ماسواه قوله تعالى «لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم» وقوله جل وعلا «ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك» أى بيديه وهما عبارة عن الجلال والجمال، ومن ثمة ظهر الانسان بهما وهما من صفات الحق «فسواك» بشرا جامعاً للكمالات «فعدلك» العدل هو خروج الصانع عن الانحراف فى فى تركيب صنعته بأخذه من كل جزء أحسنه لتكون لجميع المحاسن جامعة وظاهرة بقوة كل جزء كونت منه فتصرف به عند الحاجة، ومما يدلك على أنه حاز قوة كل نوع أنه إذا أراد الحق أن يبرزه بأى صورة من الصور ركبه من أقواها فيظهر بتلك الصوره ودليله قوله تعالى «فى أى صورة ماشاء ركبك» أى أراد الحق أن يبرزك بها ركبك، أى - من أقواها صورة فتبرز بها، ومن ثم تجد الولى الكامل يظهر فى كل عالم بكل صورة تناسبه كعالم الحس وعالم المعنى وعالم المثال، كما وقع للنبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، فإنه ظهر فى كل سماء بمظهر مناسب لعالمها فظهره فى الأرض ليس كظهره فى كل سماء لأن فى كل سماء كان له مظهر، ومظهره فوق العرش ليس كظهره فى السموات.

ومما يدلك أيضاً على أن هذا النوع الانسانى أعطى قوة كل من شاركه فى العنصر كالجان وغيرهم. مامن حرفة تصدر منهم إذا أرادأن يفعل نظيرها، فعل، ومن ثمة تجد من الناس من يطير فى الهواء، ومنهم من يمشى على الماء ومنهم من يمشى على الماء، ومنهم من يدخل النار، فلم تضره ومنهم من يسير مسيرة خمسمائة سنة فى لحظة واحدة، ومنهم من يدخل تحت تخوم الأرض وكل ذلك مما أكرم الله به هذا النوع الانسانى. ومما يدلك أيضا على شرفه على سائر الخلق أن الله تعالى اصطفى لذاته صفوة منه وخليفة وكليما وروحا وحبيباً وخليلا ورسلا وأنبياء وأولياء وصديقا وخص أكملهم ذاتاً وصفة بمقام كان

فيه من القرب من ربه «كقاب قوسين أو أدنى» وأرسله رسولا لكافة المخلوقات. ومما يدلك أيضا على أن هذا النوع أشرف الخلائق أن خلقه من صفوة النور الذى كونوا منه وهو نور أحبهم إليه وأكرمهم عليه وأقربهم منزلة لديه . وركب ذاته من العناصر الأربعة دون ذواتهم لتكون جامعة لأسرار جميع ما يبرز منهم من الاسرار وحائزة لجميع كمالاتهم .

فالشيخ رضى الله عنه لما أطلعه على كمال هذا النوع الإنسانى وعلم أن ليس له شريك فى شرفه وكماله إذا عمل بمقتضى ما أمره الحق به قال : «جل» أى فتنزه كمالى أن يشابهه كمال مخلوق ما خلا النوع الإنسانى تنزيها من الله لى، ولكل من قام بأعباء ما جاءت به الرسل من الأمم السابقة وقام بأوامر ما جاء به رئيسهم وخاتمهم من هذه الامة التى هى خير أمة أخرجت للناس ، ثم قال «روض جمالى» أى جمال ذاتى المضاف على من جمال الحق تعالى وهو تبديله لصفاتى بصفاته وتخلق بأخلاقه حتى صار وجودى جميعه «بالكمائم يانع» أى بأزهار بالكمالات الإلهية والأخلاق المحمدية والآداب الشرعية مشرق وشبه الكمالات والأخلاق والآداب بالكمائم ، وهى الأزهار التى تكون فى أطراف الأغصان لكون أن ذاته بها صارت جميلة ومشرقة كما أن الروض جماله لا يكون إلا إلا بالأزهار وإشراقه بها .

واعلم يا أخى أن تنزيه الناظم لنفسه بهذا اللفظ قد سبقه غيره به ، لكنه بلفظ غير ما ذكره فى هذه القصيدة ، وهو سلطان العاشقين ورئيس المحبين العارفين سيدنا ومولانا أبو يزيد البسطامى قدس الله سره العزيز ، واللفظ الذى نزه به نفسه هو قوله «سبحانى ما أعظم شانى» ومعناه أنزه نفسى بعد ما كلمنى الله بالمعرفة عن نقصان ما وجد فى غيرى من الجهل ممن شاركنى فى نوعى الإنسانى ما عدا من تخلق منه بأخلاق الرحمن «ما أعظم شانى» أى عند الله حيث اتخذنى بمحض كرمه وليا فى هذا الزمان وخصنى بعلوم لم تكن عند غيرى من جميع المخلوقات ، ما خلا من كان فى ميزانى من نوعى الإنسانى .

واعلم أنه ورد فى بعض الأخبار أنه قال عليه الصلاة والسلام « أنا أحمد بلاميم » وهذا اللفظ دال على التنزيه فإن صح ذلك عنه فتنزيههم لاتقسيم حينئذ يكون بطريق الإرث المحمدى بالعلم اللدنى ، لاعن جهل ولاتعد الحد الشرعى ، حاشاهم من ذلك ، وكيف يصدر منهم ما لا يكون داخلا تحت قيد الشريعة وهم الراسخون فى العلم ، بدليل « ما اتخذ الله من ولى جاهل » فإن سمعت مثل ذلك عنهم فسلم لهم تسلم ، إذا لم تكن لمعنى كلامهم تفهم ، فما وجه عذرك إذا أنكرت عليهم وطالبوك يوم القيامة بين يدى الجبار بانكارك عليهم وحاجوك بين يديه بقوله تعالى « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » بالبينات ، فإياك والخوض فى كلامهم بفكرك فإن العلم الإلهى يقصر عنه الفكر ضرورة :

لاتنكرن على قوم أنا لهم مولاهم علم ما لم أنت تعلمه
والزم عنان جواد الفكر عن خبب
فى فدفد لم تكن من قبل تفهمه
واعلم حباك إلهى كل معرفة وخص جأشك سرا غار مبهمه
إن الشريعة بحر لا حدود له وحده أن تكن بالجهل تحكمه
وفوق كل كفانا ذا الدليل على من يدعى غوره بالعجز تلجمه

وقوله « وفوق كل » إشارة إلى قوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » ثم قال روح الله ضريحه بروائح الرضوان . وأمدنا بمدده على ممر الزمان .

وجَلَّ جَمَالِى أَنْ يُشَاهَدَ أَو يُرَى لِغَيْرِى فَمَا غَيْرِى لِحُسْنِى يُطَالِعُ

الشهود من أعمال السر ، والرؤية إما فكرية أو بصرية ، فالاعتبار يكون أولا بنظر الفكر وسلمه النظر بالبصر ، ثم يكون شهودا ، وهو إدراك الشىء بالذوق ، ثم يكون بالبصر ، وهو الكشف عن ذات المنظور وهى أرق من الشهود .

اعلم أنه لما كانت الأسرار الربانية الواردة على قلب العارف من قبل الحضرة الإلهية لايذوقها إلا هو ، ومن كان فى ميزانه ، وبها يصير كل واحد منهم جميلا فى عالم الشهادة وفى الحضرة الغيبية ، قال رضى الله عنه « وجل جمالى أن يشاهد أو يرى لغيرى ، أى تنزه سر الحق الوارد على جأشى من قبل سنى على جنابه الذى به صرت جميلا فى العالمين ومركز إشراقه فى الثقلين وبه برزت وليا مقربا فى الحضرتين ، أن يذوقه غيرى أويشاهده بأنوار سره أويراه ببصره أويعتبره بنظر فكره لأنه سر من أسرار ذى الجلال ، والسر هو الكتم وإذا كان كذلك فكيف تدركه أبصار الرجال ، وقدم الشهود على الرؤية لأنه وسيلة إلى الكشف الذى يكون بالبصر وصاحب الرؤية البصرية أكمل درجة من صاحب الشهود .

ومن أجل ذلك لما كانت الرؤية أكمل من الشهود ادخرها الله لعباده فى الدار التى هى أكمل من هذه الدار وهى الجنة ، لأنهم فيها يكون استعدادهم لها أكمل من حالة كونهم كانوا فى الدنيا ، وصاحب النظر الفكرى أنزل درجة من صاحب الشهود لأنه دائما تراه دائرا مع الدليل ، وأما رؤية الحق بين البصيرة فهى واقعة لأولياء الله تعالى فى الدنيا ولاينكرها ـ من هو كامل الإيمان ـ إلا ناقصه .

واعلم أنه مما يدلك على صحة منع الشيخ للأغيار عن أن يشاهدوا أويروا السر الوارد على قلبه من قبل الحق المعبر عنه بالجمال ، رقوله تعالى « بل الإنسان على نفسه بصيرة » فالذى تحسه أنت من نفسك وتذوقه بذوقك ما يحسه غيرك ولايذوقه ، ومن أجل ذلك أكد ما ذكره فى الشطر الأول من البيت من المنع بقوله فى الشطر الأخير « فما غيرى لحسنى يطالع » والحسن والجمال ألفاظ مترادفة بمعنى واحد .

ومعنى قوله يطالع أى ينظر مايرد عليه من الحق ، وهذه اللفظة تدل أنه دائما متوجه إلى الله بنظر فيما أفاض به عليه ، ويحتمل أن يكون أراد بقوله

غيرتى لحسنى بطالع ، أراد بالحسن سر خصوصيته وهى الولاية ، فيكون المعنى وليس غيرى أحد يرى سر خصوصيتى ، إلا ما ظهر منها على ظاهر بشريتى مما يدل عليه كحسن خلق ولين جانبى لكل من اجتمع بى ، وصبرى على من بارزنى بالإنكار ، والأذى ، والعفو عنه وغير ذلك مما يدل عليه من الأوصاف الحميدة ، فمن اعتبر هذه الأوصاف وتأمل فيها بنظر الإنصاف ، واستدل بها على ولايتى التى عبرت عنها بجمالى ، ثم دنى منى ليقتبس من مشكاتها نورا يستضىء به من ظلمات غفلته ، توجهت إليه وأفضت عليه بما هو مقسوم له عندى ، ومن احتجب عنها بحجاب نظره إلى ظاهر بشريتى وضل بها عن شهود سر خصوصيتى كما ضلت القوم الذين قالوا وإن هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، فقد فاته منى الخير الكثير ، وعد عند أهل الهمة من أهل التقصير ، أقول وقد شاهدت ذلك من بعض أهل المدينة من الندم على عدم اجتماعهم بالشيخ بعد وفاته واقرارهم بما فاتهم من التماس البركة منه ما لو قسم على جم غفير من أقوى الرجال لما تهنوا بطعام ولا شراب زمانا طويلا .

وقد سمعت مرارا من كثير منهم من يقولون ما عرفنا قدر الشيخ وما ظننا أنه وصل إلى هذا المقام حين رأوا آثار الصلاح على بعض تلامذته وسمعوا بأخبار كراماته من القادمين على المدينة من الزوار . وسمعت من بعضهم أيضا يقول كنا فى حالة الطفولية نلعب معه ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

واعلم أن من شهد الفضل منهم انتفع به كالرجل الصالح العارف العلامة مولانا الشيخ ابراهيم الغلام المدرس بالمسجد النبوى وغيره ممن أخذ عنه من أهل المدينة وكان الشيخ رضى الله عنه يقول بل سمعت ذلك منه « لغنمونى قبل أن تفقدونى وتندموا على عدم الاجتماع بى كما ندم غيركم على عدم الاجتماع بالعارف الربانى ، والولى الصمدانى سيدى مشيخ باعبود العلوى بعد ما فقدوه .

وكان يقول لنا كان سيدى عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه يقول ما الا رجل منكم واحد يا أهل الشام أدله على الله إلى أن توفى فندموا عليه بعد ذلك حيث لم ينفعهم الندم ، فعليك يا أخى بترك النظر إلى ظواهر البشرية واشهد الفضل فيمن ظهر بسر الخصوصية ، وناده بلسان الحال :

يانازلين بقلب المغرم العانى   الا بالحمى وربا نجد ونعمان
هل لا تجودوا على صب تعطشه   لراحكم صده عن منهل البان
وفى هواكم أباح السهد مقلته   وحالف السقم لا يبغى به ثانى
حتى تجودوا بما فيكم يظن فمن   أخلافكم بر من وافى إلى الحان
فاكرموا ياكرام الحى ضيفكم   برشف راح سمت تعزى لسمان
وخيونى بها عن عاذل سفها   فى شربها بات عن ذا القوم ينهانى
لازال ربعكم للوافدين حمى
وراحكم طب ملسوع الهوى العانى

ثم قال رضى الله عنه مشيرا إلى حال من أدرك زمانه ولم ينتفع به :

فَنَجْلُ الحَيَا تَبْكِى بِعَادِى وَمَا نَوَى
جُفُونِى الَّتِى مِنْهَا تَسِحُّ المَدَامِعُ

النجل بفتح النون الولد وبضمها هى جارحة البصر ، والحيا هو المطر ، وأضافها إليها لكثرة ما تعطيه من الدموع ومعنى البيت وإجراء دموع عيون من أدرك زمانى ولم يجتمع على ولم ينتفع بأسرارى وعرفانى ، دليل على أنه علم برفعة مقامى وارتساخ قدمى فى الولاية وإقدامى ، فهو يبكى أسفا على ما فاته على يدى من الخير . ويندب بعادى عنه كانتداب الفاقد لإلفه من الطير .

اعلم أن البعاد إما أن يكون بطول مسافة بعد الدار ، وشط المزار ، وإما أن يكون البعيد قريبا ولكن إنما أبعده حجاب المعاصرة المغروب به

الإنكار . وهذا البيت رأيناه إخبارا منه وكشفا صحيحا على من يشكر عليه ماصدر عنه ، كما شاهدنا ذلك من جماعة من الوافدين على المدينة من الديار البعيدة وممن كان معاصرا له السنين العديدة وسأبين لك عن قريب من رأيته يبكي عليه بعد وفاته أسفا على مافاته من بركاته .

ثم اعلم أنه لما كان بكاء كل واحد ممن حجبه البعاد لعلة وإن كانت تلك العلة ممدوحة مثلا ، فهو ليس كمن يبكي من جلال رب العباد ، ومن أجل ذلك لما كان بكاء الناظم رضي الله عنه من جلال الله ، ودموعه إنما جرت من خشية الله ، قال وما سوى جفوني إلى آخر المصراع أي ليس تجد لو فرقت بين الفريقين وميزت بين المقصدين إلا جفوني التي عن باعث رباني - لا لغرض نفساني - ولا لغرض روحاني . تسح منها المدامع حقيقة لوارد التجلي الإلهي الجلالي على جأشي .

وقد ورد « أن الرجل إذا بكى من خشية الله فإن الله يطفىء بكل قطرة تقطر من دموعه سبعين خريفا من النار » ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والسلف الصالح إذا مروا على آية وعيد أو سمعوها أو خطر على قلوبهم واردها يكون من خشية الله وجلاله . وكان سيدنا عمر بن الخطاب إذا ورد عليه وارد الجلال يبكي ويقول « ليت عمر لم تلده أمه » وكان له خطان أسودان على خديه من أثر الدموع ، وهذه العلامات لم توجد فيمن يبكي من بعاد شيخ عنه. فظهر من هذا أن قوله رضي الله عنه «وماسوى جفوني التي منها تسح المدامع » أن بكاءه ليس كبكاء من يبكي على فقد المشايخ .

وممن رأيته يبكي على الناظم أسفا على مافاته من المعارف الربانية الرجل الصالح الأخ محمد أمين المدني اجتمعت عليه مرة وجرى فيما بيننا ذكر الشيخ فبكى بكاء كأنه قريب عهد بمصيبة ، وقال ماعرفت قدر الشيخ إلا بعد وفاته ومثل هذا الرجل - كثيرا - من رأيناه يبكي على عدم الاجتماع به ممن كان من المعاصرين له والمنكرين عليه .

وأما ما كان من الأغراب فإنه جاء شخص من أهل المغرب في أيام الحج إلى زاوية الشيخ وسئل عنه فقيل له قد صار إلى رحمة الله فصاح بأعلى صوته الله الله وبكى وانتحب وقال والله ماجئنا من بلادنا إلا بقصد الحج والزيارة والاجتماع به لنلتمس من بركته وخرج من وقته وسافر ولم يلبث بالمدينة.

واعلم أن أمثال هذه الناس لو بكى أحدهم عوض الدمع عندما ، أسفا على الاجتماع بالمشايخ لم تساو دموعهم عند الله قطرة جرت من جلال الجبار ، ولو كانت عدد قطر الأمطار ، ومياه البحار ، لأن هؤلاء يكون على قدر المنازل ، والمشايخ يكون من جلال متورها بنور جماله الكامل .

واعلم أن الأسباب المبعدة عن الاجتماع بالمشايخ كثيرة منها ما ذكرناه من بعد المسافة والمعاصرة والإنكار ، ومنها أن المشايخ يستترون بالأخذ في الأسباب المبعدة عنهم ستراً لحالهم وسبب ذلك أنهم لما كشف الله لهم عن مقاصد الخلق ورأوها غير صالحة للصحبة ، لأن منهم من يصحب المشايخ لأجل أن يستفيد منهم شيئاً يجمع به حطام الدنيا ، ومنهم من يصحبهم لأجل أن يرتكب أموراً غير صالحة ويحتمى بهم ، ومنهم من يصاحبهم ليمتحنهم بالمسائل ، فهم يستترون بالجهل لأجل أن أغلب الخلق من أهل زماننا صار اشتغالهم بالمناظرة والمجادلة ، وهذا ممنوع شرعا ، وقل من يسأل منهم بقصد الاستفهام . وكان الأستاذ رضى الله عنه يستتر بالتقشف وعدم التدريس وبتعاطى الأسباب التي تشير بأنه ليس من العلماء ، حتى أن رجلا من علماء الأزهر من تلاميذ القطب العارف بالله سيدى الشيخ محمد المغناوى ، جاء يقصد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزل بزاوية الأستاذ فرأى يوما مؤلفا للأستاذ ذكر فيه ذكر الروح وذكر السر وذكر القلب ، فتعجب وقال في نفسه من أين الشيخ أن يعرف هذا العلم وما أرى عليه سيما العلماء ؟

فلو كان الأمر كما ذكره في هذا المؤلف لتكلم عليه شختا ، لأنه شيخ

الإسلام بمصر وعالم أهل عصره ، ثم أنه بعد هذا الخاطر أخذته سنة من النوم فرأى نفسه كأنه فى فلاة من الأرض لا نبات بها ولا شجر ولا جبل وقد حمى الوقت عليه وصار يركض فى هذه الفلاة يمينا وشمالا ، وجاء أن يجد شيئا يستظل به . فلما زاد به الحال واشتد به العطش ، نادى شيخه فإذا هو به واقف بجانبه ، وقال له ارفع راسك ، وانظر الشيخ محمد السمان ، فلما رفعه رأى غمامة من نور بين السماء والأرض ، ورأى الأستاذ جالسا عليها وجسده كله عيون ينظر بها فقال له سيدى محمد الحفناوى : انظر إلى الشيخ محمد السمان أين هو ؟ وانظر إلى ، ثم أشار ببنانه إلى كل عين فى الشيخ ، وقال له تأمل هذه العين التى يخرج منها ذكر القلب ، وهذه التى يخرج منها ذكر السر ، وهذه التى يخرج منها ذكر الروح ، وتركه ومضى ، فانتبه الرجل من نومه مرعوبا ومضى إلى الزاوية ووقع على أقدام الشيخ وأخبره القصة وطلب العفو منه فعفى عنه ثم من الغد اجتمعت على الشيخ فقال لى رضى الله عنه لولا أدركه الشيخ محمد الحفناوى لسلب الإيمان .

والحاصل أنه ينبغى لمن يصحب المشايخ أن يحفظ نفسه من الإنكار عليهم ، ويلزم الأدب معهم ، فإن صحبتهم من غير أدب ما تزيد الإنسان إلا مقتا وحرمانا ، ومن أراد أن يعرف كيفية الأدب معهم فليطالع فى كتب سيدى عبد الوهاب الشعرانى وسيدى مصطفى البكرى ثم يصحبهم على الشرط المذكور فيها قبل أن يبكى عليهم بعد فقدهم حين يرى ما صار إليه من الكمال من تأدب معهم فيندم حيث لم ينفعه الندم :

بكى الغريب على بعد الديار ولو ... بكى على ساكنيها من أحبته
وقام فى موقف الآداب ممتثلا ... لأمرهم خالعا أثواب رفعته
لعوضوه ديارا غيره وله ... بقصده انسموا فضلا لمهجته
كم من مظنات جود فى الوجود لهم ... أخفوا مسالكها عن عبد عزته

فمكن لهم أن ترم تهدى لأرضها   عدا إليهم أنى يسمى بذلته
وخذ حديث الهوى عن مسايرة   أنبئك عنه فعندى حكم صحته
هم الكرام فمن وافى منازلهم   بوصفه عوضوه فوق بغيته

ثم قال رضى الله عنه وأرضاه وسقى بماء الرضوان ثراه :

وَوُرْقُ الحِمَى تَشْدُو عَلَى بَانَةِ الغَضَا
وإنى الذى بالبَانِ فى الرَّوْضِ ساجِعُ

«الورق» الحمام والحمى اسم لموضع ويطلق على مدينة خير الأنام ، «وتشدو» أى تغنى حين تذكر إلفها ، وتسلى بذلك الغناء نفسها ، وكونها تشدو على بانة الغضا ، فيه إشارة إلى أنها باينت كل ماسواه وخلت بنفسها ، وكونها اختارت إقامتها فى الغضا عن المساكن ، إشارة إلى أن المساكن قيد والغضا إطلاق ، والقيد من صفة الحوادث ، والإطلاق من صفة القديم ، والحادث يفنى والقديم يبقى . فاختارت الباقى على الفانى ، وليس فعلها هذا عندى من صفة الفاقدين ، لأن الفاقد منكسر ، والانكسار من وصف المساكين ، ومن شأن المساكين أن يجلسوا على الثرى لا على البان ، ولا على كل ما يشير إلى الترفع ، بل يكون جلوسه على ما يشير إلى انخفاضه ، قال تعالى «أو مسكينا ذا متربة» حتى إذا رآه حبيبه بهذه الحالة رثى له إذا كان قريبا ويرحمه بالوصال ، أو لأنه إذا سمع به وهو بهذه الحالة إن كان بعيدا أدناه منه من بعد المطالب .

وأما قول الناظم «وإنى الذى بالبان فى الروض ساجع» وإنى الذى على خلاف ما عليه الورق لأنها هى تشدو وتسلى بذلك نفسها من الحزن الذى اعتراها من فقد إلفها ، وأما أنا فغنى بأن أحبابى نازل ـ أشاهدهم ما بين تلك القباب والمنازل ـ وفى روض تجلى جمالهم حاضر ـ أنادمهم بلسان الباطن

والظاهر وأقتطف بأنامل سمع فؤادى أزهار الجواب ، وأروح قلبى بسماع خطابهم فى حضرة الاقتراب ، والإشارة فى هذا الكلام إلى أن الورق تشدو على فقد إلفها . وهو أى الأستاذ إلفه لا يفارقه بل دائما يشاهده ويخاطبه لأن المنازل والقباب إشارة إلى الأكوان ، والأكوان مظاهر محبوبة ، وهى قائمة بوجوده ، فهو لا يشهد إلا مطلق الوجود ، فإذا خاطبه أحد من الكون فهو لا يسمع الخطاب إلا ممن هو به موجود :

يشدو بذكر الذى يهواه فاقده
كيما على وجده الذكرى تساعده
وواجد ماسواه فاقدون له
كفاه وجدانه عن من يواجده
يرتاح بالذكر من عنه الحبيب نائى
وعنه يغنيه من أمسى يشاهده

ويحتمل أن يكون أراد بقوله وإنى الذى بالبان أى الموضع الذى أخذ الله فيه الميثاق على اصطلاح الصوفية ، وقوله « ساجع » أى مجاوب بالإقرار بقوله « بلى » حين قال « ألست بربكم » ، وكنى عن تلك الحضرة بالبان لأن فيها بان لهم الحق وتجلى أى ظهر عليهم وخاطبهم بألست بربكم ، وكذلك شبهها بالروض لكونها كانت مزينة بأرواح الأنبياء والرسل والشهداء الصديقين والأولياء وبأنوار تجلى الخطاب ، ومنادمة الحبيب للأحباب ، كما أن الروض مزين بأنواع الأزهار والثمار .

اعلم يا أخى أن الفاقد إذا وجد ما فقد سكن روعه . وانحسم عنه ولوعه واطمأن قلبه بوجدان أحبابه ، فلا تحركه الذكرى فى بعده واقترابه .

ومن ثمة قال الصديق الأكبر حين رأى بعض الصحابة يبكون من خشية الله كذلك كنا من قبل ، فقست قلوبنا ، يشير إلى أنه قد كان ذلك حاله قبل أن يجتمع بمحبوبه . فلما ظهر بدوام الحضور معه قس بالاطمئنان قلبه بحضور مطلوبه . وصحب رجل بعض الصالحين فما وجده ذكر الله قط فسأله عن ذلك فقال له أخبرنى متى غاب حتى أذكره ؟ فتأمل أرشدنا الله وإياك فى حال هؤلاء السادة الأعلام . واجتهد بتوجه قلبك وقالبك فى حصول هذا المقام ولا تقل أين أنا منهم فإنهم مثلك من بنى آدم والرب واحد ، وكرمه لا يختص بواحد دون الآخر ، فاقصده بالوجه الذى طلبه منك تجده الكريم الذى لا يخيب القاصد .

وإن أردت أن تعرف وقت تجليه بالعطاء والمواهب فالثلث الأخير من الليل إذا هجعت العيون وأزهرت الكواكب فذاك أوان العطاء . وحين رفع الغطاء . فوقف على بابه فى ذلك الوقت بالذل والانكسار ، وأنشد بين [يديه] بلسان العجز والافتقار .

ليس أهوى إذا تفاوض قوم غير ما كان لى بشير اليكم
وانتظارى مدى الزمان إلى ما قد حوته من العطايا يديكم
ذاك دأبى وليس أهوى سواه ليت شعرى فكيف يخفى عليكم
إن دينى ومذهبى علم مابى جل أو قل كل ذاك لديكم

ثم قال رضى الله عنه :

تَحِنُّ إلىَّ العيسُ شَوْقاً لِمَلِّهَا تَحطُّ بِحَيِّي وهي نَحْوِي تُسَارِعُ

العيس الإبل ، واستعار هذا الإسم لنفوس المريدين لأن نفوس المريدين هى مطاياهم إلى لقاء الأحباب . وبها يصلون إلى رحابهم ويضربون بها القباب . كما يصل راكب العيس إلى مطلوبه . ويتوصل بها إلى لقاء محبوبه . فسير الطالبين بها على قسمين قسم يسير بالمجاهدات الشرعية ، والتخلق

بالأخلاق المحمدية . حتى تتزكى بذلك نفسه من الأكدار . فإذا تزكت صلحت لحل الأسرار . واتصلت بالملأ الأعلى وانطبع فيها الوجود ، وشاهدت أنوار العزيز الجبار . والجبار مأخوذ من الجبر وسمى بذلك لأنه يجبر قلوب من انكسرت قلوبهم من أجله بتركهم للعادات . وانهضمت نفوسهم فى هواه بيعاد أحبتهم عنهم حين أقبلوا عليه بالرياضات . والقسم الثانى يسير إلى محبوبه بفنائه عن نفسه . ويصل إليه بانمحائها فى وجوده عن شهود وجود رسمه وطمسه . قال شيخنا وملاذنا سيدنا ومولانا السيد مشيخ باعبود العلوى رضى الله عنه ونفعنا به :

فارق هواك فما دواك سوى ذا　　　وابق بلاك ترى الإله ملاذا

اعلم أنه لما تحقق المتحققون من السالكين أن الرياضة والعبادة والمجاهدة مالم يفن المريد عنها فى المحبوب ، لم يفز بوصاله منه وبالمطلوب . ورأوا نفوسهم قاصرة عن المعرفة بالفنا ، وتحققوا بأن الناظم هو المشار إليه فى معرفته والمقرب من منهم برغبته إليه دنا ، حنت ، إليه نفوسهم ليجرعهم من كؤوسه مايفنيهم بها عن حسوسهم .

ثم لتعلم أن العيس يحثها حاديها فى السرى بالشوق والتغنى والطرب . ونفوس المريدين تحث بقيام ناموس الشريعة وإن مسها من ذلك مشقة وكرب فمن قريب إذا وصلت بهم إلى منازل الأحباب ، وحطوا أثقال عزمهم بين تلك القباب . ورأوا عروضها ترفل بين تلك الخيام . يتبدل تعبهم براحة ويحصل لهم المرام . وخص الناظم نفسه بتوجه المريدين إليه دون الأقران إشارة إلى أنه أعرفهم بالطرق الموصلة لهم إلى تلك الأوطان .

ثم ذكر الباعث لهم على حنينهم إليه بقوله ، شوقاً ، أى شدة تشوقها إلى شم ماللدى من أقحوان العرفان . ورجائها إذا أناخت بفنائى أن أرشفها من صافى حميا صفا الحان . هما الباعثان لها على الحنين . والمحرك منهم من الشوق كل كمين . فمن أجل ذلك تراها تسارع إلى رحابى . مخافة أن يمنعها رائد المنون قبل الوصول إلى أعتابى :

لما رأيت فؤادى بين خدركمو وافت جيكمو كى تجمعون به
وها أنا واقف فى باب حضرتكم مسربلا ببرود أفلى لعـــزته
ورافعاً وجـــه آمالى لوجهكمو مستمطراً بيد الشكوى لصيبه

واعلم ياأخى أنها جـــرت عادة الله فى المريدين أنهم يقطعون الفيافى والقفار . يلتمسون المشايخ ليرشدونهم على ضالتهم وليس ضالتهم إلا الوصول من حضرة العزيز الغفار . ومن رأيته قطع الأودية والبحور . وفارق الأهل والأولاد والديار والقصور . بقصد زيارة الأستاذ . والالتماس من بركاته . العلامة الشيخ عبد الخالق المزجاجى حتى وصل إليه وأخذ عنه وتعطر من نفحاته . وكذلك رأيت الولى الكامل . والعارف المحقق الواصل مولانا الشيخ عبد الغنى الفتنى المقبور بالمدينة فإنه توجه من الهنـــد بنية الاجتماع بالأستاذ . وبقصد الانتظام فى سلك طريقته فنعم ماقصد ونعم ماأراد . فاجتمع به وأخذ عليه . ورحل من الأسرار مالديه . ولازمه مدة إقامته بالمدينة إلى أن أناخت بفنائه ركاب المنايا ، فاحتمله إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فيها أنواع لطائف الحق والعطايا .

ثم قال رضى الله عنه ونفعنا به مشيراً إلى أن سعيهم فى الحقيقة إنما كان بتوجهه إليه لأنه نفى فى صدر البيت الآتى نسبة السعى إليهم بليس النافية وأثبته لنفسه بقوله وليس سواى وهذا هو البيت :

وَلَيْسَ سِوَائِى أَمَّ نَحْوِى وَلاَ سَعَى
إِلَىَّ وَلاَ لاَحَتْ لِغَيْرِى الْمَرَاسِمُ

اعلم ياأخى أن التوجه له قوة تأثير فى الشىء لاسيما إذا كان من شيخ كامل عارف بالله تعالى ، لأن العارف إذا وصل إلى درجة الكمال يعطى تصريف قوله تعالى : «كن» فيصير حينئذ إذا قال للشىء «كن فيكون» بإذن الله تعالى ، ويكون ذلك من طريق الإرث المحمدى ، لأنه ثبت فى الأخـــبار الصحيحة — ورأيت ذلك مقرراً فى الجواهر والدرر للشعرانى — أن النبى

صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة ورأى شخصاً مقبلا من بعيد فقال : « كن أبا ذر » فكان بإذن الله تعالى .

ومثل ذلك إذا صدر من ولى فهى كرامة له . وما كان كرامة لولى فهى معجزة لنبى . فالشيخ المرشد إذا توجه لشخص فإنه ينجذب إليه انجذاب الحديد إلى حجر المغناطيس بآثار ذلك التوجه .

والآثار هى أنوار ذلك التوجه تقذف فى قلبه ، فيكشف بها عن حال المتوجه له ، فيسعى إليه . ذكر سيدى عبدالوهاب الشعرانى عن شيخه سيدى على الخواص رضى الله عنهما أنه قال التوجه له تأثير قوى فى الأشياء وذكر أن الإنسان إذا أراد أن يحصل له ولد جميل فى الصورة والمعنى ، فليتوجه بباطنه ويتصور فى ذهنه أى صورة كانت تعجبه ويتوجه لها بخاطره حالة كونه موافقا لزوجته فإنه إذا أراد الله بحمل يأتى الولد بتلك الصــــورة انتهى كلامه .

وإذا علمت ذلك ظهر لك أنه مانحا نحو الشيخ ـ أى قصده من المريدين إلا بتوجهه ، ولا أم ساحته أحد سواه إلا بذلك التوجه ، وتبين لك معنى قوله رضى الله عنه « وليس سوائى أم نحوى ولا سمى » إلى آخر ماقال . ويؤيد ماقاله أيضاً ماحكاه سيدى عبد الوهاب الشعرانى قال سألت شيخى سيدى عليا الخواص عن يوم « ألست بربكم » ، وقلت له هل شهد أهل تلك الحضرة ؟ قال نعم شهدها كثير ، منهم سيدى سعد بن عبد الله التسترى رضى الله عنه فكان يقول شهدت الحضرة الأولية عند أخذ الميثاق وسمعت قوله تعالى : « ألست بربكم » ، وقول السامعين : « بلى » ، وعرفت هناك من كان عن يمينى ، ومن كان عن شمالى ، وعرفت تلامذتى من ذلك اليوم ولم أزل ألاحظهم فى صلب آدم حين ردوا إليه بعد أخذ العهد وفى صلب آبائهم حتى وصلوا إلى فى هذا الزمان . وشاهد ماذكرناه هنا ، فتأمل فى قوله فما زلت ألاحظهم ، والملاحظه هى التوجه منه إليهم فى هذه المدة إلى وصلوا إليه فإذا تأملت

ذلك يظهر لك أن كثرة حرصه على ملاحظته لهم بعين بصيرته وتوجه سريرته هو الذى جذبهم إليه . وسمعت أستاذنا يقول التوجه له قوة تامة فى تحصيل الشىء ألاترى إلى الهرة إذا أمسكت فأراً وانفلت منها ودخل إلى جحر كيف تجلس نهارها عند ذلك الجحر تنظر فيه متوجهة له بجميع حواسها حتى أنك لو نهرتها لم تشعر بك ولم تزل كذلك حتى يخرج الفأر إليها بنفسه وما أخرجه إلا قوة توجهها . فكلام الناظم فى البيت المذكور يفيد هذا المعنى ، وهو أنه ما توجه من توجه إليه ولا أم من أم نحوه إلا بقوة التوجه منه إليه .

واعلم أن كثرة توجه الشيخ للمريد ينتج له نوراً فى قلبه لأن الشيخ ينظر إلى المريد بنظر الله تعالى فيكشف له ذلك النور عن خصوصية المنظور فينساق إليه . وما يدلك على أن التوجه له تأثير ، قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أعينونى على أنفسكم » ورأيت مرة رؤيا تشير إلى ذلك وهو أنى رأيت كأنى خارج من باب المسجد المقابل لزاوية الأستاذ فقابلنى داخلا منه فحين رآنى أخـــذ ينفض فى لحيتى ، فلما أصبحت قصيت الرؤيا عليه ، فقال لى كم أصلح وتفسدون ! قال عليه السلام « أعينونى على أنفسكم » فعلمت أن الشيخ مشتغل بعلاج مرضى ولسان حاله يأمرنى بالحمية وأن أعينه على نفسى وأنا لا أشعر بذلك .

فكذلك المريد يقبل على الشيخ بالشيخ وهو لا يشعر ، ولما كان المريد نتيجة سر الشيخ وولده الروحى وهو يرث كما يرث ولد الصلب وإرثه معنوى كما أن إرث ولد الصلب صورى ، أعطاه حصته من الإرث ، بأن أنزله منزلته فقال : « ولا لاحت لغيرى المرابع » لأن المريد ما رأى المربع إلا بالسر الذى أودعه فيه أستاذه وهو المعبر عنه بالإرث المعنوى الذى ورثه إياه . وحيث كان السر المذكور المودوع فى المريد الصادق صفة من صفات أستاذه ، والمريد موصوفاً به فالصفة عين الموصوف .

وإذا كان الأمر كذلك فيكون حينئذ للمريد الصادق هو عين صفة الأستاذ المتصف بها وظهر الاتحاد فى المعنى بينهما وإن كانت الصور مختلفة ، لأن الصفة عند المحققين هى عين الموصوف ، أو أنه أنزله منزلته لكون أن الولد مظهر والده وعينه ولولا أنه كان عينه ما أثر حبه على حب والديه وهذا معلوم ، إن الإنسان يحب نفسه أكثر من والديه إلا من عصمه الله من ذلك وهو نادر ، والنادر لا حكم له ، فظهر من هذا أن الولد هو حقيقة والده .

ومن ثمة قالوا الولد سر أبيه ، والمرابع هى نتائج العبادات والأسماء التى كان يذكر بها المريد لأن لكل اسم عبادة ومقام ، وذلك المقام هو نتيجة عمله . قال تعالى : « وما تفعلوا من خير تجدوه عند الله » ، مثال ذلك من لازم على الذكر بلا إله إلا الله وهو فى مقام النفس الأمارة فإنه ينتقل ببركتها إلى مقام اللوامة ، وهو نتيجتها ، ثم كذلك من لازم على الذكر بالإسم المفرد وهو الله الله وهو فى مقام النفس اللوامة ، فإنه ينتقل ببركة هذا الإسم إلى مقام الملهمة وهو نتيجته ، وهو كذلك كلما تلقن من شيخه اسماً وكان فى مقام ، فإنه لم يزل ينتقل ببركته من ذلك المقام إلى نتيجة الإسم الذى لقنه أستاذه إلى أن يصل إلى مقام النفس الكاملة وهو آخر مقامات السلوك .

وهذه المقامات هى التى عبر عنها المصنف فى آخر البيت بالمرابع وسماها المربع لسموها وارتفاعها لأن المرابع هى التى تكون فى علية الدار ، أو أن المرابع هى المواضع التى تكون كثيرة الربيع وتسرح فيها المواشى ، أو المواضع التى تجتمع فيها الأحباب وتحصل لهم فيها الجمعية على صفاء القلوب مع المحبوب ، ولما كانت المقامات من شأنها السمو والارتفاع وفيها يجتنى ربيع المعانى وأزهار أسرار المبانى ، ونفوس السالكين فيها تسرح فيها عبر عنها بالمرابع .

واعلم أن توجه الشيخ للمريد له حد معلوم ، وحده إذا وصل إلى مقام

النفس الكاملة ، فاذا وصل اليها قالوا له هذا أنت وربك ، ويحتمل أن يكون معنى البيت وهو قوله «وليس سوائى أم نحوى » أى وليس سواى من المشايخ أم نحوى أى تصدى بالتربية بل أنا الذى توجهت إلى نفسى بالمعاملات الشرعية والرياضات الواردة فى السنة السنيه ، والمجاهدات بالمخالفة لها والتخلق بالاخلاق المحمدية ، حتى وصلت هذا المقام ، بمتابعتى فى السر والعلانية قد مابقدم سنة خير الأنام ، فهو واسطتى فى الوصول ، ومقدمى إلى حضرة الحق فى الدخول .

اعلم أن الولى الذى يكون الرسول واسطته إلى الله يكون مقامه أعلى من غيره فى طريق أهل الله ، وشاهد ذلك ماورد فى الحديث القدسى وهو قوله تعالى « فبك آخذ وبك أعطى » فمن كان واسطته النبى صلى الله عليه وسلم فى التربية أعطاه الحق كل مايتمناه ، إكراما منه لأكرم الوسائط اليه وأشرف المربين لديه ، ومن كان واسطته فى الفناء فيه أخذه عنه وقربه من ناديه .

ويؤيد هذا المعنى أن الاستاذ بعث لى كتابا وأنا إذ ذاك ببدر وقال لى فيه بهذا اللفظ : ياولدى أعلم أنه ليس للشايخ على منة وإنما المنة على لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذى تكفل بتربيتى وإنما أخذت عنهم تبعا لطريق القوم .

واعلم ياولدى أن عند الصوفية من كان واسطته رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذى سما قدره على غيره ممن أخذ عن أولياء الله ، وقوله « ولا لاحت لغيرى المرابع » أى منازل القرب من أهل زمانى .

اعلم أن فى كل زمان لابد أن يكون فيه خاتم الولاية المحمدية وارثا للحضرة النبوية بتخصيصه بمقام لم يشاركه فيه من أهل عصره ، وكان الناظم رضى الله عنه فى زمانه هو خاتم أهل الولاية المحمدية ، أخبر الشيخ الصالح

العلامة المحقق مولانا الشيخ إبراهيم الغلام المدرس بالمسجد النبوى قال : كنت يوما فى ضحوة النهار جالسا فى المسجد فوافانى الشيخ وأخذنى ومضى بى الى مجلسه فى علية داره وقال ياشيخ إبراهيم سيدى محي الدين بن العربى ذكر أن خاتم الولاية المحمدية تكون له علامة يتميز بها فهل رأيت فى هذه العلامة ؟ قال فسكت ، ثم مد يده الشريفة وأرانى تلك العلامة فى يده اليمنى كما ذكره خاتم المحققين الشيخ محي الدين رضى الله عنه وقال أنا خاتم المحمدية .

ومن ثمة لما كان هذا مقامه قال ، ولا لاحت لغيرى مرابع ، أى من أولياء عصرى لأنه وارث محمدى ، والمرابع التى رآها من هو وارث لحاله مارآها غيره من الأنبياء ، فكذلك الذى رآها هو مارآها غيره من أولياء عصره . ويحتمل أن يكون معنى البيت لمناسبة ماقبله أى ولا تظنن أن كل من أقبل على من الطالبين أقبل بنفسه ، أو كل من سعى إلى من المريدين سعى بهمته وقوة حسه ، أو كل من لاحت له المرابع رآها ببصره بل إنما أقبل الطالب على بقوة جاذبة ، طلبى له ، وسعى إلى بهمة توجهى إليه ، فالطلب جاذبه إلى ، والتوجه سائقة ، وما رأى المرابع من رآها ، وشاهدها عيانا وشفاها ، إلا بواسطة بقائه فى وجودى ، وفنائه عن نفسه بغوره فى بحر شهودى ، فافهم .

ثم قال رضى الله عنه منبها للمريد الصادق على مايرى من الأنوار ، فى حالة سيره وإقباله ، على الله بالرياضات والاذكار ، لكى لا يقف عندها لمعرفته بالأحوال التى تعرض للسالك فى رحلته من مواطن نفسه الأمارة بالأكدار إلى غرف النفس الكاملة المشرقة بالأنوار .

فَإِنْ شِمْتَ بَرْقًا فهو مبتسِمٌ إلى لِقَائِى وإِنِّى الضاحكُ المتوَاليعُ

شمت بمعنى رأيت ، أى فإن رأيت أيها المريد الصادق نورا فى حالة سيرك إلى الله وإقبالك على الله ، وإشتغالك بالأذكار فهو مبتسم أى مبشر بلقائى ، مأخوذ من تبشير البرق بنزول الرحمة إذا تبسم ولمع نوره ،

ولما كان النور الذى يراه الذاكر مبشرا بتوجه أستاذه له ورحمته فى توجهه إليه ، شبهه بنور البرق الذى إذا تبسم ، أى إذا لمع نوره فيه بشارة بنزول الرحمة ، ومعناه فإن رأيت يامريدى نورا فى حالة كونك ذاكرا مولاك فهو مبشر لك بلقائى إياك فى المقام الذى تصل اليه لأجل أن أرحمك بأخذى بيدك لئلا تقف عنده حين ترى ذلك النور ، لأنك ربما اذا رأيت ذلك تظن أنك قد وصلت لعدم معرفتك لمعنى الوصول فتعتمد عليه فتنقطع عن المقصود ، « وإنى الضاحك » عليك حينئذ ، تجدنى إذا هممت أن تركن إليه المتولع ، أى المتشاغل عن غيرك بك فى ذلك الوقت بتوجهى اليك حتى أصرف عن خاطرك الذى هممت أن تقف عنده .

اعلم ياأخى أن السالك فى حالة الذكر تظهر له أنوار متعددة ،هكذا ذكر الناظم فى رسالته « اغاثة اللهفان » منها مايراه الذاكر عن يمينه ، وتارة يكون عن يساره ، وتارة يراه من أمامه ، وتارة يراه من خلفه ، وتارة يراه من أعلاه ، وتارة من ناحية قلبه ، وهذا الذى يأتيه من ناحية القلب إذا اتصل بقلبه فهو من نور توجه الشيخ إليه .وإلى هذا النور أشار الشيخ رضى الله عنه بقوله فإن شمت برقا فهو مبتسم إلى لقائى أى مبشر بأن ملاقيك فى حالة كونك ذاكرا ومشاهدا وحاضر عندك لئلا تقف مع الأنوار حين تشهدها تشرق عليك فتظن أنك قد تحصلت على المراد .

اعلم أن الأنوار التى يراها الذاكر ، منها نور الملك كاتب الحسنات وهو الذى يكون عن اليمين ومنها نور كاتب السيئات ويأتى من جهه الشمال ، ومنها نور الحفظة ومنها نور إبليس ، وقد ذكر الشيخ فى كتابه « اغاثة اللهفان » علامة لكل واحد منها فراجعه فيها ، وأما من لم يكن من أهل الذكر بأن ترقى منه إلى مقامات الشهود كشهود وحدة الأفعال وشهود وحدة الأسماء وشهود وحدة الصفات ،فان له أنوارا أخرى تعرض عليه حالة كونه مشاهدا بكيفية أخرى ، وكل هذه الأنوار قواطع ولا يستغنى المريد عن حضور الشيخ عندها .

واعلم أن كل شيخ لا يترك البتة تلميذه من التوجه فى كل مقام حتى يخمسه ربه ، وإلى هذا التوجه أشار الشيخ كذلك لصاحب الشهود بابتسام البرق الذى هو إشارة الى نور توجه الأستاذ للمريد فى أى مقام من مقامات الشهود كان فيه سائرا إلى ربه ، ذكر سيدى عبد الكريم الجيلى رضى الله عنه أن الشيطان عرض له بصورة النور وكاد أن يفتنه قال لولا أن شيخى سيدى اسميل الجبرتى أدركنى وصرفه عنى لافتننى فتأمل فى هذه المشايخ مع تلاميذهم يظهر لك فضلهم على غيرهم رضى الله عنهم .

وإن نَاحَ وُرْقٌ فى الرُّبا أو تَرَاسَلَت
مُطَوَّقَةٌ إن الكئيبُ المُساجِعُ

« الورق » الحمام مفرده حمامة « والربا » المكان المرتفع من الأرض « والمطوقة » جمعها مطوقات وهى نوع من الحمام تتميز عنهم بخط أبيض دائر بجيدها وهو تخصيص بعد تعميم ، ومعنى البيت أى وإن بكت الحمام بالربا فى السحر على غصن البشام ، وجاوبتها بالسجع مطوقة فى الرياض تبكى على إلفها ودمع كل واحدة منهن فياض فى انسجام ، فإنى أنا الذى فى ذلك الوقت الذى يكون فيه المخاطب لمحبوبه ، والمخاطب فى حضرة الأنس به وتقريبه .

وفى البيت إشارة لطيفة ، ورمز يفهمه ذو الطباع المهذبة الشريفة ، والإشارة فيه إلى أنه أراد بالورق العباد ، واطلق هذا الاسم عليهم دون غيرهم من أرباب السلوك والزهاد ، لمشاركتهم للورق فى رقة القلوب ، ودليله اتفاق كل منهما فى احياء الثلث الأخير من الليل الى طلوع الشمس وتواجدهم فيه إذا تجلى المحبوب ، والورق مفرده ورقه وأصل ورقة رقة فزيدت الواو فيه وجعل علما على الحمامه . وقوله أو تراسلت مطوقة ، أى أو تجاوبت نفوس مطوقات بطوق المحبة من المحبين ، ونادم بعضها بعضا بالبكاء والحنين ، فانا

المشاهد والتكلم في وقت بكائهم للحبيب بخلو عرفوه كمرتبتي مابكوا عليه ، بل وقعوا على أعتابه وتذللوا بين يديه .

اعلم ياأخي أن كل من استولت عليه محبة الله وأحاطت بظاهره وباطنه مالم يكن مشاهدا دائما لمحبوبه لايتمالك أن يحبس نفسه من البكاء بل ومنهم من اذا اشتد به الحب يخرج هائما على وجهه ويسكن في القفار ، ومنهم من يقطن في سواحل الأنهر وجزر البحار بخلاف المحبوب فانه مطمئن الخاطر بدوام الحضور مع محبوبه في الباطن والظاهر .

ولما كان الفرق بين حال المحب والمحبوب ، يعزب على كثير ممن لم يذق طعم ماذاقه من المشروب ، عرض الشيخ في هذا البيت مبينا احال الفريقين ، ومميزا لمن يعيه بالأذنين ، وها أنا أوضح لك معناه زيادة على مافي التفسير الأول الذي ذكرناه ، ومعناه إذا ناحت العباد في وقت الأسحار ، خوفا وخشية من تجلي جلال الجبار ، وجاوبتهم نفوس المحبين بالتملق إذا ناداهم فقال هل من سائل فانيله الاوطار ، فانا المكلم له بلسان المقال والحال في ذلك المقام ، والمخاطب بأنا قد حبوناك بلوغ المرام ، لأني في ذلك الوقت متهيء لنداء المحبوب بخلاف ماعليه العباد والمحبين ، لأن العابد كان فيه مشغولا بعبادته طالبا بها رضى مولاه ، والمحب متلذذ بسكر محبته وشوقه لرؤية جمال من يهواه ، وذلك ليس وقت سكر وحنين ، وعبادة وبكاء وأنين ، بل وقت خلوة واستئناس بالمحبوب ، واحتساء راح منادمة ومشاهدة خاطب ومخطوب فالعابد في مكابدة والمحب في عناء ، والمحبوب عن جميع ذلك في راحة وغناء .

أخبر الرجل الصالح مولانا السيد محمد بن عثمان قال أخبرني شخص قال : قال الشيخ ابراهيم المنوفي المكي كنت في الطائف فرأيت رجلا شابا حسن المنظر يدور في السكك والشوارع وكلما واجه إنسانا قبل يده وطلب منه الدعاء ثم بعد أيام رأيته قد ظهر عليه آثار الجنان لحزنت عليه وحزن عليه جميع من كان يعرفه بذلك السكون والتواضع .

ثم إنى دخلت يوماً المسجد لزيارة الحجر فلما فرغت من الزيارة توجهت إلى القبلة وشرعت فى الصلاة فلما ركعت رأيت ذلك الشاب مسجى بثوبه ومضطجعا فى موضع سجودى فقلت فى نفسى سبحان الله كان هذا الشاب صالحاً والآن صار إلى هذه الحالة وترك الصلاة فما استكملت الخاطر إلا ورأيته رفع الرداء عن وجهه وفتح عينيه ونظر إلى شزراً . وقال كيف تعمل معه وهو الذى فتح لنا الباب وقال لى ادخل نحن لسنا نفتقرين إلى صلاتك، قال فلما سمعت ذلك منه داخلنى الرعب من كلامه وقطعت الصلاة ومضيت إلى موضع آخر وصليت نافلتى، ثم بعد مدة يسيرة سألت عنه فقيل لى إنه صار إلى رحمة الله تعالى نفعنا الله به . فافهم الفرق من هذا الكلام بين المحب والمحبوب . وميز به بين الخاطب والمخطوب . ثم قال رضى الله عنه :

وكُلِّى مَلِيحٌ صُورةُ الحُسْنِ وجْهُها
بنور صِفَاتِى للنُّهى يتَلاَمَعُ

قوله « وكلى مليح » أى باعتبار أفراد صفاته المحمدية التى بها اتصف وبها صار يعامل جميع من فى البرية . كالحلم والشفقة والكرم وحسن الخلق ولطف المعاشرة ولين الجانب فى الخطاب والتنزل للبعيد والقريب وسائر الأصحاب . كما شاهدنا ذلك منه وسمعناه من الثقات ؛ أخبرنا العلامة الصالح الزاهد المتعبد الناجح ، مولانا الشيخ عبد الكريم الهندى الملتانى قال سحت أقطار الهند واليمن وأراضى الشام ومصر وبغداد واجتمعت فيها بطوائف من العارفين المحققين والواصلين المرشدين فما رأيت أحسن خلقاً ولا أغزر علماً بالله من الشيخ محمد السمان ، فلما رأيت فضله أخذت عنـــــه وانتفعت به رضى الله عنه .

وكذلك أخبرنا العلامة المتفق على صلاحه وورعه سيدنا ومولانا الشيخ على الشامى المدرس فى المسجد الحرام ، قال اجتمعت على عدة من الأولياء بأرض الشام وأقطارها فما رأيت أجمل ذاتاً وأكمل صفة وأحسن خلقاً وأغزر علماً بالحقائق ، وأسرع إنتاجاً للمريد الصادق من سيدى الشيخ محمد السمان

فلما اجتمعت عليه ورأيت منه ما رأيت تلقنت عنه وحصلت لى منه بركة لو عشت ما عشت ما عثرت على طرف منها. وكان الولى الكامل الورع الزاهد العالم الفاضل ، أحد أصحاب شيخنا الشيخ عبد الرحمن الفتنى يقول الشيخ فى هذا الزمان خلاصة الحق من أهله .

واعلم أن الناظم لما ذكر بأنه مليح الحى وأنه قد طوى منشور المحاسن ببرد جمال ذاته طى أردان ، يؤكد ذلك بأبهر برهان ، ليستدل به على كماله جاهله من الاخوان فقال : وصورة الحسن وجهها ، أى وحقيقة الشىء الذى صرت به مليحاً عند الأنام ، برهانه المؤيد بتأثير صفاتى التى صرت بها حسناً عند الخاص والعام ، ظاهر للنهى أى للمتناهين فى رتبة الفراسة والذوق ، يشهدون نورها يتلامع على من أخذ عنى من أرباب الصفاء والشوق .

اعلم أن التلاميذ مظاهر صفات المشايخ فمن أراد أن يعرف حال كل مرشد فلينظر إلى تلامذته فإن الشبل ابن الأسد، كما أن من شم ماء الورد وكان قبل ذلك يجهله يعرف أنه مستخرج من طيب وبطيب الصنعة يستدل على طيب الصانع . ويحتمل أن يكون معنى وصورة الحسن وجهها، إلى آخر البيت أى والشىء الذى يستدل به على حسنى وجمالى . وملاحتى بين الورى وكمالى ، دليله لا يخفى على أهل النهى : أى أهل العقول الزكية ، والأذواق النورية ، وهى متابعتى للشريعة المحمدية ، من حال صباى إلى أن بلغت مرتبة الكهولية . وأى دليل أوضح من هذا الدليل وأى سبيل أشرف من هذا السبيل .

يحكى أن رجلا خدم أستاذاً أربعين سنة ، ولم ير منه كرامة فى هذه الأزمنة ، فجاءه يوماً وطلب منه أن يعذره فى الخدمة فسأله أستاذه عن السبب فى ذلك ، فقال له خدمتك أربعين سنة وكنت أظنك وليا لله تعالى فما رأيت منك كرامة تدلنى على ذلك فقال يا ولدى نور الله بصرك هل رأيتنى فى هذه المدة التى ذكرتها يوماً واحداً خرجت فيه عن حد الشريعة فقال لا ، فقال

وأى كرامة تريد منى أعظم وأشرف من هذه الكرامة ، وأى برهان تريد أن ترى منى أجل من الاستقامة التى أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « شيبتنى هود وأخواتها » ، فحين سمع منه ذلك تاب ورجع وعاهد الله فى سره أنه لا يفارقه ولازمه بعد ذلك حتى صار إلى رحمة الله تعالى رضى الله عنه .

اعلم يا أخى ، أن الولاية سر ربانى ، ونور إلهى صمدانى ، مودع فى زجاجة مشكاة الأصفياء . ولا يشهد ذلك النور إلا من خصصته آية « يهدى الله لنوره من يشاء » من الأشقياء ، ونظمته فى سلكها بشارة ، ومنهم من هدى الله فيرى الولى ولياً .

وأما من حجبته موانع « ومنهم من حقت عليه الضلالة » فإنه يراه مثله بشراً سوياً . ومن لم يجعل الله له نوراً يفرق به بين الخاص والعام ، فما له من نور كبقية سائر العوام . وليس مثل من جعل الله له نوراً يمشى به فى الناس ، فيفرق به بين من صارت ذاته نورانية تضىء كالنبراس ، كمثل من هو فى ظلمة الطبيعة ليس بخارج منها ما لم تخرجه يد الجذبات الاحسانية وتدخله حمى من سبقت لهم السعادة الربانية . جعلنا الله وإياك ممن سبقت لهم العناية بالسعادة ، وتبوأ منازل « للذين أحسنوا الحسنى » وزيادة . ثم قال رضى الله عنه :

فَغُصْنِ لُحسْنِي ساجِدٌ إنْ تَرَنَّتْ لَهُ
نَسِيمِى وكُلِّى نَحْوَ ذَاتِى رَاكِعُ

الغصن عبارة عن هيكله الكيانى ، والحسن كناية عن الوارد الربانى ، والفيض الاحسانى ، الذى يرد على قلبه من قبل الحق . وأى وصف يكون به الإنسان أكمل وأجمل وأحسن من بقية الخلق ، من أن يوصف بالعارف بالله . والركوع والسجود عبارتان عن امتثاله لما يرد على قلبه من قبل الله ، ومستنده فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « استفت قلبك وإن افتاك الناس وافتوك » . وقد ثبت عن بعض المشايخ العارفين ، والعلماء بالله المحققين ،

أنهم كانوا يقولون أنتم أخذتم العلم من الأوراق ، ونحن أخذناه عن الخلاق . ومنهم من كان يقول حدثني قلبي عن ربي ؛ كسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

اعلم أن القلب إذا تطهر من حب الأغيار ، وأقبل على الله بوصف العجز والذل والانكسار ، وجد الله عنده حاضراً ، فوقاه حسابه أى ما كان يظنه فيه ، قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن الله « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » . وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ومن كان الحق عنده ومعه ضرورة أن يستغنى بالتلقى عنه عما فى بطون الصحف والأوراق ، فعلى هذا يكون معنى البيت فتصبى أى فهيكلى لحسى أى لما يرد على قلبى من الأوامر والنواهى من قبل الله تعالى ، إما بواسطة ملك الإلهام ، أو من غير واسطة ، ساجد أى ممتثل مطيع لهما إذا وردا عليه من قبل ذى الجلال أو سرت له نسيمى أى واردات من قبل قلبى المفاضة عليه من حضرة الحق .

اعلم يا أخى أن الوارد الإلهى أول ما يرد على الروح ، لأنها هى المدبرة للجسم باتفاق المحققين من علماء الظاهر والباطن . والروح تلقيه إلى القلب لأنه ملك مدينة الجسم المطاع فيهـــا ، ودليله قوله عليه الصلاة والسلام : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » . فإن كان ما ألقاه الروح إليه فيه أمر بفعل طاعة أو ترك معصية ، وتحرك القلب فى تحصيل الأولى ، أو فى ترك الثانية بحركته المناسبة ، به تحركت الأعضاء وتحرك الجسم جميعه لحركته . ومن ثمة قالوا الظاهر عنوان الباطن .

فإذا علمت ذلك وظهر لك أن الولى يأخذ عن الله فينبغى لك بعد ذلك أن لا تعترض على أحد منهم إذا رأيته فعل شيئاً مخالفاً فى ظاهر الأمر للشريعة . فإن عرض عليك وارد الاعتراض فتأمل فى خرق الخضر للسفينة

لما وجده سيدنا موسى «وافقاً للشريعة كيف سلم له بعد اعتراضه عليه . ولا يظهر ذلك إلا بعد التأمل ، فإنك إذا تأملت فيه تجده ما خرقها إلا بوارد « وعلمناه من لدنا علما » فالولى لا يخرج عن حد الشريعة البتة . وولى جاهل بالشريعة محال لقوله عليه السلام « ما اتخذ الله من ولى جاهل» ولو اتخذه لعلمه . وتأمل فى قول سيدنا ومولانا العارف الربانى سيدى عبد القادر الجيلانى « عثر الحلاج ولم يجد فى زمانه من يأخذ بيده ولو أدركته لأخذت بيده » أى لنصرته بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة .

وكان السيد الشهير والولى الكبير سيدى مهدى واصل يسجد إلى كل جهة وهذا أمر غير مشروع ومناف لولايته ، مع أنه ولى ابن ولى ابن نبى ، وما رأيت ولا سمعت أحدا قط يطعن فى ولايته فعلمنا من هذا أنه كلما ورد على جنابه وارد « فأينما تولوا فثم وجه الله » سجد لا للجهة بل سجد لله . وإشارة صلاة من جهل القبلة وهو مسافر بغلبة الظن وعدم قضائها المفيد للصحة بعد ظهور الخطأ يفيد الإصابة لمن كان ذا فكر سليم وخلق كريم ، لا يعجل بالحكم على عبد بالجهل إلا بعد ما يعرض أفعاله على الكتاب والسنة وعلماء الشريعة المحمدية من أهل الظاهر والباطن ، لئلا يقع فى ورطة « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . ينبذ به من شاهق افترائه فى قليب البوار ، ولكى لا يدنو بذلك من دائرة الحرمان ، المفهوم من مضمون خبر « استعينوا على أموركم بالكتمان » . فالتأنى من أخلاق الرحمن ، والعجلة من صفات الشيطان .

واعلم أن الناظم ما عبر بالغصن عن ذاته إلا على اصطلاح أهل النظم لأنهم يعبرون عن ذات الشخص بالبان وبالغصن ، ويريدون بذلك اعتدال قامته ، ويعبرون كذلك عن وجهه بالبدر ، ويرون بذلك ضياءه كما قال الشاعر :

خطر الغصن فى الرياض فطرفى مذ تثنى عليه أصبح باكى

وتبدى فقلت سبحان من قد أطلع البدر فوق غصن الأراك

وكونه عبر عن الطاعة بالركوع والسجود ، لأنهما دليلان عليها . وقد استعمل بعض الأعجام ذلك بين أيادى ملوكهم وجعلوا ذلك عنوانا على الطاعة كما شاهدته حين كنت بأرض سنار . وأما عبارته عن الواردات الربانية بالحسن فإنها ضرورية لأنه لا شيء من المحسنات للشخص أحسن منها ، لأنها من الصفات المختصة بالأنبياء والرسل ، وإنما اتصف بها الأولياء لكونها مفاضة عليهم من الرسل بطريق الإرث ، قال تعالى « يختص برحمته من يشاء » ، وهذا كلام لا يذوق معناه إلا من كان فى ميزانهم فى الذوق . قال ابن بنت ميلق رحمه الله :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن داره غدا بالروح يشريه

وأما قول الناظم رضى الله عنه فى الشطر الأخير « وكلى نحو ذاتى راكع » أى وكلى باعتبار ما فى ذاتى من أفراد الحواس الظاهرة والباطنة ، نحو ما أفيض على ذاتى من الأوامر والنواهى من قبل الله تعالى طائع قولى ، ما أفيض على ذاتى أى على قلبى وهو من باب ذكر المحل وإرادة الحال ، لأن الذات محل للقلب ، والوارد لا يرد إلا عليه وكل ما فيها من العوالم مطيع للوارد الذى يرد عليه من قبل الروح ، فافهم ذلك . وفى البيت إشارة إلى أن لكل جزء فى ذاته طاعة تختص به ، فإذا أمر القلب فردا منها بإقامة ناموس الشريعة قام به ، وقد بينت طاعة كل جزء فى الإنسان فى أول هذا الكتاب فتأملها فى محلها .

واعلم أن الناظم ما ذكر لفظة كل وسكت عن بيان أفراده إلا تحويلا على الشارح ، وقد امتثلت الحوالة وبينت ذلك . وها أنا أذكر لك شيئاً منها زيادة على ما صدرته فى أول الكتاب .

اعلم أن من أجزاء الكل سمعه وبصره ، ويده ولسانه وروحه ورجله وفؤاده وسره ، فكل جزء من هذه الأجزاء رهين تحت ما يأمر به القلب ،

والقلب رهين تحت ما تأمره الروح به ، والروح رهينة تحت ما يفاض عليها من قبل الرحمن ، إما بواسطة ملك الالهام أو لأمثال ذلك لو جاءه الأمر من الحق بلا واسطة ، أو بواسطة الملك الموكل بالإلهام بأن يتوجه من وطنه إلى موضع آخر يقيم به ، فإنه يمتثل الأمر فى الحال ويتوجه إلى الموضع الذى أمر بالتوجه إليه ويترك أولاده وأهله ولا يتأخر عنه درجة واحدة، ولا يراجع فى ذلك لما فيه من إساءة الأدب ، أو كان متوجهاً إلى موضع فى أمر مهم لجاءه الأمر وهو فى أثناء الطريق بأن يرجع أو أن يقيم فى موضع آخر فعل ، وترك ذلك الأمر المهم ولو كان فى طاعة .

كما وقع لبعض الصحابة حين بعثهم النبى إلى بنى قريظة وقال « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » فلما كادت الشمس أن تغرب صلى بعضهم وقال ما أراد النبى بقوله ذلك إلا العجلة ، وقال بعضهم ما نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله ، فلما قدموا عليه وأخبروه بخبرهم لم يعنف أحداً منهم إشارة منه إلى صواب فعل كل منهما ، لكون أن الأول تأدب مع الحق ، والثانى تأدب مع رسوله .

والأدب مع الرسول هو عين الأدب مع الحق لكونه أطاعه من حيث ما أمره به بصريح قوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الآية والله أعلم . ونظير ذلك ما وقع لبعض الصالحين ، مر عليه إنسان فوجده فى طريق مكة تحت شجرة ، فجاء إليه وسلم عليه وجلس عنده ثم سأله كم لك تحت هذه الشجرة ؟ فقال له اثنتى عشر سنة ، وأخبره أنه جاء من بلده بقصد الحج فلما وصل إلى موضعه الذى هو فيه أمر بأن يقيم هناك فجلس ، وقس على ذلك فى بقية أفراده كله ، فإن كل فرد منه تحت إشارة افعل أو لا تفعل. ومن كان هذا حاله مع الحق فهو الذى ليس له اختيار مع ربه بل هو دائر مع مراد الله تعالى حيث أداره .

قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى العبد مع ربه كالظل مع صاحبه ،

لا ينحجب عنه ، ولا يعترض عليه ، لأن الظل إذا مددته على مزبلة امتد وإن مددته على بساط من حرير امتد ، لا يفرح بهذا ولا يحزن لهذا ، ولا يسكن إلا بسكون صاحبه ، ولا يتحرك إلا بتحريكه الخاص انتهى ، وقال سيدى محمد البكرى رضى الله عنه .

أينما دارت الزجاجه درنا ⁂ يحسب الجاهلون أنا سكرنا

فمن أجل ذلك تجد بعض العارفين تارة يختلي بنفسه ويجلس مشتغلا بالتنسك . وتارة يخرج إلى ملاقاة الناس ويباسطهم، وتارة يمنع من الدخول إليه إذا جاءه أحد من الحكام أو غيرهم ، وتارة يبعث إليهم وينادمهم ويكرمهم ، وهذا مشاهد وقوعه من كثير من الأولياء فلا ينبغى لمن يرده شيخ عن الاجتماع به أن يتغير عليه ، بل يشهد أن فى ذلك خيراً له ، ويستدل عليه بقوله تعالى « فإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » ، ورأيت مرة جاء إنسان ثلاث مرات من الحكام إلى الشيخ ليزوره وفى كل مرة يمنعه من الدخول عليه . وفى المرة الرابعة بعث إليه وجلس معه وباسطه وأكرمه . ورأيته مرة بعث لإنسان وأضافه وأكرمه وقال له أمرنى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعلنا من هذا الأمر أن الولى تحت الإشارة لا يتحرك ولا يسكن إلا بها ، وهذا معنى البيت وهو قوله أينما دارت الزجاجة درنا إلى آخر البيت ، والحاصل أن أحوالهم لا يسعنا فيها إلا التسليم لهم ، ولا يعرف أحوالهم إلا من طالع فى كتبهم ، فينبغى للعاقل أن يكثر من المطالعة فى كتب التصوف لينكشف له بها عن مقاصدهم . ويسلم من الحيرة فى أفعالهم ويطمئن بها قلبه ، وفقنا الله وإياك لما يحبه ويرضاه وعملك بالحجة سواء السبيل إلى حاله قال رحمه الله :

وَوَجْهِى بِجَبلِ جَلَّ مُشْتَهِقِنة ⁂ وَكَأْنِى يُمْضِي الجَوَانِحِ وَالسَّخِ

أي الوجه الذي وجهت إليه وجه طلبي ، جميل ، استدلالي به ، كائن على توحيده . وليس الوجه الواحد إلا وجود الحق القائم به كل موجود ، جل منشيه أي تنزه مبرزه بالاستدلال العقلي والنقلي والذوق لأهل الكمال ، ومظهره بنور الكشف لمن أراد قربه بعد ما كان محجوبا عنه برؤية الأغيار ، فتنه له فضل به عنها ، فياحبذا ذاك الضلال ، وغاب فيه عن رؤية حسن السوى المنعوت بالزوال ، والاضمحلال . حتى لقب هو ومن تبعه في غيبته ، من عقلاء الرجال عند أهل الكمال . وبأهل الفتنة عند أهل الضلال ، ومنعوا الناس عن مجالستهم وعن التلقي عنهم وزعموا أنهم قد زاغوا في استدلالهم على وحـــدة الوجود وسيظهر الحق صدقهم إنشاء الله تعالى في المآل .

أعلم يا أخي أن هذه الطائفة القائلين بوحدة الوجود استدلالهم عليها من الكتاب والسنة على مافهموه بفراسة الإيمان ، وتعليم الله لهم الدال عليه قوله تعالى « واتقوا الله » « ويعلمكم الله » « والله بكل شيء عليم » وليس علم من يأخذ عن الخالق كعلم من يأخذ عن المخلوق ، أما دليلهم من الكتاب قوله تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله » أي وجود الله لا وجود غيره ، وثم آيات أخر تدل على وحدة الوجود فراجعها في كتبهم .

والدليل الثاني المأخوذ من السنة قوله عليه الصلاة والسلام « لو دلي حبل من السماء ماوقع إلا على الله » ، وقوله عليه والسلام « اتق الله حيث كنت تجده تجاهك » ، وهذا الحديث متضمن تعليم من أراد أن يشهد الوجود المطلق ، لأنه متضمن لوجود شرط ومشروط ، فالشرط لمن أراد أن يشهد ذلك التقوى ، والمشروط هو وجدانه للحق حيثما توجه ، فمن أقام جدار التقوى عثر على كنز الوجود المطلق ، ووافق في الشهود والاعتقاد القائلين بتوحيد الوجود ، ومن فقد الشرط ضل عن المشروط في مهامه توقف آرائه الفاقدة لنور التقوى ، وبقي في ظلمتها ما لم ينقذه الله منها بمحض

فضله ، وآلائه ومن الدليل الثانى على وحدة الوجود قوله عليه الصلاة والسلام « كان الله ولا شىء معه » أى موجود ، ثم إن العلماء الراسخين فى العلم ، لما خافوا أن يبادر إلى فهم أحد من العوام أنه قد كان ذلك قبل وجود الأشياء أزالوا الشبهة عنه . فقالوا : وهو الآن على ما عليه كان ، أى ليس له شريك فى الوجود الآن كما كان فى الأزل عليه وما تراه من الموجودات المفيدة فهى مظاهر الوجود المطلق .

واعلم أنه مما من الله به على بعض أصحاب شيخنا أنه أراه الحق كشفا ، عدم الأشياء ووحدة الوجود ، منهم العلامة الشيخ الصالح سيدى ابراهيم الغلام ، المدرس بمسجد خير الأنام . قال خرجت يوما إلى السوق لأشترى لحما فلما وصلت قريبا من حانوت الجزار فإذا أنا لم أر الجزار ولا نفس ولا خلقا ولا أرضا ولا سماء ، بل رأيت الوجود بأسره نوراً ، ومكث معى هذا المشهد مقدار درجتين فلكيتين ، ثم رجع على حالى ، فرأيت كل شىء باقياً على حاله .

وقول الناظم « وقلبى به مضنى الجوانح والع » أى وقلبى به أى بوجود الحق لما رآه منبسطا على الوجود ولا شىء منه إلا وهو به قائم وموجود ، أصبح مضنى الجوانح ، أى عليل الجوارح الباطنة من شدة الحب له ووالع بمشاهدته لا يلتفت إلى سواه ولا يركن فى تقلباته إلى ما عداه . ويحتمل أيضاً أن يكون معنى صدر البيت وهو قوله « وجهى جميل » أى ودليلى على وحدانية الحق تعالى جميل لأنه مأخوذ من الكتاب والسنة . جل منشيه أى تنزه عن النقائص مبرزة على لسانى فتنة للمريدين حتى قبلوه منى وافتتنوا به عن رؤية أدلتهم العقلية .

ويحتمل أيضاً أن يكون معنى « وقلبى إلى آخر البيت » أى وقلبى بدليل الذى استدليت به على كمال الله ودليت به من تبعنى من أخذه عنى جميل أى حسن ، لأنه من كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن أجل ذلك لم

يزل مضنى الجوانح أى سقيم الأطراف من شدة حبه له . ووالع أى ومتولع بالاستماع له على مر الأحقاب ، لأنه خطاب وارد عليه من قبل الأحباب ، فهو لا يهوى سواه ، ولا يصغى إلى دليل الحوادث ولا يتمناه . فعلى هذا ظهر أن الأستاذ ليس مشغولا إلا بسماع كلام رسوله ينشد بلسان حاله . بين أراك الحما وظلاله .

يحن لقول العامرية مسمعى ويتبعنى قلبى إذا ما سمعته
فلله ما أحلاه من منطق على محاسنها قد دلنى مذ صفيته

ويحتمل أن يكون معنى وقلبى أى تلامذتى ، لأنهم فى الحقيقة قلبه ، لكونه أخرجهم من صفات البشرية إلى الصفات الروحانية ، وقلب أحوالهم من الجهل إلى صفة العلم ، والقلب هو التغير والخروج من حالة إلى حالة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فيكون المعنى وقلبى به مضنى الجوانح إلى آخر البيت أى وتلامذتى الذين قلبت أعيانهم من صفة الجهل إلى صفة العلم ، ومن صفة الغفلة إلى صفة الحضور مع الحق . بدليلى الذى به استدليت على وحدانيته مضنى أى سقيم الجوارح بحبه ، لكونه كان واسطة له فى معرفة الله تعالى ووالع باستماعه ، والاستدلال به على وحدانيته ثم قال رضى الله عنه وأرضاه ، وأسكنه من الرفيق الأعلى أعلاه :

وكُلّي يريدُ الوصْلَ مِنّي وها أنا
قريبٌ ولكن دُونَ وصْلي مَوانِعُ

قوله « وكلى » باعتبار أفراد نوعه الإنسانى ، لأن لفظ انسان كلى يشمل من شاركه فيه ، أو باعتبار من شاركه فى النشأة العنصرية من أهل التكليف ليدخل الجان لأن الجان كذلك مكلفون ومخلوقون من عنصر النار الذى هو جزء من العنصر الإنسانى ، فإذا علمت ذلك عرفت إنما أراد بقوله « وكلى » باعتبار من شاركه فى النشأة العنصرية وقوله « يريد الوصل منى » أى لما بلغه عنى بأنى مرشد من ضل بسلوكه فى طريق الغفلة عنه لعدم

معرفته بالجادة الموصلة إليه والمقربة منه ، وهما أنا قريب لمن يصدق منهم في طلب الطرق الموصلة إلى الحق وحاضر لديه ولكن مع قربي هذا منهم دون وصلي موانع وهي التي حجبتهم حتى لم يعلموا بها ولم يتفطنوا لها لشدة خفائها عنهم .

فأول مانع منها حجاب المعاصرة ورؤية نفوسهم بالمعرفة بأحوال الرجال .

والثاني قناعتهم بما لديهم من العلوم وبما تعطيهم أفهامهم من المعرفة القاصرة على ظواهر الأحوال ،الثالث رضاهم بذلك ووقوفهم معها عن طلب الزيادة في الكمال ، الرابع رياسة العلم وقناعة أهل النسب بالنسب وحب الجاه والموانع كثيرة وقد اشرأبت بها النفوس والخروج منها صعب عليها ولا تقبله لما فيه من الهضم لها مع أن ترك ذلك لابد منه لمن أراد منهم أن يسلك طريق القوم لأنها طريقة ذل وانكسار ، وتبدد حلاس وجلاس وانفاس واظهار وعجز وافتقار .

واعلم أن كل مانع من هذه الموانع يكون على حسب حال الرجل فمنهم من تمنعه رياسته ، ومنهم من يمنعه نسبه ، ومنهم من يمنعه رضاه عن نفسه ، ومنهم من يمنعه جاهه ، ومنهم من يمنعه علمه ، كما شاهدت ذلك حين قدم المدينة الشيخ الزاهد المتفق على صلاحه وورعه العلامة مولانا الشيخ ابراهيم خليل الزبيدى نفعنا الله به ومولانا السيد الجليل ذو القدر المنيف العلامة مولانا السيد عبد الله شريف ، وقصتهما مشهورة مع الشيخ وهو أن الشيخ ابراهيم دخل على الأستاذ رضى الله عنه ، وطلب منه أن يلقنه الطريق ، وأن يفيض عليه بنبذة من علم الوحدة ، فلقنه الذكر ثم شرط عليه أنه إذا أراد علم الوحدة بأن يلفظ خلف ظهره جميع علومه وأدلته العقلية والنقلية ، وأن يقبل ما يلقيه إليه ، فقبل الشرط .

ثم أن الشيخ ألقى عليه طرفا منها لحين سمع ذلك منه ذاقه وسرت نشأته فى جميع أعضائه . ثم أن مولانا الشيخ إبراهيم من شفقته على مولانا السيد عبد الله شريف أحب أن يكون من أهل العلم بالله . وأن يشرب من الكأس الذى منه الأستاذ سقاه . فتكلم معه فى ذلك فقال له : ذلك ما كنا نبغى ، فجاء الشيخ إبراهيم يوما ومعه مولانا السيد عبد الله فدخل الشيخ إبراهيم على الأستاذ بعد ما استأذن فى الدخول عليه وجلس مولانا السيد عبد الله فى الزاوية وطلب مولانا الشيخ إبراهيم من الأستاذ أن يتفضل على صاحبه بما أفاض به عليه من العلم بالله ، فقال له الشيخ دعه يكفيه ماليه من علم الشريعة ، فألح على الشيخ فلما رأى شدة حرصه قال له إذا يكون معى على ما صار بينى وبينك من الشرط ، قال كذلك فخرج مولانا الشيخ إبراهيم وذكر لمولانا السيد عبد الله الشرط فقبله ، ودخلا معا على الأستاذ ولقن الذكر مولانا السيد عبد الله .

فلما ذاكره الشيخ فى نبذة من كلام الصوفية وجده غير موافق لرأيه وعجل بنقض ذلك بما لديه من الأدلة فلما علم توقفه أقره على ما عنده من الأدلة وأثنى عليه وانصرف المجلس . ثم إن الشيخ إبراهيم نفعنا الله به صار له بعد ذلك شأن عظيم وأقبلت عليه وجوه الرجال لما ظهرت عليه أنوار الولاية ولكن كانت مدته يسيرة وتوفى ببلده ، ودفن عند باب قبة العارف الربانى سيدى إسماعيل الجبرتى وقبره مشهور يزار .

وسمعت من بعض الناس من أهل زبيد حين توجهت إليها يقولون : الشيخ إبراهيم وزير سيدى إسماعيل الجبرتى رضى الله عنهما ، فإن قلت من أين للشيخ أن يدعى بأن كل إنسان يريد القرب منه ، والحالة أنا نرى كثيراً من الناس من يتباعد عنه ويأمر الغير بأن لا يأتيه ؟ فالجواب أن ما ادعاه حق من أن كل من رآه أو سمع به يتمنى القرب منه ويعتقد ولايته ويود لو أنه تعرف به ، بدليل ما هو مشاع بين الناس من عرف الله عرفه كل شيء حتى

الحيتان فى البحر ومن تراه جاحداً ولايته فهو فى نفس الأمر مقر بها وتأمل فى قريش كيف كانوا يعتقدون صدق النبى صلى الله عليه وسلم وأمانته وكانوا يلقبونه بالأمين ، ومن لازم التصديق الإيمان بما جاء به .

ومن ثمة أخبر الله بحقيقة بواطنهم فقال عز من قائل « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » وإنما كان جحودهم لنبوته حسداً منهم كما قال تعالى « كفاراً حسداً من عند أنفسهم » ويشهد بحسدهم له قوله تعالى حكاية عنهم « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

واعلم أن الأستاذ لما كان وارثا محمديا لابد أن تكون له أسوة به من طريق الإرث ، فكما أن قريشا منعهم عن الإيمان برسول الله الحسد وحب الرياسة كأبى جهل وغيره من رؤساء قريش فكذلك الشيخ :

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

[فَقَلْبِى بِحُسْنِى مُغْرَمٌ ومُتَيَّمٌ وطَرفى فى رَوْضَاتِ حُسْنِى راتِعُ

وما قُلْتُ حتى صار سَمْعى وناظِرى

وكفّى لسانى ساعِدٌ لى أصابعُ]

. . . . (١)

. . . .

. . . .

---

(١) هنا نقص بأوراق المخطوطة يقابل تكملة شرح البيت السابق وشرح البيتين بين القوسين .

. . . .

حتى صار هو الذى ينطق بها على لسانه ليعذره كل منكر عليه فيها ويعلم أنها واردات إلهية أوردها الله على قلبه وأجراها منه على لسانه .

وأما من ذاق منهم من شراب الصوفية وعلم بمقاصدهم فلا يحتاج إلى دليل يلتمسه من فحوى كلام الناظم حتى يسلم له ، بل بمجرد مايسمعه يزداد إيمانا على إيمانه لأنه قد ذاق وكل من ذاق عرف ومن عرف لايشتبه عليه ماعرفه بنظائره المزلفة وما أتى الناظم بالدليل الآتى الذى أورده بمعنى الحديث إلا ليصحح به أقوال الأولياء التى تصدر منهم على وجه الشطح كأمثال هذه الكلمات الدالة على صحة أحوالهم ويبين بها أنها من الله حقيقة كان صدورها لمن يظن أنها منهم . . . .

ومعنى قول الناظم « وماقلت حتى صار سمعى وناظرى » إلى آخر ماقاله أى اعلم أيها المستمع أنى ماقلت هذه الكلمات إلا بعد ماتخلقت بأخلاق الرحمن بتقربى إليه بالنوافل التى بها يصل العبد إلى مقام « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » وتبديل جميع صفاتى بصفات سيدى ومولاى كما ورد فى الحديث الذى سأذكره لك بمعناه لتستدل به على أن جميع أقوالى وأحوالى إنما هى صادرة من الله ، هذا إذا لم تحملنى على التحد بالنعم وأما إذا حملتنى على ذلك فلا تحتاج إلى دليل .

فتأمل يا أخى فى كلام الناظم تجده يشير إلى أن الولى إذا وصل إلى مقام يصير الحق فيه سمعه الذى يسمع به ولسانه الذى ينطق به ، فإنه لاينسب إلى نفسه فعلا ما مطلقا بل يرى نفسه آلة للفعل ، وإن تكلم بشىء إنما يكون بلسان الحق فى حال فنائه عن نفسه ، أو بإذن من المتكلم حقيقة أو بأمر ، أو أنه يتكلم فى حالة الصحو أعنى صحوه بالله معربا عما أمره الله به عليه

لغرض صحيح لا لحظ نفسه ، والغرض هو لئلا تنفر تلامذته عنه لأنهم لو تفرقوا بعد عنهم طريق الحق وحصل التنافر بينهم ، قال تعالى : «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين» وكلام الشيخ بمثل هذه الشطحات المعربة بعلو مقامه وتحدثه بما أنعم الله عليه إذا سمعوه لابد أن يكون سببا لهم على صبرهم عليه وملازمتهم له بل يكون كذلك سببا فى زيادة حبهم له وبحبهم هذا يصلون إلى حب الله تعالى . طلبت من الأستاذ مرة أن يدخلنى الخلوة فقال لى أى شىء تريد بدخولك فيها إن أردت أن تصل بها إلى حب الله أحبنى أنت تصل إلى محبة الله .

واعلم يا أخى أن تزكية الناظم لنفسه بهذه القصيدة له وجه صحيح فى الشرع ذكر سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه قال « سألت أخى أفضل الدين رضى الله عنه عن تزكية الإنسان نفسه هل ذلك يدخل فى شهادة الزور لجهله بعاقبة أمره أم لا ؟ فقال تزكية الإنسان نفسه سم قاتل مطفىء لنور علمه ، قلت فإن وقعت من إنسان لغرض صحيح فقال رضى الله عنه لا بأس حينئذ فقد زكت الملائكة نفسها عند ربها بقولهم «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» وقال عيسى عليه السلام « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، ثم قال وكذلك الحكم فى تزكية العلماء بالله العارفين نفوسهم عند تلاميذهم إنما يقصدون بذلك حثهم إليه وعدم تفرقتهم فيضيع خاطرهم وتطول الطريق عليهم لاسيما إذا كانوا محققين فى ذلك ، انتهى كلامه رضى الله عنه .

ومما يؤيد أيضاً صحة ما قاله الناظم من الشطحات فى هذه القصيدة ماذكره العارف بالله سيدى عبد الله الميرغنى فى رسالته المسماة « بالأسئلة النفسية والأجوبة القدسية » بقوله : سألنى ـ قائلا ـ تبين مما قرر أن الشطح والتبجح فيهما من أسرار وتفسح ، وأنوار وتوضح ، فما وجه القائل بعدم التعويل عليهما مع مافيهما من الفضائل ؟ فقلت عدم التعويل ، نظراً إلى الغالب الجزيل ، وبالنظر إلى مجرد ذلك ، من غير اقتران بمقاصد منالك »

أما باقترانها فقد تدور عليها الأحكام الستة الشرعية كلها فيكون فرضاً إذا أديا لإقامة فرض ، كنصيحة وتحذير ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « أنا النبي لا كذب » وواجباً لحدثنا بالنعمة لأمر « وأما بنعمة ربك فحدث » ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « أنا سيد ولد آدم ولا فخر أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » ونحوه ، وسنة للاقتداء به صلى الله عليه وسلم . ومنه قول على رضى الله عنه « أنا نقطة باء بسم الله الرحمن الرحيم وأنا جنب الله الذى فرطتم فيه وأنا العرش وأنا الكرسى وأنا السموات والأرضون » وكان ذلك فى خطبة خطبها ، وقال أيضاً « أنا القرآن والسبع المثانى ، وروح الروح لا روح الأوان ، فؤادى عند مشهودى مقيم ، يشاهده وعندكم لسانى » ومستحبا لحث غيره على الاقتداء به وللتنشيط . ولذا ورد فى الحديث « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » وإذا علمت هذا أن الشطح كثير من العارفين وتبجحهم ومدحهم أنفسهم ودعواهم غير خارج عن هذه الأقسام ، ونفى ثبوت ذلك عنهم غير صحيح ، بل الثابت يجل عن الحصر ويعظم عن عدد القطر انتهى كلامه رحمه الله فافهم المقصد كى ترشد ثم قال رضى الله عنه :

فَبِاللهِ لِأَنِّى قُلْتُ قَوْلاً مُحَقَّقاً تَضَمَّنَ مَعْنًى وَاحِدَ القَصْدِ جَامِعُ

وهذا البيت تأكيد لمعنى البيت الذى قبله وتوطئة للاستشهاد على صحة بقائه بالله ، وفنائه عن كل ماسواه ، لسياقه لمعنى الحديث الآتى ذكره . وقول الناظم « فبالله » يشهد له بفنائه حالة كونه ناطقا بهذه الشطحات ، ومما يؤيد صحة كونه قال « بالله » ماقاله عليه الصلاة والسلام « أعوذ بك منك » أى أعوذ بك لابى منك إذ لاموجود ولا فاعل فى الوجود غيرك . وقوله رضى الله عنه « قلت قولا محققا » ونكر قولا إشارة إلى تعظيم القول وقوله محققا أى عند أهل التحقيق بأنه صادر من الحق . وأهل التحقيق هم الذين لا يشهدون إلا الحق بالحق ، فمن أنكر عليه فى كلامه فليسأل عنه أهل الحق لأن الألفاظ لها أرواح ، فمن نظر إلى ظاهر الألفاظ فهو محجوب بكثافتها لكونه كثيف والكثيف لايشهد إلا نظيره .

وأما من صار روحانيا بالرياضات فهو لا يشهد إلا روحانية الألفاظ لمناسبته بها فيسألها عن ماهى متضمنه له من الأسرار والمعانى فتخبره بذلك كله وأهل الحق هم الروحانيون ، فمن ألهمه الله من المنكرين على الصوفية فى كلامهم إشكالا وسأل أهل الحق عن صحته أرشدوه إلى فهم معنى كلامهم فلا يلتبس عليه بعد ذلك شيء منه . وأما قوله رضى الله عنه « تضمن معنى واحد القصد جامع » يشير أن كلامه جامع لعلوم شتى ، كالعلم بوحدة الأفعال ، ووحدة الأسماء . ووحدة الصفات ، والعلم بآداب السلوك ، والمعرفة به ، والقصد بذكره لهذه العلوم كلها شيء واحد وهو ليستدل بجميعها على أن لا حى ولا فاعل ولا موجود فى الوجود حقيقة إلا الله ، وما سواه باطل فى نفسه حق ، لكونه قائماً بوجود الحق ، ويحتمل أن يكون معنى «تضمن معنى واحد القصد جامع» أي حوى كلامى هذا مع كونه جامعاً لعلوم شتى معنى واحدا تشير إليه تلك العلوم وذلك المعنى هو قصد كل عارف من الوجود إذا نظر إليه أن يشهده وهو توحيده المشار إليه طلبه صلى الله عليه وسلم من ربه لذلك وهو قوله عليه السلام « أرنى الأشياء على ماهى عليه » فالضمير من عليه يعود إلى مفرد وهو وجود الحق السارى فى جميعها المشار إليه بقول الناظم رضى الله عنه « واحد القصد جامع » أى جامع لمظاهر بقيامها به مع كونه واحدا وهو القصد من كل مؤمن أن يعرفه بصريح قوله تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أى ليعرفونى ، فافهم ذلك .

ويحتمل أن يكون معناه وهو قوله « واحد القصد جامع » أى قصدت بإظهار علومى فى هذه القصيدة الجامعة لعلوم الطريق معنى واحد وهو وجه الله لا بغية أن أبرهن عن نفسى بأنى عالم ، ولا راج بذلك جزاء من أحد ، ولا قصدت بذلك أن يكافئنى الحق بها ، وكيف لى أن انتظر المكافأة وقد ذكرت أنها صادرة منه ، وهو الذى أجراها على لسانى ، فافهم مقصد الأستاذ تهد إلى طريق الرشاد .

وهاك حكاية أسوقها لك بها ترشد إنشاء الله إلى صحة قول الناظم أنه ما نطق بهذه الشطحات إلا حالة كونه فانيا بشهود الحق عن نفسه ، يحكى أن رجلا من العارفين كان يتكلم فى بعض الأحيان بالشطح ويذكر ألفاظاً توجب الإنكار عليه فأخبره تلاميذه بما وقع منه فقال لهم كيف لى أن أقول مثل هذا الكلام المخالف لظاهر الشريعة حاشاً أن يصدر منى ، فقالوا بلى ياسيدى قد قلت ذلك مرارا فقال لهم إذا سمعتمونى قلت ذلك فاضربونى بالسيوف واجروا الحد على ، ومن [لا] يفعل منكم ما أمرته به فليس هو منى ولا أنا منه ، ثم بعد مدة وقع منه الشطح ، وتكلم فيه بكلمات تشمأز منها النفس ، فأخذوا السيوف وضربوه ضربة رجل واحد فلم تؤثر فيه فتعجبوا من ذلك فلما أفاق أخبروه بالقصة فقال لهم سبحان الله ظهر لكم أنى ما تكلمت ، وانما الحق أجرى ذلك على لسانى ، إذلو تكلمت أنا لأثرت السيوف ونفذ الحد ، ولكنى لما كنت بريئاً من نسبة الكلام إلى نجانى الله منها .

فانظر ياأخى فى هذه القصة العجيبة وتأملها بنظر الانصاف واحكم فيها بما أراك الله ، والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ثم قال رضى الله عنه :

فَقَدْ جَاءَ عَنْ طَهَ حديثٌ مقَدَّسٌ
عَنِ الحقِّ يَرْويه النَّبِيُّ المتَوَاضِعُ

الطاء إشارة إلى طهارته عن كل مايخل بكماله ، والهاء إشارة إلى تنزيه جماله عن الشبيه له ، وفى أقواله وافعاله وأحواله ، والألف الملاصقة للطاء إشارة إلى استقامته على شهود وحدة الذات واشارة إلى أنه خير من تقدم وخير من تأخر لأنها متوسطة بين طاء الطهارة المتقدمة وهاء التنزيه المتأخرة قال عليه الصلاة والسلام « خير الأمور الوسط » ، وهذه الإشارة المذكورة أفهمتنا بأنه خير الأولين والآخرين بعد قوله عليه الصلاة والسلام « وأنا خير الأولين والآخرين » الحديث .

ويحتمل أن تكون الطاء إشارة إلى طهارة أخلاقه عن كل مايخل بكمالها

ويشهد لذلك شهادة الحق له بكمالها في قوله تعالى « إنك لعلى خلق عظيم » . ويحتمل أن تكون الطاء إشارة إلى طيب ذاته وصفاته ومن ثمة كان مقبول الشفاعة يوم القيامة عند الله دون غيره ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام « إن الله طيب لايقبل إلا طيباً » وليس أحد أطيب منه عند الله فى ذلك اليوم وكما أنه أطيب الخلق عند الله من قبل خلق الأشياء ، والهاء إشارة إلى تنزيه مانسبته إليه قريش من السحر وغيره ، أو إنها إشارة إلى تنزه ذاته وصفاته فلا يشاركه فيهما أحد فى الكمال والجمال ، ومن ثمة لم يكن لأحد الإحاطة بكنه كماله فبلغ معرفة الخلق فيه كما قال أستاذنا العارف بالله سيدى مشيخ باعبود العلوى رضي الله عنه « فبلغ العلم فيه أنه أحد ، وأنه خير خلق الله كلهم » .

وقوله رضى الله عنه « حديث مقدس » المقدس هو الوارد على قلبه من حضرة القدس من غير واسطة جبريل الملك الموكل بالوحى ، ومعنى حضرة القدس أى حضرة الحق لأنه من أسمائه قدوس ، وقوله « عن الحق » أى حديث حق صدر من الحق إلى الحق من غير واسطة الخلق وقولى إلى الحق مستنبط من قوله تعالى « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » أى قد جاء محمد مرسول إليكم من ربكم فمن اهتدى به إلى التوحيد الحق فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

ثم قال « يرويه النبي المتواضع » أى يخبرنا به عن الله تعالى المنبوء ولا طين ولا ماء ولا أرض ولا سماء المتواضع من حين كان نورا فى عالم الغيب لله تعالى فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر . والمتواضع حين برز بنشأته العنصرية فى عالم الشهادة مع إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الشاهد بتواضعه لهم قوله عليه الصلاة والسلام لاتفضلونى على أخى يونس بن متى بل والمتواضع مع جميع عباد الله الذين آمنوا به واتبعوا النور الذى أنزل معه لما ثبت أنه كان صلى الله عليه وسلم يمشى خلف أصحابه ويقول لهم خلوا

ظهرى للملائكة الكرام وكما ورد أنه كان يخدم أهله ويرقع ثوبه ويخرز نعله ويمشى مع الأرملة والخدام ويجلس مع المساكين ويجيب من دعاه منهم ويقول «اللهم أحينى مسكيناً وامتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » سأل شخص الأستاذ رضى الله عنه عن صحة هذا الحديث فقال له فى الجواب سألت النبى صلى الله عليه وسلم عنه فقال هو عنى وأنت من المساكين يامحمد ثم قال رضى الله عنه :

لَهُ كُنْتُ سَمْعاً نَاظِراً أرْجلاً يَداً فَهِى نَاظِرٌ بِى نَاطِقٌ بِى سَامِعٌ

الضمير من «له» عائد إلى العبد المشار إليه فى حديث «مازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به ويده التى يبطش بها ورجله الذى يمشى بها » وهذا الحديث شاهد بحال الناظم وحال كل من كان فى رتبته من كل الأولياء فى اسناد حركاتهم وسكناتهم حالا وقالا لله تعالى ، وتحققهم بذلك .

ومن ثمة استدل الناظم على صحة مادعاه بذكر معناه ، لا بلفظه الضيق المحل عن سياق اللفظ لئلا يختل عليه الوزن فى البيت ، والنوافل هى كل ما استعمله النبى صلى الله عليه وسلم من قول وعمل ونية وحال ، فالقول يتعلق بالظاهر ، والعمل يتعلق بالجوارح الظاهرة والباطنة ، والنية والحال يتعلقان بالباطن واستعمال الجميع هو صرفه فيما خلق من أجله ، والنية من عمل القلب ، والشهود من عمل السر ، ومعناه بأن لايشهد فاعلا فى الوجود غير الله ، وهذا العمل أشرف من بقية الأعمال ، لأن من لازمه أن لايشهد موجودا فى الوجود إلا الله سبحانه وتعالى إذ لو كان يشهد الغير لنسب إليه فعلا ، اللهم إلا أن كان ينسبه إليه مجازاً كما أنه نسبة الوجود إليه مجازا ، والحديث يدل على ذلك لأنه قال «مازال عبدى يتقرب لى بالنوافل أى لكونه لا يشهد غيرى ويدنو منى بالأعمال الشرعية «حتى أحبه » وحب الله هو عبارة عن نتيجة لا هو ميل القلوب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، لأن ميل القلوب من صفة الحوادث والنتيجة هو قوله «حتى أحبه » وبين سبحانه معنى حبه فقال « فاذا

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . الخ الحديث ، فكنت سمعه ، الخ الحديث .

. جملة ذلك هو نتيجة حب الله للعبد ، وأى نتيجة أشرف من نتيجة كون أن المتقرب بالنوافل صار محبوباً للحق تعالى حتى أنزله منزلة نفسه فى صفاته ، وحين خلعها عليه ، وما خلعها عليه إلا بعد ما أفناه عن نفسه ، وناب عنه فى الهوية مدة فنائه بعدمها عنه إلى أن يعود إلى الصحو لأن الفانى لا يحس بشىء ما مطلقاً . وقد جعل الله مثالا لذلك من الخارج ، ليفهم به من لا يعرف معنى النيابة فى الصفات ، ومعنى الفناء وهو عدم الإحساس بشىء مطلقاً ، وهو مثال المصروع بالجان مثلا فإنك إذا ضربته لا يحس بالضرب ، وإذا خاطبته يخاطبك ، فإذا أفاق ، وسألته عن ذلك ينكره جميعه . ومثال النيابة عنه هو أنه إذا كان هذا المصروع من أهلك فإنك تنوب عنه فى خدمة من يعوله حتى يفيق فافهم معنى النيابة والفناء ، وكثيراً ما يصير من بعض الفقراء مثل ذلك ويخبرك بالمغيبات ويطلعك على أسرار وعلوم ، فإذا أفاق وسألته عن تلك العلوم والأسرار ، تجده مثلك لا يعرف شيئاً .

أخبرنا الرجل الصالح الكامل العالم الفاضل مولانا الشيخ أحمد القلبانى ، قال : كنت أتلقى علوماً ومعارفاً من امرأة صالحة فى بلادنا ، والحالة أنها أمية لا تعرف شيئاً ، غير أنها فى بعض الأحيان تغيب عن إحساسها وتفنى عن نفسها ، فإذا حصل لها هذا الحال تتكلم بالمعارف ، فإذا أفاقت ترجع إلى ما كانت عليه لم تعرف شيئاً .

واعلم يا أخى أنى ما أوردت عليك هذين القصتين إلا لأجل أن يقرب من فهمك معنى الفناء ، وتبديل صفات العبد بصفات الرب ، وإلا فالحق سبحانه منزه أن يكون مع العبد بمثل هذه الحالة ، لأن حالة المصروع ما تكون إلا بعد ان يحل فيه الجان ، والله منزه عن أن يحل فى أحد أو يحل فيه أحد . ويكفيك شاهداً بأن الله تعالى لما علم قصور فهمنا عن معرفة بكنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله ـ لأن أراد ذلك مشاهدة فى أوليائه ، وهو كل ما نسميه الآن كرامة ، كالأمور التى تصدر منهم الخارقة للعادة ، التى تدل على أنها

ليست من طاقة البشر ، كإخبار شيخك لك بما خطته فى غيبته .

سمعت أستاذنا رضى الله عنه يقول لولده « لا تظن أنك إذا كنت بعيداً متى ما أراك ولا تحسب أن هذه الحيطان وبعد المسافة تحجبك عنى » . وفى كلامه هذا إشارة إلى أنه من كان ينظر بنظر الله فلا يحجبه شىء ، وكذلك إخباره لك بما حدثتك به نفسك ، وهذا الحديث ليس هو بحرف ولا صوت . واستماعه ليس من طاقة البشر ، فإذا تأملته ودققت نظرك فيه يظهر لك معنى البيت ، وتعلم أنه ما سمع ذلك حين أخبرك به إلا بسمع الله تعالى ، لعلمك أنه محال سماع حديث النفس إلا على الله جل وعلا .

ثم من الأولياء من يقطع مسافة سنة وسنتين بل يدور الدنيا جميعاً فى ساعة واحدة ويرى فى مدائن متعددة وقرى متفرقة ، وهذا قطعا لا يقدر عليه بشر .

والحاصل أن أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم تدل على أنها كلها بالله لا يستطيع أن يأتى بها بخارق ، ولو ذكرنا ما خصصوا به غير هذى ربما أنه لا يسلم لنا أحد ذلك ، لأن لهم أحوالا أخر لا يمكن أن يسلم فيها إلا من شرح الله صدره للاسلام بذلك . ومن أراد أن يقع على مالم نذكره فى هذا الشرح من أحوالهم التى لا يسعها غيرهم ولا يسلم لها إلا من نور الله باطنه فليطالع فى هيئة سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه وشرحها لسيدى عبد الغنى النابلسى قدس الله سره العزيز ، ثم قال رضى الله عنه :

فَيَا مُنْكِراً إِنْ رُمْتَ تَفْهَمَ سِرَّ مَا
تَضَمَّنَ قَوْلِي قُمْ وَأَنْتَ مُسَارِعُ

أعنى يا من ينكر على فى جميع ما رأيته منى ، أو سمعته عنى ، من شطحات أو علوم خارجة فى الظاهر عن قيد الشرع ، أو قول أو عمل ما وافق علمك ومعرفتك ، لوقوفهما مع ظواهر المعانى واللفظ ، وعدم معرفتهما بالغوص فى تيار الألفاظ لاستخراج جواهره ، إن رمت فهم فهما جيداً يوضح لك

سر ماتضمنته كلماتى ، وماحوته من لطائف إشاراتى ، ويفصح لك عن معانيها التى أعيا فكرك ، فهم عويصها وأعجزه استنباط غويصها ، قم إلى بهمة عالية وأقبل على بمهجة واعية ، وأسرع بقدومك إلى ساحة علمى على نجائب العجز والاعتراف، متجرداً عن دعوى المعرفة بدقائق العلوم لتكون من العراف.

ثم إنك إذا أقدمت على بتصديق لفهم ما جهلته من أحوالى ، خذ ما آتيك به منه بقوة ولا تلتفت إلى ظواهر أقوالى ، والزم عنان جواد الفكر عن ركضه فى ميدان التأمل ، وتلق بأنامل القبول ما ألقيه إليك من ثمار المعرفة ، ودع التدبر فيها والتعقل .

اعلم يا أخى أن هذا البيت يشهد للناظم بمتابعته للشريعة لأنه قال عليه الصلاة والسلام « الدين النصيحة » وهذا البيت متضمن لنصيحة من بارزه بالانكار لأنه أشار إليه فيه بما يزيل الشبهة عنه بقوله « قم وأنت مسارع » أى قم إلى قبل أن يتمكن من قلبك وارد الانكار ، فتتبع الهـــوى فيه ، وسارع بسؤالك لى فى إزالته عنك قبل أن يضلك عن سبيل الله ، وهو الطريق الذى شرعه لك بقوله « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وقوله تعالى « فردوه إلى الله ورسوله وأولى الأمر منكم » أى فردوه إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ، فسنة رسوله أمرتك أن تحسن الظن بأخيك المسلم ، ونهتك عن سوء الظن به ، ونهاك كتاب الله أن تحكم على أحد بشىء قبل أن تحققه ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

فالشيخ رضى الله عنه فى هذا البيت دل المنكرين عليه وعلى الأولياء وعرفهم فيه بأنه يزيل الشبهة عنهم إذا سألوه عنها وهذا دليل على أنه يحب لكل منكر كما يحب لنفسه ، من عدم الانكار على أولياء الله تعالى ليسلموا من الطعن فى حق العلماء بالله . قال عليه السلام « لحوم العلماء سم قاتل » فإياك أن تحكم على شخص منهم بالزندقة قبل أن تسأله عن فعله الذى اشتبه عليك ،

فربما يكون له وجه فى الشريعة لم تطلع عليه أنت ، فإن الله تعالى قد أشار إليك بأن العلم لا غاية له ولا حصر ، والإشارة فى قوله « وفوق كل ذى علم عليم » والشريعة كما علمت بحر لا ساحل له ، لأنها مأخوذة من كلام الله تعالى وكلام الله صفة من صفاته وصفاته كذاته لانهاية ولا غاية لها ولاحصر ولاحدود ومأخوذة أيضامن حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وحديث المصطفى كذلك بحر لا ساحل له لأن النبى مأمور بتشريع ، والتشريع هو الأمر بالتبليغ ، والأمر من الله ، فعلى هذا ظهر أن الكل من الله ويشهد بذلك قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » فافهم .

ثم قال رضى الله عنه :

وَكُنْ وَاعِياً لَفْظِى تَجِدْهُ مُطَابِقاً
لِشَرْعِى طِبْقاً لَيْسَ فِيهِ بَدَائِعُ

وفى هذا البيت إشارة إلى أن السالك ، ينبغى له أن يكون متوجها بفكره ، بل وجميع حواسه الظاهرة والباطنة ، إلى ما يلقيه إليه شيخه من الأدلة المصححة لأقواله وأفعاله ، وهذا الأمر لا بد منه لأن السائل لا يخفى عليك إذا كان باله مشغولا بشىء وقلبه متوجها إلى طلب غير ما هو فى صدره ، لا يدرك مفهوم ما يبحث عنه . نقل عن سيدى الإمام الأعظم محمد ابن ادريس الشافعى رضى الله عنه ونفعنا به أنه قال « لو كلفنا ببصلة ما حفظنا مسألة » .

ومن ثمة قال الناظم رضى الله عنه « وكن واعيا لفظى » أى وكن أيها الطالب منى أن أبرهن لك عن معنى كلامى واعيا بإذن قلبك وسمعك معا ، ليكون ظاهرك وباطنك كلاهما منتبهين لسماع لفظى المبرهن لك عن صحة أقوالى وأفعالى ، فإنك إذا وعيته بجارحة السمع الحسية والمعنوية تجده حينئذ مطابقا لشرعى الذى أمرت أن أعمل به ، لا يخرج عن حد المشروع

إلا إذا سمعته بسمع رأسك ، وأما إذا سمعته بسمع قلبك وجدت مخالفته للمشروع صورة لا حقيقة ، ومعنى ، وأمسكت بظاهرك وباطنك عن الانكار ، وظهر لك الحق ظهور الشمس فى رابعة النهار ، كما أمسك سيدنا موسى عليه السلام عن السؤال بعد ما أخبره الخضر بقصة قتل الغلام . وخرق السفينة فوجده مطابقا لما جاء به من رب الأنام . والشريعة كما علمت لها ظاهر وباطن فمن وعاها بسمع الظاهر وقف مع حد الظاهر منها ومن وعاها بسمع الباطن قام بالأمرين . وصرف الظاهر منه والباطن للحكمين . وأمد كلا الفريقين من مادة « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » بلا شك ولا مين .

ثم قال رضى الله عنه منزها لفرايد أقواله التى نظمها فى سلك القصيدة عن وصمة ما يخل بها من الخروج عن حيطة الشريعة والطريقة والحقيقة والتنزيه هو قوله لا تشبه خدا نعم أى لا تمازجه خديعة المتشبهين بأهل الشطح وهو إشارتهم فى شطحهم بأنهم قد أبيح لهم ترك ما هو مشروع فإن من المتشبهين من يترك الصلاة ويقولون نحن وصلنا إلى مقام سقط عنا فيه التكليف بالأعمال البدنية ما خلا الأعمال السرية ومن الأعمال السرية الحضور والشهود والمقصود من الصلاة الحضور والشهود ونحن دائما فى الصلاة لأنا دائما فى حضور مع الحق ، ومشاهدين على الدوام نور جماله المطلق .

اعلم أن ما قالوه من أن الصلاة محل الحضور مع الحق والشهود له فصحيح وأما دعواهم أنهم دائما فى حضور معه مشاهدين له على مر الزمان فهو باطل وزور وبهتان ويكذبهم فعلهم لأنهم يستعملون المحرمات . ويرتكبون ما نهاهم الله ورسوله من المعاصى بصريح الأحاديث والآيات . ويستمعون الملاهى ويحلقون لحاهم كأنهم ما سمعوا حديث «قصوا الشارب وعفوا عن اللحى» وقد رأيت منهم جماعة حين كنت فى الهند وسألتهم عن ذلك فأجابوا بجواب

بجواب أوهن من بيت العنكبوت وقالوا فعلنا ذلك لئلا تحول لحانا بين قلوبنا ووجوهنا إذا وضعناها على صدورنا لاستجلاب الشهود وأما دعواهم أنهم دائما فى صلاة فهذا افتراء ظاهر إذ لو كانوا دائما فى صلاة لما أمكن أن يصدر منهم المكروه فضلا عن الحرام . قال تعالى «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وأى فحشاء ومنكر أعظم من ارتكاب الحرام فهؤلاء لما علموا أن المقصود من الصلاة الشهود وادعوا أنهم دائما من أهله ظنوا أن ذلك يسقط عنهم الصلاة مستدلين بقوله «والذين هم على صلاتهم دائمون» وقالوا نحن دائما فى صلاة وخصوا بدوامها نفوسهم من غير دليل يخصصهم والذى هو فى صلاة محال أن يصدر منه غير ماهو من جنسها لأنه مفسد لها ومن كان دائما فى حضرة الحق واقفاً بين يديه يناجيه بكلامه القديم فإنه يستحى منه أن يراه متلبسا بغير ما أقامه فيه من الخدمة لأنه لو فعل ذلك فهو عاص قطعاً والذى هو أيضاً مشاهد فانٍ فى المشهود لايشعر بشىء ما مطلقاً وهم فى غاية الصحو يأكلون ويشربون وينكحون ويمزحون ويستعملون الفواحش ومنهم من يترك الصلاة كما قررناه سابقاً ويقولون إن المراد من الصلاة الحضور ونحن دائما فى حضور مع الحق فأين الصلاة وأين الحضور وأين الشهود فظهر من هذا القول أن دعواهم لهذه الأحوال من تلبيس الشيطان عليهم أعاذنا الله منهم وحمانا من مجالستهم وجنبنا صحبتهم آمين .

ويحتمل يا أخى أن معنى قول الناظم «لا تشبه خدائع» أى ليس فيه شائبة من اعتقاد الملحدين القائلين بالحلول والاتحاد وهذا الكلام الذى ذكره الأستاذ فى هذه القصيدة بلفظ التنزيه وبما فيه معناه يشير به إلى أن ظاهره محتمل للتشبيه عند من كان فكره غير متمكن من إزالة حجب التمويه . قال سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه :

أموه فى ذكرى نعوت سواكوا
وأرجو بذا سترا فيكشف للورى

وأما من كان متمكنا لا يلتبس عليه شيء من كلامه ولو أشتبه عليه شيء منه تقديراً عرضه على الكتاب والسنة لأن المتمكن لا يكون إلا من أهل الذوق والاستنباط فلو خفي عليه شيء منه لغموضه سأل عنه أهله من الصوفية لأن المتمكن يمنعه تمكنه من الإنكار قبل البحث لوفور عقله والمتمكن هو المالك لنفسه عن الوقوع فيما يخل بمعرفته لكماله .

واعلم يا أخي أن السؤال عما أشكل عليك من كلام الصوفية يلزمك مع الإمكان فإن فقدت من يعرفك بمقاصدهم ويفهمك معنى كلامهم فانسب العجز والتقصير إليك لتسلم من تجهيل عارف بالله هذا إذا لم يكن تسلم لهم وأما إذا سلمت لهم وآمنت بكلامهم فقد تحصلت على الولاية الصغرى كما قال الجنيد البغدادي رضي الله عنه الإيمان بكلامنا هذا ولاية صغرى وفقنا الله وإياك وكل مؤمن لذلك . وحمانا من الإنكار عليهم لما فيه من المهالك . ثم قال رضي الله عنه :

وأَقْبَلَ بِصِدْقٍ ذَا اعترافٍ مُسَلِّمًا
وحُسْنُ اعْتِقَادٍ لاَ تُشْبِهُ خَدَائِعُ

الصدق ضد الكذب وهو من صفة الأنبياء ، قال تعالى « إنه كان صديقا نبيا » ، وقال جل وعلا حاكيا عن سيدنا عيسى « ومصدقا لما بين يدي من التوراة » ، وقال عز من قائل « وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » .

ومن ثمة لما كان مقام الصديق بعد النبوة أشرف من كل مقام ، بتسمية النبي صلى الله عليه وسلم لأبي قحافة بالصديق على سائر الصحابة الكرام ، وحاز شرف المنزلة بأن ينصب له يوم القيامة بين الحبيب والخليل كرسي بيانا لشرف المقام ، كما رأيت ذلك في رؤيا من الله تعالى بها علي في المنام ، قيل لي فيها هذا موضع الحبيب وهذا موضع الخليل وهذا موضع الصديق

ورأيت مقامه بينهما عليهما الصلاة والسلام .

واعلم أنه ليس بعد رتبة النبوة أشرف من رتبة الصديقين وهو جمع صديق ودليلة أن لله عطفهم فى الآية الشريفة على الأنبياء فى قوله تعالى « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ولما كان الصدق من أحسن ما يوصف به الرجل ومن لازم عليه نجا من مصائب الدنيا والآخرة لقوله عليه الصلاة والسلام « النجاة فى الصدق » دل عليه الناظم كل من أراد أن يأخذ البيعة عنه ويحكمه على نفسه بأن يتصف به فقال « وأقبل أيها الطالب لعلوم الصوفية إلى رجائى وتمسك فى معرفة ذلك بجنابى وتوجه إلى بصدق النية وخذ ما ألقيه عليك منها بالقبول وأخرج عن دعوى العلم واطرح ما لديك من أدلة المنقول والمعقول ، فالعقل ليس بمعصوم من الخطأ والنسيان ، ولو بلغ مهما بلغ فى معرفة الدليل والبرهان والمنقول له باطن وظاهر .

واعلم أن الدليل الواحد من القرآن لا ينحصر على ألف معنى لأنه صفة من صفات الرحمن سمعت الأستاذ رضى الله عنه يقول : الحرف الواحد من القرآن أقل ما يفسر به على اثنى عشر ألف وجه وقليل ذلك فى تفسير معنى كلام العزيز الديان ، فإذا علمت ذلك فلا تقف مع أدلتك العقلية وكن صاحب اعتراف بالعجز إذا قدمت على غير متلبس بحيلة .

واعلم أنه لما كان الاعتراف من أجل ما يتحلى به الشخص إذا قدم على العراف لأنه من أشرف الأدلة على عنوان التواضع ، ومن تواضع كان حقا على الله بمحض الكرم أن يرفعه إلى أجل المواضع ، عطفه الشيخ على الصدق ثم قيده بالتسليم لأنه من لازمه فقال مسلما إلى أى حال كونك مسلما إلى بجميع ما ينشره عليك لسانى من أرج العلوم الربانية . ونوافح الواردات الرحمانية .

واعلم أنه لما كان التسليم للمشايخ به تفدى المريدون من الخلود فى جهنم الغفلة بذبح نفوسهم الأمارة بصريح، وفديناه بذبح عظيم، بعد حصول التسليم الوارد فى قوله تعالى «فلما أسلما وتله للجبين» دل الناظم المريد عليه ليكون متصفا به لناحالة وقوفه بين يديه وسببا لتوجه الأستاذ له فى خروجه من ظلمات البشرية وحسم مادة هبوطه فى دركات الأنانية ، ويحتمل أن يكون معنى وأقبل صدق طوية إلى متلبسا بالإخلاص فى أقبالك على لامشوبا بعلة دنيوية مفارقا حالة كونك مقبلا على، لاأدلتك العقلية والنقلية لأن العقل قد يخطىء والدليل عن إعطاء نتيجته لك قد يبطىء. وقد لايسمح لك بها ولايعطى . ومل إلى جانب الاعتراف بالعجز عن إدراك المفهوم ، واعترف أيضا بأنى الإمام فى العلوم ، فمن اعترف نال مالايدركه بدعوى المعرفة لكونه عدل عن تزكية نفسه ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه .

واعلم أن كل من اقتصر على مفهومه ، وقف عن التلقى قانعا بعلومه فقد زكى نفسه عن الغلط . وهذه التزكية منهى عنها لما فيها من الروم والشطط قال تعالى «ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» بل الممدوح من المريد أن ينسب إليها التقصير فى كل شىء سواء كان أخطأ أو أصاب ، ثم أنه لما كان التسليم للمستفيد ، أسلم له من المناقشة فى الجواب مع شيخه الهمام المجيد ، ذكره الشيخ بعد الاعتراف ، ليرشد إليه من قصده طالبا السلوك ليكون من العراف ، ولأنه من لازم الاعتراف التسليم ، ومعترف غير مسلم بعيد عند ذى العقل السليم . ثم ذكر الناظم رضى الله عنه بعد ذكر الاعتراف والتسليم حسن الاعتقاد ، فقال وحسن اعتقاد لاتشبه خدائع .

أعلم أنه لما كان الاعتقاد وحده غير كاف للمريد ما لم يكن مقرونا بالحسن وهو تحليه بالإخلاص ذكره مقرونا به لأن الاعتقاد وحده بناء على الأصل واه . وهو سريع الانهدام ومن ثمة قال بعض المحققين «كن محبا ولا تكن معتقداً» ، لأن عين المحب عن كل عيب يصدر من محبوبه سواء كان

ذلك العيب حقيقة أو حكما كلية أى قاصرة ولو رأته على التقدير لاتستقبحه بل تراه حسنا لأنها لا تشهد إلا حسناً محبوبا .

ومن لازم من كان حسنا أن يكون فعله كذلك حسناً ، قال عليه السلام « التمسو الخير عند حسان الوجوه » وقال بعض الأدباء « وكل إناء بالذى فيه ينضح » . وقول الناظم لا تشبه خدائع تفسير لحسن الاعتقاد ويفهم من هذا أن مجرد الاعتقاد محتمل للخديعة لأنه قد يكون الشخص يظهر الاعتقاد لشيخه ليقضى بذلك غرضه وهو فى نفس الأمر منطو على خلافه ومن جعل ذلك وصفه مع شيخه فقد تشبه بالمنافقين فإنهم كانوا فى ظاهر الأمر مسلمين لأجل أن يعصموا بالإسلام دماءهم وأموالهم ، وقلوبهم مشحونة بضده فهم المخادعون .

ومن كان ذلك نعته مع أستاذه فهو مخادع مثلهم داخل معهم فى دائرة قوله تعالى « وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون » أى بأن نتيجة الخداع ودائرته تدور عليهم لا على المخادعين له .

اعلم يا أخى أن هذا البيت مما يدل على كمال إيمان المتكلم به لكونه متضمنا لمعنى النصيحة لأنه أرشد فيه إلى الصدق والاعتراف والتسليم وحسن الاعتقاد وقد قال عليه الصلاة والسلام « الدين النصيحة » ونزل النصيحة منزلة الدين برمته والمراد بالدين الإسلام الكامل ، قال جل وعلا « إن الدين عند الله الإسلام » والألف واللام فى الدين للتخصيص بالدين الخالص ، قال تعالى « ألا لله الدين الخالص » حكى سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الجواهر والدرر ، قال سألت شيخنا سيدى عليا الخواص عن قوله تعالى « إن الدين عند عند الله الإسلام » هل قوله « عند الله » له مفهوم فيكون الدين عند الله غير الإسلام أم ذلك لا مفهوم له فقال رضى الله عنه للآية مفهوم وهو أن الدين دينان دين عند الله ودين عند الخلق ، فأما الذى عند الله فيطلق بمعنى الانقياد وبمعنى الشرع الموضوع من عند الله وبمعنى الجزاء والانقياد يعم

الكل فإنه ماثم أحد من الخلق إلا وهو منقاد إن لم يكن للأمر كان للإرادة ، وما ثم من قيل له كن فأبى أبداً بل يتكون من غير تخلف ولا يصح فى العالم كله إلا ذلك ويسمى ذلك عند الطائفة الإسلام العام .

وأما الإسلام الخاص عندهم هو ماكان على وفق الأمر لا الإرادة المجردة ، فهذا هو الدين عند الله .

وأما الدين عند الخلق فقد اعتبره الله عز وجل كما اعتبر المشروع على السنة رسله وهو الذى اصطلح عليه العلماء والصالحون من الأعمال المستحسنة المؤدية إلى سعادة المعاد والمعاش وهذا الدين مأخوذ كل فى الحقيقة من شعاع نور الدين الوارد عن الله فأعلم ذلك فاعلم ذلك ، انتهى كلامه رضى الله عنه ، ثم قال رضى الله عنه :

وَسَلِّمْ إِلَى الأَمْرِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
وَكُنْ سَامِعاً نَهْيِي لِأَمْرِي وَتَابِعُ

وفى هذا البيت إشارة إلى أن المريد إذا حكم أستاذه فى نفسه لايجعل له إختياراً معه ولا إرادة بل يكون بين يديه كميت بين يدى غاسل يقلبه كيف يشاء ، قال بعضهم وكن كميت بين يديه . إن شئت أن تحظى بما لديه ، ولما كان التسليم شرطا على كل مريد أن يتصف به عند سادتنا الصوفية ذكره الناظم بصيغة الأمر فقال «وسلم إلى الأمر» أى الذى يتعلق به ظاهرك وباطنك سواء كان من أمور الدنيا أوالآخرة وكن «فى كل حالة» أمرتك بها قائماً بأمرى ولا تقدم على فعل شىء ما مطلقا إلا إذا أمرتك به ولا تنته عنه إلا بنهيي لك لأنى أدرى بك منك بمصلحتك وفيه أيضاً إشارة أخرى أشار فيها الناظم للمحكم له نفسه والإشارة هى إلى الأدب وهو عدم البحث عما يأمره به والإشارة مفهومة من فحوى قوله «وسلم إلى الأمر» لأن ضد

التسليم المعارضة بالسؤال غير اللائق به وترك السؤال هو من أجل الأدب ، قال عليه الصلاة والسلام « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وورد فى بعض الأخبار أدبوا أطفالكم فأدب العبد مع ربه أن يكون ساكنا تحت جريان أقداره عليه راضياً بذلك عنه . قال بعض المحققين « الطريقة كلها آدب» ومن لم يتادب مع أستاذه فاته الأدب مع رسول الله لان الأستاذ نائبه .

ومن الأدب أن يسأل شيخه إذا أمره بشىء أونهاه عنه عن الحكمة فى ذلك أقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم مع ربه وعملا بقوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » وقوله عليه السلام « إنما أهلك الذين من قبلكم من الأمم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» أو كما قال صلى الله عليه وسلم « وإياك والبحث مع شيخك عن حكمة ما يأمرك به أو ينهاك عنه بل كن معه بما يلزمك من طاعته بصريح قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فالشيخ لما وليته أمرك لزمتك طاعته فإن قلت ربما يأمرنى بفعل نهى الشارع عنه .

وقد قال المحققون « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فالجواب أن المراد بالمخلوق هنا الجاهل بالأمور الشرعية وأما الولى إذا تحققت ولايته فما تحققته منه مناف لما توهمته فيه ويأبى الله أن يتخذ وليا جاهلا . بل من لازم الولاية العلم بالله وبالشريعة ظاهراً وباطناً وبالطريقة فعليك بطاعة الاستاذ وإن أمرك بأمر مخالف فى الصورة للمشروع ، وكن معه فى الطاعة كما كان سيدى العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه مع شيخه سيدى على الخواص مع أنه كان فى علوم الظاهر إلى الحد الأقصى حتى بلغ الاجتهاد .

واعلم أن سيدى عبد الوهاب صحب سيدى عليا الخواص وسيدى على هذا كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ولازمه مدة فلما رأى منه مارأى طلب منه أن ينظمه فى سلك القوم ، فقال له إن أردت ذلك طلق زوجاتك وخذ

جميع ما معك من الكتب وغيرها وارمها فى البحر، فلما سمع ذلك منه لم يرجع القهقرى عما أمره به بل أجابه فى الحال وفعل جميع ما أمره به وجاءه وحيداً فريداً فقيرا لا يملك شيئاً. فقال ياعبد الوهاب بقى عليك شىء واحد فقال له وما هو ياسيدى؟ قال أسلبك هذا العلم الذى فى صدرك، فقال له الأمر إليكم فتوجه إليه وسلبه عله فرجع أميا لا يعرف شيئاً وذهبت عنه رياسة العلم وهذا كله امتحان من الشيخ له فلما علم صدقه قال ارجع إلى البحر واخرج ماهو لك، فلما ذهب إلى البحر وأخرج كتبه وغيرها وجدها على ما كانت عليه لم يتلف منها شىء.

ثم أمره أن يراجع زوجاته فراجعهن ثم توجه إليه بما أفاض به عليه ودله عليه وأضعافه من علوم الظاهر والباطن الذى لو مكث عمر سيدنا نوح يطلبها بنفسه ما أدرك عشرها، وصار بعد ذلك تضرب إليه أكباد الابل يلتمسون منه الشريعة والطريقة والحقيقة رضى الله عنه. وقريب من هذه القصة ما صار لسيدى الشيخ عمر الشنقيطى رضى الله عنه مع شيخنا محط ركاب العارفين، ومقدام جيش المحققين، قطب الزمان. سيدى الشيخ محمد السمان رضى الله عنه فإنه كان كثير العبادة وورده، كان يختم القرآن كل ليلة فى ركعتين وكان يصوم الدهر ولا يفطر إلا على مقدار ربع رطل من حليب شاة كانت له، وكان فى بعض الأحيان يغمى عليه من الجوع فيظنون أهله أنه قد فارق الدنيا فيبكون عليه. وكان من كثر الرياضة والمجاهدة كالشن البالى، وكان دائما يبكى من خشية الله فلما صحب شيخنا وأخذ عنه أمره بترك ذلك كله ففعل وأقام عنده أربعة أشهر وفتح الله عليه وصار من كل أولياء الله تعالى، أخبرنى هو بنفسه عن نفسه قال يا أخى أول ما فتح الله على به فى علم الحقائق ببركة الأستاذ ثم أمره بالسفر فتوجه فلما وصل إلى طرابلس أدركته المنية وتوفى بها وبنوا عليه قبة عظيمة وظهرت له كرامات بعد وفاته خارقة للعادة.

أخبرنى الشيخ الصالح العلامة سيدى أحمد بن أبى نعامة المغربى قال اجتمعت بسيدى عمر الشنقيطى فى طرابلس فرأيته فى حالة غير ما كنت أعهدها فيه لانى كنت أعرفه أعبد أهل زمانه وأكثرهم بكاء وصمتا فتعجبت منه فلما فهم منى ذلك قال لى ياشيخ أحمد جزى الله عنى شيخنا سيدى محمد السمان أفضل الجزاء لقد جمع لى بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى شيئين وأراحنى من مشقة العمل قلت وما ذالك الشيئان ، قال: قال لى يا عمر اعبد الله على الوجه المسنون وأشهد الحق فى كل شىء من ذى حركة وسكون ، فمنذ عملت بمقتضى ما أمرنى به أدركت المطلوب . وظهر لى ما كان عنى محجوب .

أعلم يا أخى أن هنا ذنوباً خفية تدخل على المتعبد من نفس عبادته وهو لا يشعر بها ويظن أنه على شىء والأمر بخلاف ذلك . فمن الذنوب الخفية اعتماده على العمل المخلوق لله فيه وكل مخلوق فان والاعتماد على فان مثله فان كذلك وشرك خفى أيضاً لأنه شهد له وجوداً اكتسب به عملا فاعتمد عليه وليس الوجود إلا لله وكل اعتماد على غير الله ضلال لأنه موجب لنقصان الرجاء إذا وقعت من المعتمد عليه زلة وربما أنه يجره إلى القنوط المفضى إلى الخسران والضلالة فيدخله فى دائرة « ومن يقنط من رحمة ربه إلا القوم الضالون » .

وأعلم يا أخى إن أرتكاب أخف الضررين مشروع عند الضرورة وهنا ذنوب وهى من الكبائر ولا تزول إلا بارتكاب مكروه أو بما فيه شبهة كالكبر والعجب والرياء وحب الرياسة وأمثال هذه الذنوب وهى لا تصدر إلا من عالم أو متعبد أو ذى ثروة أو حاكم فالشيخ المرشد إذا أمر المريد بترك نافلة أو نهاه عن طلب العلم أو حكم عليه بإنفاق ماله أو بخروجه عن الحكم وأمره بالجلوس فى مظان التهم فلا ينبغى له أن يتخلف عما أمره به ولا يتأخر عنه قدما واحداً بل يسرع إلى فعل ما أمره به لأن الذنوب التى ذكرناها من أقوى العلل وهى لا تزول إلا بطبيب حاذق وليس نعلم طبيباً حاذقاً عارفاً بعلاج هذه الأمراض إلا الشيخ المرشد فإذا

أمر الشيخ المريد بفعل مسقط لمقامه بين الناس فليستعمله فإن شفاءه فى ذلك .
قال ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه « معصية أورثت ذلا واستصغاراً خير من طاعة أورثتك عزاً واستكباراً » كبلعام وإبليس فإن بلعام منعته رياسة علمه عن تنزله لسيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام فمات كافراً . وأما إبليس فمنعه عجبه بنفسه حين رأى نفسه أنه طاووس الملائكة الكرام فاستكبر عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام فطرد من حضرة الحق فانظر ياأخى أى الحالتين اخف ضرراً للمريد أهل يرتكب مانهاه الشيخ عنه من الإتيان بالنوافل وتدريس العلم ويفعل ماأمره به من فعل مكروه وما فيه شبهة أو يعيش متكبراً معجباً بنفسه مرائياً معتمداً على عمله كما اعتمد بلعام على علمه وإبليس على عبادته وكونه مخلوقاً من نار وآدم من من طين إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله بوصف إبليس وبلعام بن باعورا .

فالمشايخ رضى الله عنهم إذا أمروا المريد بترك نافلة من صلاة أو صوم أو حج أو غير ذلك أو حكموا عليه بفعل مكروه أو بما فيه شبهة فلا يتخلف عن ذلك بل يمتثل لأمرهم ويعتقد أنهم ماأمروه بذلك إلا لمصلحة وقدنصت العلماء على أن الشخص إذا غص بلقمة وخاف على نفسه الهلاك فانه يباح له أن يسوغها بقدر الحاجة بجرعة من خمر بل يجب عليه فعل ذلك ، هذا إذا لم يجد شيئاً يسوغها به وكذلك إذا جاع وخاف الهلاك ولم يجد مايتغذى به غير لحم ميتة فإنه يأخذ منه بقدر الحاجة وإن أخوف مايخاف المؤمن على نفسه من أن يموت وهو مصر على الكبائر كحب الرياسة أو العجب أو الحسد أو الرياء لأنه قد ورد أن المتكبر فى النار والحسود والمرائى والمعجب بنفسه الجميع كلهم فى النار ، ولم يرد فيمن ترك نافلة أوارتكب مكروها فى النار وماورد فى المتطوع إلا حديث « من هم بحسنه وعملها كتبت له عشر حسنات ومن لم يعملها كتبت له حسنة » وما ورد أيضا فى حق من اوتكب مكروها إلا الكراهة بل ربما ينقلب الفعل المكروه حسنة إذا ارتكبه لنية حسنة لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » فمن خاف على نفسه مثلا

الكبر أو الرياء أو العجب خصوصا إذا رأى الناس قد اقبلوا عليه بالتعظيم وتقبيل الأيادى والقيام له فى المجالس بالاجلال والتكريم .

فتعرض لصرفهم عنه بشرب التنباك أو بالجلوس فى مظان التهم أو باستماع الملاهى فله ذلك ولا حرج عليه بل ينقلب فعل هذا حسنات لكونه فعل ذلك صيانة لدينه وخوفاً من الله تعالى أن يراه مرائياً أو متكبراً لأن التكبر من وصف الله تعالى قال، تعالى العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته بنارى ،وهو اسم من أسماء الله تعالى وكل هذه الأمراض مضرة للمريد ولاسيما حب الرياسة لانه ثبت عن بعض المحققين العارفين أنهم قالوا آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة لشدة تمكنه من النفوس فجزى الله عنا المشايخ أفضل الجزاء حيث بينوا لنا العلل وبرهنوا عن الدواء ورحم الله امرأ عمل بمقتضى ماأمروه به ووعى ، ثم قال رضى الله عنه :

وَنفسَكَ فادْفِنْها بِطِينَةِ ذُلِّهَا وعِزُّكَ مِنْ أجْلِي بذَلِكَ بَاسِعُ

اعلم أنه لما كان الذل من أشرف وأجل ما يكون المريد متصفاً به مع أستاذه بل ومع كافة عيال الله وهم خليقته دل الناظم عليه بصيغة الأمر ليهتم به ولا يتأخر عن الاعتناء به قدماً واحداً .

قال ابن عطاء رضى الله عنه : «ادفن نفسك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه ،وأما إذا أحكم المريد دفن بذر نفسه فى أرض الخمول بإظهار الذل والانكسار والعجز والفاقة والافتقار وسقاه بماء ارتكابه لكل مسقط لمقامه عند الناس سترا لحاله حتى يكمل له فإذا كمل حينئذ يتم له نتاج نفسه وتنعكس صفاته البشرية . ويصير متخلقاً بالأخلاق المحمدية . فإذا انعكست بهذا الانعكاس فهو نتيجة أحكام الدفن وإذا حصلت النتيجة وأمن بالظهور . حينئذ يظهر ، والظهور بالأمر أكمل لأنه به يسلم من الغرور . ومن ثمة نجـــد كثيراً من المشايخ من يقول طريقتنا الذل والافتقار . وإذا أرادوا أن يسلكوا من كان فى النفس الامارة يأمرونه بتعاطى الأسباب التى

تذله بين الناس حتى تتهذب بها نفسه ويصير متردياً برداء الانكسار .

أخبرنى الولى الكامل سيدى محمد بن عثمان المكى رضى الله عنه حين اجتمعت به فى زبيد قال كنت فى حالة الصبا معجباً بنفس تائها فى أرض اليمن بعنفوان الشباب خصوصاً لما رأيت الناس يعظمونى ويبجلونى ويكرمونى لكونى من أهل مكة . فلما أراد الله بى ما أراد سلط الله على شخصاً من أهل بلدى سرق متاعى وهرب . فبقيت لا أملك شيئاً حقيراً عند الناس ذليلا بعد تلك العزة فلما رأيت نفسى صرت بهذه الحالة توجهت من أرض صنعاء إلى المخاو دخلت فى قهوة من جملة الناس جيعاناً وكان عندى من الدراهم شىء يسير فدفعتها لصاحب القهوة وقلت له خذ لى بها طعاماً فذهب وجاءنى به فأكلت ونمت تلك الليلة عنده وصار ذلك المقهوى كل يوم يخدمنى ويطعمنى من عنده وكان من أولياء الله تعالى متستراً بحرفة القهوة . فلما علمت بحاله مع الله تعالى طلبت منه الدخول فى طريق القوم فأمرنى بخدمة الناس ففعلت ثم بعد أيام قلائل قال لى اذهب إلى المكان الفلانى تجد بها أسباباً لميت تباع ومن جملة الأسباب ثوباً أسود خاماً وهو لحرمة ماتت وغسلت فيه خذه بقيمته وائتنى به فمضيت واشتريت الثوب وجئت به إليه مبلولا بسدر فأمرنى أن أتجرد من ثيابى فلما تجردت دفعه إلى وقال لى البسه فلما لبسته أعطانى دراهم وقال امض إلى السوق وخذ بها لحماً وسمناً فمضيت بتلك الحالة والناس ينظرون إلى ويتعجبون من فعلى هذا ، فنهم من يضحك ومنهم من حزن على فلما رأيت ذلك انكسرت نفسى . فلما رجعت إليه أخذهما منى وطبخ الطعام ، فلما استوى أكل منه ودفع لى فضلته فأكلها وأنا فى حال الذل فلما فرغت وغسلت الإناء صبر إلى الليل وناداني ولقنني الذكر وأمرنى أن أتوجه إلى زبيد وأقطن بها .

وقال الآن ماتسعنى أنا وأنت المخا . فسرت من الغد وفتح الله على ، فانظر ياأخى إلى شرف الذل كيف أنتج له مقاما لو عاش ألف سنة يحاول تحصيله ماأدركه وتأمل فى حسن نظر المشايخ كيف يتوجهون للمريدين بحسب ما يناسبهم من الأسباب رضى الله عنهم أجمعين ومن أجل ذلك لما كانت العزة

حجاباً مانعاً عن الوصول كما ورد فى الحديث القدسى وهو قوله عليه الصلاة والسلام "أقسم الملك القدوس أن لا يدخل حضرتى أهل النفوس، وفهم الأستاذ رضى الله عنه من الحديث أنه لا يمكن للمريد الدخول فى حضرة الحق إلا بالذل ، قال رضى الله عنه، وعزك من أجلى بذلك بائع أى وعزك أن أردت أن أرقيك إلى درجة الكمال وأوصلك إلى العز الدائم فمن أجلى بعه بثمن بخس من الذل بين يدى لأن ذلك مسقط لك عندى فى الصورة لكونه فعلا دالا على عدم الانانية وقف على أعتابى ذليلا خاضعاً فإن فعلت ذلك عوضتك عن عزك الفانى عزاً دائماً وعن شرفك شرفاً لا ينفد، وعن جاهك جاهاً يشفعك عند الله فيمن تحب يوم القيامة وقبولا لا يرد وعن مالك الذى خرجت عنه مالا من خزائن الفتح الربانى لا ينقطع ربحه دواماً سرمداً .

اعلم يا أخى أن الطرق الموصلة إلى الله بعدد أنفاس الخلائق وأقربها إليه الذل والانكسار فطاعة غير مقرونة بهما هباء منثور ومن تعبد بهما وأقبل متزملا ببرديهما على الله لقاه منه نضرة وسروراً فانظر إلى بعض رؤساء قريش لما أخذتهم العزة استنكفوا واستكبروا عن قبول ما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم من الإيمان . فباءوا بالكفر وحقت عليهم كلمة العذاب بسبب العصيان . وتأمل فيمن تواضع منهم للحق وأذل له نفسه بالإيجاب والقبول لما دعاهم إليه الصادق الأمين كيف حازوا شرف الدنيا بالرفعة على ماسواهم وشرف الآخرة بحولهم للقدس الرحمن فعليك بالذل كما أشار إليك الناظم . إن كنت من على نفسه حاكم .

تذلل لمن تهواه وكن هكذا وارضى	وصير له خديك دون الثرى أرضاً
فمن ذل للمحبوب فاز بعزه	ووصل لعقد البين ينقضه نقضاً
فمذهب أهل الحب من يدعى الهوى	يرون لمن يهوى تذلله فرضاً
كما صيره أمر عليه محتم	ولو أن يصليه الحبيب على الرمضا

اجتمعت مرة أنا وجماعة من إخوانى بإشارة من الأستاذ رضى الله عنه .

على العارف بالله قطب الزمان وقطب رحاة أرباب العرفان . سيدى الشيخ أحمد العريان قدس الله سره وسقى ضريحه بماء الرضوان فى أيام الحج . فلما قدمنا عليه ، قبلنا أقدامه وجلسنا بين يديه ، فرحب بنا وقدم لنا طعاما فلما فرغنا جلس يعظنا فلما عزمنا على الانصراف قال عليكم يا أولادى بالذل والانكسار فان هنا أقواما وصلوا إلى الله بكثرة عبادة ولا صوم ولا صلاة ولا قيام بل ما وصلوا إليه وحطوا رحالهم بين يديه إلا على نجايب الذل والانكسار فعليكم بهما فإنهما أقرب الطرق الموصلة إليه وفقنا الله وإياك وإخواننا المؤمنين لذلك . والحاصل أن العطايا مواهب ليست بالمكاسب . ثم قال رضى الله عنه :

فَقِيراً حَقِيراً ذا انكِسارٍ وتارِكاً
سِوَاىَ وغَيْرِى حُبّهُ عَنْكَ نازِعُ

الفقر فقران فقر استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم وفقر مدحه وافتخر به ، فالفقر الذى استعاذ منه الفقر الحسى المفضى إلى التهلكة بحيث أن الإنسان لم يجد شيئا يقيم به بنيته ، وهذا الفقر هو الوارد فيه « قاتل الله الفقر ، كاد ان يكون كفرا لكن بشرط أن يكون هذا الفقر صاحبه عديم الصبر والقناعه والرضى وأما إذا كان صاحب صبر وقناعة ورضى فلا يصدق عليه قوله عليه السلام «كاد أن يكون كفرا» لأن أسباب الكفر عدم الصبر وعدم الرضى فيه عن الله والضجر وكثرة اللح فى الطلب والشكوى على مخلوق مثله ، وأما إذا كان يلح على الله طمعا منه فى تحصيل حب الله فقط لا غير فلحه هذا ممدوح لقوله عليه السلام « ان الله يحب العبد اللحاح » والفقر الذى مدحه عليه السلام وافتخر به بقوله « الفقر فخرى وبه افتخر » هو فقر الباطن وعنوانه التفويض الذى هو دليل على التحقق من العبد بمقام العبودية لأن العبد ظاهرا وباطنا ليس له إرادة مع سيده بل ولا تكون له أدنى التفاتة إلى غير المنعم .

كما هو مشاهد من الخارج ، وليس هنا منعم على الحقيقة إلا الله والفقير مالم يكن متصفا بمعنى حروف الفقر لايكون فقيرا حقيقة لأن الفاء تشير إلى الفاقة وهى احتياجه فى كل حالة إلى الله تعالى فقط والقاف تشير إلى قناعته بما قسمه الله له فى الأزل والياء تشير إلى يقينه بأنه لايصيبه إلا ماقدره الله له فى علمه والراء تشير إلى الرضى عن الله فى المقدور عليه والمقسوم له. وللفقر الباطنى أيضا عنوان آخر وهو اعتماد صاحبه على الله فى جميع توجهاته السرية والجهرية وأخذه عنه وعدم التفاته إلى الغير عكس ماعليه صاحب الفقر الحسى .

واعلم أنه ينبغى للمريد الصادق أن يقبل على شيخه بكلا الفقرين. ومن ثمة لما كان لابد للمريد منهما. بأن يكون متصفا بهما حالة كونه مقبلا على أستاذة لأخذ البيعة منه ، قال الناظم « فقيرا » وهومنصوب على الحالية تقديره واقبل أى إلى أيها المريد الصادق حال كونك فقيرا وهو خروجك عن جميع ماتملكه من الأموال الحسية والمعنوية . كالعلوم وغير ذلك مما ركنت إليه نفسك واستغنت لجهلها به عن طلب المراتب العلية ، وتوجه إلى بوصفك الذى وصفك الحق به وهو قوله « ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله » ولا شك أنك فقير لما قسمه الحق لك على يدى ، وللواسطة حكم الموسوط فى الاقبال عليه بوصف الفقر ، ومن لم يقم بحقوق الواسطة فقد المعرفة بقيامه بحق الموسوط .

لاتركنن إلى علم ولا مال
وأقبل فقيرا لكى تحظى باقبال
ففيهما مرشد يغنيك لاسيما
إذا بصدق له أقبلت فى الحال

فتأمل إلى الصديق الأكبر رضى الله عنه كيف حين أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروجه عن جميع مايملكه وقدم عليه بوصف الفقر

الحسى والمعنوى نال درجة القرب الخاص به فى عالم الشهادة والبرزخ وفى الرفيق الأعلى .

واعلم أن الفقر الباطنى الذى به تكون مع شيخك هو توجهك بجميع حواسك الباطنة والظاهرة إلى مايفيض به عليك من العلوم الربانية والمواهب الاحسانية وحفظهما عن الالتفات إلى الغير لتأخذ عنه ولو كان الخضر أو القطب عليهما السلام إلا إذا إذن لك الشيخ فى ذلك .

أخبرنى العارف بالله القطب الشهير سيدى الشيخ على الكردى قدس الله سره العزيز . قال : جئت إلى شيخى سلطان الموحدين سيدى السيد إسماعيل البرزنجى فرأيت الخضر عليه السلام جالسا عنده فقبلت يد الشيخ ووقفت بين يديه فأمرنى أن أقبل يد الخضر فقبلتها ووقفت متوجها بظاهرى وباطنى إلى أستاذى فالتفت إلى الخضر عليه السلام وقال لى أما عرفتنى؟ فقلت له بلى عرفتك يا سيدى أنت الخضر ولكن أنا خضرى هذا وأشرت إلى الأستاذ فأعجبه جوابى وقال بارك الله فيك ودعا لى بخير فظهر من هذا الكلام أن التوجه إلى الشيخ عنوان على طلب المدد والطالب فقير . فالمريد الصادق وينبغى له أن يكون مع شيخه متوجها له دائما بفقر الباطن والظاهر إلى ما يفيض به عليه من أسرار الله ويقطع طمعه والتفاته فى ذلك الغير وكذلك يكون معه بوصف الفقر الظاهر وهو أن يملكه جميع ما يملكه ويرى أن جميع ما عنده عارية أعار الاستاذ له ، ومن الفقر الظاهر تستره بالجهل مادام هو فى خدمته وعدم دعوى العلم ليكون ظاهره وباطنه فى الفقر على حد سواء . ثم ينبغى أن له أن يكون دائما محقراً لنفسه بين يدى أستاذه وإخوانه بل ومع جميع الخلق لأنه من لازم من لم يحقر نفسه الرضى عنها ورؤيتها بالكمال وتزكيتها عن النقصان ومن كان ذلك وصفه فقد ادعى بلسان حاله استغناءها عن الغير ومن استغنى عن الغير واكتفى بما لديه من المعرفة فقد

وقع فى جهل من وجه وهو لا يشعر ، لأن العلم لا ينحصر على شخص واحد وقد يوجد عند من هو دونه فى العلوم علوم أخرى أنفس مما عنده هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتى علم الأولين والآخرين ومع ذلك كان يسأل سيدنا جبريل عليه السلام عن بعض مسائل ، وقد ثبت عنه فى أحاديث كثيرة « سألت أخى جبريل عن كذا وكذا فقال لى كذا وكذا » .

فاحذر بأن تكتفى بما لديك من العلوم فتقع فى محذورات منها تزكية النفس وقد نهاك الله عن ذلك ، والمحذور الثانى الدعوى وإن لم تنطق بها بلسان القال فعدم طلبك لزيادة الكمال بعدم بحثك عن ذلك والسؤال دليل على ذلك ولسان الحال عند أهل الحال أوضح من المقال . وتأمل أرشدنا الله وأياك فى حال من قدم على المشايخ بوصف الفقر وحقارة نفسه وما لديه من العلوم وكيف آل حاله إلى درجة الولاية العظمى ، والمقام الأسمى كسيدى محمد الغزالى رضى الله عنه وسيدى عبد الوهاب الشعرانى وسيدى محمد الحفناوى من المتأخرين نفعنا الله بهم فإنهم كانوا كما علمت قبل أخذهم عن الصوفية من أجل علماء الظاهر حتى أن كل واحد منهم بلغ رتبة الاجتهاد فلما أراد الله لهم بما أراد من الرياسة الدنيوية والبرزخية والآخروية أقبلوا على المشايخ بوصف الفقر من جميع العلوم وحقروا نفوسهم بين أيديهم باظهار الجهل طلبا للافادة وتأدبوا فى حضرتهم تأدب العبد القن بين يدى سيده فادركوا منهم علم مالم يعلموا وصارت تضرب برفعة مكانتهم فى أوج الولاية الأمثال . وأصبحت تقتبس من أنوار مشكاتهم فحول الرجال . وصاروا من القوم الذين عند ذكرهم تنزل الرحمة ، ومن الذين من توسل بجاههم تندفع عنه كل محنة ونقمة .

وأمثالهم كثير من مشايخ علم الظاهر من قدم على الصوفية بوصف الفقر ،

وحقارة النفس فوصلوا إلى ما وصلوا إليه كأبي زكريا الانصارى والعز بن عبد السلام ومن المتأخرين سيدى مصطفى البكرى وسيدى عبد الغنى النابلسى وغيرهم إلى زماننا هذا وتأمل فى كتبهم كيف طرح الله فيها البركة إلى يوم القيامة وجعل فيها قوة جاذبة إلى جناب الحق وكل من لازم على مطالعتها صفته شيئاً فشيئاً من كدورات النفس وهذبت أخلاقه بخلاف كتب غير الصوفية فإنها مما تقوى رعونة النفس والفرق ظاهر بين الفريقين ماعدا كتب الأربعة الأئمة ومن سلك سننهم فإن فيها البركة لكونهم صنفوها خالصة لله بنية صالحة صدرت من قلب مخلص صالح منور بنور التقوى محفوظ بعين رعاية الحق من الحظوظ النفسية لكونهم من أكابر الصوفية المحققين القائمين قولا وعملا ونية بظاهر الشريعة وباطنها مع التمكين. ومن زعم أنهم قائمون بظاهرها فقط فقد استنقص بمقامهم وهو لايشعر ، ومن أراد أن يعرف قدمهم فى التصوف فينظر فى كتاب الميزان للشعرانى والطبقات الكبرى .

واعلم أن الأربعة الأئمة كلهم أولياء صوفية اتقياء ودليله قول أبي حنيفة بعد ماسلك طريق القوم لولا السنتان لهلك النعمان ، وكذلك الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم كانوا من أولياء الله تعالى الجامعين بين الشريعة والحقيقة والطريقة ، وانما كانوا متظاهرين بعلم الظاهر ليحوزوا الفضيلتين الفضيلة الأولى اجتهادهم فى قيام جدار ناموس الشريعة قولا وعملا والفضيلة الثانية نصرتها باشتغال ظواهرهم بموجب ماأمروا به من افشاء العلم بظاهر الشريعة واشتغال بواطنهم بشهود الحق فى كل حركة وسكون .

ثم اعلم أيها الأخ أنه لما كان الوصول إلى الله لايتحصل لأحد إلا بعد تركه كل ما سوى الله ذكره الناظم بعد قوله «فقيرا حقيرا» بقوله «وتاركا سواى وغيرى حبه عنك نازع» لأن القلب واحد وهو مكلف بطلب واحد ولو كلف بطلب شيئين لشق عليه ذلك وربما يعجز عن تحصيلهما دفعة واحدة لكونه

مخلوقاً عاجزاً. ومن ثمة لما علم الله عجزه أمره الله بأن يترك العجلة كما ورد«من استعجل على حاجته عوقب بالحرمان وتحصيل شيئين فى آن واحد من العجلة فالواجب على العبد من حين التكليف أن يتعلق بمعرفة الله تعالى حتى إذا عبده بعبده بالمعرفة التى تليق بكماله ويترك ماعدا ذلك لأنه ماسوى المعرفة تبع لها إذا تحصلت هى للمريد ، قال تعالى«واتقوا الله ويعلمكم الله» لكنه بعد ما يأخذ من علم الظاهر بقدر مايحتاج إليه . والشيخ المرشد نائب الرسول فى أمته يدعوهم إلى ما كان يدعوهم إليه النبى صلى الله عليه وسلم فينبغى للمريد الصادق إذا أخذ عن شيخ مرشد أن يترك ماسواه ولا يلتفت إلى غيره ، قال تعالى « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ومن لم يكن له قلبان كيف يمكنه التوجه إلى شيئين بقلب واحد . ومن التفت إلى شيخ آخر بعد أخذه عن الأول إن لم يكن يأذن له الأول فى الأخذ منه فهو لا يفلح وكان ذلك دليلا على فساد نيته إذ لوكان صادقا لثبت على اعتقاده وحبه للأول ومن ثمة أرشد الناظم كل مريد صادق إلى نزع بذر محبة الغيرمن عرضات قلبه بقوله وحبه عنك نازع ثم بين له مايكافئه عليه به إذا قام بما يلزمه من الآداب معه ، فقال رضى الله عنه :

لأسقيكَ خمْراً عُتقَتْ فى دِنانِها
مقدَّسَةً من نورها الـكَوْنُ ساطِـعُ

الخمر هو الحب عند القوم والتعتيق عبارة عن القدم والدنان كناية عن أرواح أهل المحبة من الأولياء والتقديس هوالتطهير والتنزيه ، والخمر لابد له من ساق يسقيه فالساقى هو الشيخ المرشد والمسقى خمر الحب . قال العارف بالله سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه .

أدر لى خمر الحب لاخمر حبة فتلك حلال ليس فى شربها إمترا

وشبه الحب بالخمر لأن كلا منهما فى السكر على حد سوا. غير أن شارب خمر الحب بفتح الحاء آثم ولايفيق من السكروإذا أفاق يفيق وأعضاؤه

جميعها مشوشة من آثار مرض الذنب، وشارب خمر الحب لايفيق أبدا لأن حبه متعلق بباق لايزول على الدوام ولا يفنى سرمداً .

واعلم أن الساقى حقيقةهو الله وخمرالحب المسقى هوقوله للأرواح ألست بربكم يوم ألست فسمعوا الخطاب وامتلأت دنانهم به لأن أرواح العارفين كانوا فى الصف الثانى من خلف الأنبياء والمرسلين فهم أقرب من الذين بعدهم من المؤمنين لسماع الخطاب والرؤية حين خاطبهم بذلك من غير حجاب فكان سماعهم له من سماع غير الأنبياء والمرسلين أقوى وحبهم لهم أشد وهواهم لتجديد سماع خطابه ورؤية مقدس جنابه من أهوية غيرهم أهوى وأكد فلذا احتاجوا إلى تجديد ذلك بعد ما نزلوا إلى عالم الشهادة من حضرة السيد المالك وتشويش الخاطر منهم بعد ماحصلت الفرقة بسبب حصول المنافع وهو استيلاء ظلمة الناسوت على الروح وعظمت عليهم المشقة اختار الله لهم منهم مجددين وسقاة وهم الأنبياء والمرسلون ونوابهم من الأولياء والعارفين فاحيوهم بتجديد شرب راح المحبة بعد ماكانوا أمواتاً . قال تعالى « أفمن كان ميتاً فأحييناه » وأظهروا لهم منهم ماهو موجود فيهم ومستتر عنهم تحت سدال البشرية ومحجوب عنهم بحجاب ظلمة الذنوب لما زندوا لهم بزناد الذكرى أحجار أفئدتهم والقلوب عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « جددوا إيمانكم بذكر الله » .

اعلم أن الأرواح لما طال عليهم البعاد نسيت العهد لطول المدة فقست لاستيلاء النسيان عليها حتى شبهت بالأحجار وكل حجر إذا أوريته تظهر منه النار فكذلك نار المحبة كامنة فى قلوب العارفين ككمون النار فى الأحجار ، وتظهر إذا أوريتها بزناد ذكر محاسن أحبتها كظهور شمس النهار ،

واعلم أيها الأخ أن الحب إنما شبه بالخمر لمخامرته لجميع الأعضاء :

لقد علم الخمر الحلال بجامعي ... وأسكرما بين الحشا وأضالعي
فأصبحت نشوان الفؤاد بحب من ... سقاني فانساني فتاة الأجارع

وأما قول الناظم رضى الله عنه مقدسة أى مطهرة عن وصمة التحريم والكراهه ومنزهة عن صفة الحب الحـــادث ولو بالغ فى إخلاصه ذو فطانة ونباهة . وقوله «من نورها الكون ساطع » إشارة إلى أن الكون برمته وما فيه مشرق بأنوار آثار حبه لله . وساطع بشمس دليل « وأن من شىء إلا يسبح بحمده » ولا هج على ممر الزمان بثناه .

ولاشك أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره واستهتر بحمده حين غدوه ورواحه فى وكره ، فإن قلت إذا كان الكون وما فيه محب لله وحامد له فما الفرق حينئذ بين حبه وحب العارفين بالله ؟ الجواب أن العارفين أحبوه وحمدوه به لابهم والكون إنما أحبه وحمده من جهة كونه منعماً وكل منعم مستحق للحمد والمحبة ففرق بين من أحب الله بالله ومن أحبه وحمده لكونه مستحقا للحمد والمحبة لأن الذى حمد الله بالله فان عن كل ماسواه ومن أحبه لكونه مستحقاً للحمد حمده معلول لأنه مسبوق بشهود نعمة أوجبت الاستحقاق له من العبد بالحمد والثناء عليه . فحكم هذا كأجير السوء إن أعطى الأجرة عمل وان لم يعطها ترك العمل ، ولذلك لما تحقق الناظم أن الكون ومافيه لايخلو فى توجهه من العلة إلامن اصطفاهم لقربه وقربهم من ناديه . صدر البيت بحرف العلة ليرغب الطالب فقال « لأسقيك خمرا » .

اعلم أن كل سالك لايخلو عند أول دخوله فى الطريق من العلة ولا يسلم منها إلا بعد ماتفنى نفسه عن رؤية الأغيار ومادام الإنسان غافلا عن تزكية نفسه بالأعمال الشرعية ولم يذق حلاوة فناء الأفعال وفناء الصفات فحركاته بالطاعة لم تنفك مشوبة بعلة وكل إنسان يشهد ذلك من نفسه إذا نظر إليها بعين الانصاف . ثم قال رضى الله عنه :

بِهَا هَامَ شِبْلِي وجُنَّ بِشُرْبِهَا
جُنَيْدٌ وإبراهيم فى الحَىِّ خَالِعُ

والهيام غيبته عن سوى المحبوب وتعطشه إلى لقائه والشبلى اسمه دلاف وكنيته أبو بكر ولكنه لما نادته هواتف الحقيقة يادلاف شب لى على الطاعة كما شبيت لى عليها جعلوا الكلمتين كالكلمة الواحدة ولقبوه بها ويحتمل أنه لما تأسد فى الرجال وأعطى قوة الحال وصار يتصرف بمظهر الجلال لقبه الحق على لسان عبده بالشبلى ، لأن الشبل هو الأسد وأضافه الحق إليه لأنه مظهر جلاله فى الأرض وقوله بها هام ، أى غاب بها عن جميع الأكوان أو أن هام بمعنى ازداد تعطشاً لما شرب من خمر المحبة وخامر خمرها ظاهرة وباطنة حتى شاهد جمال الساقى وليس الساقى فى الحقيقة إلا الله كما بيناه فى شرح البيت الذى قبل هذا وإنما سميت المشايخ سقاة على طريق المجاز لكونهم وسائط بين المريد ومواهب الحق قال تعالى « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » أضاف العطاء إلى ذاته وأشار فى الآية إلى أن العبد إذا من بشىء أو أمسك إنما ذلك من الله حقيقة ونسبته إلى العبد مجازاً . سمعت الأستاذ مرة يقول ليس لمشايخى على منة إنما المنة لرسول الله على والمنة من رسول الله هى عين المنه من الله لأن يده يد الله ، قال تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » وأكد ذلك بقوله ، يدالله فوق أيديهم ، لأن يد الرسول كانت فوق أيديهم فى حالة المبايعة . وليس المراد باليد جارحة المس بل يده عبارة عن قبوله ذلك منهم .

ثم اعلم أنه مما دلنا على فناء الشبلى فى جمال الساقى الذى هو عبارة عن الحق محافظته على ذكره باسم الذات وهو الله الله فقيل له مرة لم لا تقول لا إله إلا الله ؟ فقال أخاف أن تدركنى المنية قبل أن أقول الله ، خاف رضى الله عنه على نفسه الشريفة أن تفارق جسمه النورانى غير مصحوبة بذكر اسم محبوبه وإن كان ذلك موجودا فى قلبه لكنه من شدة فنائه فيه حرص على ظاهره

أن لايكون غافلا عن ذكر محبوبه ولوطرفة عين حتى يكون ظاهره مطابقا فى دوام الذكر لباطنه .

وأما قوله « وجن بشربها جنيد » بضم الجيم وفتحها وعلى الوجهين هما بمعنى الجنة بضم الجيم أى الستر ، ومن ثمة يسمى الصبى جنيناً ما دام مستورا فى بطن أمه ، وسميت الجن جنا وإذا كان الأمر ما ذكرناه فيكون معنى وجن حينئذ أى وستر بضم الجين أى وستر الله حال الجنيد لما شرب من راح المحبة حفظاً له لئلا ينكر عليه أهل زمانه فى ذلك فيؤذونه إذا اطلعوا عليه لقصور عقولهم عن المعرفة بمحبة الله ، وإذا كان بالفتح فيكون المعنى وستر الجنيد حاله لما خامره خمر المحبة غيرة منه على محبوبة لكى لايبوح باسمه ، وفعله هذا دليل على تمكينه من الكمال وملاكه لنفسه لئلا تجول حول هتك حمى محارم الله تعالى عند سفاسف الرجال لأن جن مأخوذ من جننت الميت إذا واريته فى التراب أو سترته. ومن الأسباب التى كان يتستر بها تظاهره عند عامة الناس بتدريس علم الظاهر وإذا خلا بالخواص منهم تكلم معهم فى الحقائق وأظهر لهم المحبة ومن ثمة لقب بشيخ الطائفتين . ويحتمل أن يكون معنى جن بضم الجيم أى نسب للجنون عند بعض العوام لما اطلعوا عليه يقرر فى الحقائق أو سمعوا ذلك عنه أو نظروا فى بعض مصنفاته وما فهموا إشاراته فيها. ويحتمل أن يكون جن بفتح الجيم أى تظاهر للعوام بالجنون لا عند من كان حاله الكتم من أهل الله لما أفشى سر المحبة ورفع سدال الكتم عن محيا سر الوحدة وهذا المحبوب ، وبى السالك عن شهود حدة الحق محجوب ويحتمل أن يكون جن بالفتح بمعنى ظهر وعلا مقامه . مأخود من جن البنات بمعنى ارتفع والتف وظهرت أزهارة ، وأزهار الجنيد نشر علومه واتفاق الخلق واجتماعهم عليه دليل على ظهوره وارتفاع مقامه .

وأما معنى قول الناظم « وإبراهيم فى الحى خالع » الخلع عند الصوفية هو

خروج السالك عن كل ماسوى الله ،وإبراهيم هذا هو ابن أدهم رضى الله عنه يلقب بسيد الزهاد كان ملكا بمجازى فخرج يوما للصيد فسمع قائلا يقول من سرج فرسه، ياإبراهيم ماخلقت لهذا. فلما سمع ذلك الخطاب وقع فى قلبه وقعة السهم إذا أصاب ، فنزل عن فرسه وهام فى البرارى والقفار ، وخلع ملكه وأولاده ونعيمه طمعا فيما عند العزيز الغفار ، والحى هو الموضع المعمور بوجود السكان ، والمراد به هنا الوجود لأنه حي بما أودع الله فيه من المخلوقات على مر الأوقات والزمان .

ويحتمل أن يكون معنى «وإبراهيم فى الحى خالع» أى فى محبة الحى خالع أى تارك كل ماسواه والحى هو الله قال تعالى جل شأنه ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، وكلا الاحتمالين صحيح فعلى الاحتمال الأول يكون معنى خالع أى تارك لأهل الدنيا دنياهم وعلى الاحتمال الثانى أى تارك كل ماسوى الحى لما تحققت بأنه فان . وذكر الشيخ الشبلى والجنيد وسيدى إبراهيم أشارة إلى أن كل من سقاه من تلامذته وامتثل لما يأمره به وعمل بمقتضاه يصل إن شاء الله إلى ماوصلوا إليه هذه الثلاثة الأكابر ، فان مقام الجنيد الصحو ومقام الشبلى الفناء ومقام إبراهيم الزهد فيما سوى المليك القادر .

ولما سقانى من مدامة حبه   فنيت به عن كل ماهو فان
وحين رآنى قد خرجت عن السوى
ووجهت وجهى نحوه وجنانى
دعانى اليه فانثنيت له به   وأشهدنى أن ليس ثمة ثان
وعرفنى ماكنت أجهل نعته   فنلت بقائى فى فناء كيانى
ولما بصحوى جاد صرت له به   أقود أخا لهو أسير أمان

ثم قال رضى الله عنه بعد مارغب السالكين فى شرب مدام الحب معرضا لهم بنفسه ليعرفهم بذلك بأن لكل زمان ساقيا يسقى هذا المدام وهو ساقى زمانه ومهرهنا لهم بأن فى كل أوان وارثا محمديا وهو الوارث فى أوانه ودليله

دعاؤه لهم إلى الله بتعرض ذكر مقامه وتعرفه لهم بما لديه مما خصه الله به اقتداء بالمصطفى فى تعريفه لقريش بأنه رسول من عند الله وتعرضه لهم فى أيام المواسم يدعوهم إلى الله وإخباره لهم بأنه سيد ولد آدم وأنه السيد الأبر ليرغبوا فى إجابة مادعاهم إليه ليفوزوا بالنجاة فى يوم المحشر وفعله هذا باظهار نفسه دليل على كمال متابعته للشارع صلى الله عليه وسلم ، ثم قال رضى الله عنه :

أَنَا سَاقِي الأَقْدَاحَ فِي حَانِ حَضْرَتِي
وَكُلُّ وَلِيٍّ مِنْ شَرَابِي كَارِعُ

الحانة هى مجلس الذكر والأقداح هى ذوات الذاكرين لأنها أوان لراح المحبة وظروف الأسرار ولما كانت ذوات الذاكرين خالية من الأسرار التى أدناها غيبة الذاكر فى المذكور ومفتقرة إلى من يعمرها به لتزداد نورا على نور، أرشد الذاكر إلى نفسه وعرفه بأنه هو المعمر للاوانى الخالية عن الحضور وأنه هو الساقى لمدام المحبة المذكور ، ويحتمل أن تكون الأقداح هى لا إله إلا الله ، لأن كل كلمة منها قدح مشتمل على معنى من المعانى وذلك المعنى هو راحه ، وقوله أنا ساقى، أى ملقن هذه الكلمة .

واعلم أن هنا شرطا يلزم من أراد أن تحصل له الغيبة عن الذكر فى المذكور ولم يذكره الشيخ استغناء عنه بذكره فى كتب الصوفية والشرط هو استحضار المريد صورة شيخه فى حالة الذكر واستمداده منه معتقدا أن مدده من مدد النبى صلى الله عليه وسلم ، فان أتى بهذا الشرط حالة كونه ذاكرا مستحضرا معنى الذكر حصلت له النتيجة . ومن لم يأت بالشرط لم يفلح بالنتيجة لكونها متوقفة على استحضار صورة الشيخ بالتوجه الباطنى فى طلب المدد منه ، والسر فى ذلك أن همة المريد قاصرة عن حصول النتيجة لوقوفه مع الأكوان وقوة تمكن صورها منه فى الجنان وتسلط الشيطان عليه فى وقت الذكر ولا تندفع عنه هذه الأشياء إلا بتوجه المرشد إليه . بلغنى أن بعض الأولياء

رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام . فقال له يارسول الله حدثنى بحديث لم يسمعه قبلى أحد منك فقال له «جلسة بين يدى ولى من أولياء الله تعالى بقدر حلب شاة أوشى بيضة أفضل من عبادة سبعين سنة» فسألت شيخى الناظم رضى الله عنه عن هذا المقدار القليل كيف يقوم مقام سبعين سنة فقال المريد يسير فى هذه السبعين سنة بهمته والشيخ يوصله فى هذه المدة اليسيرة إلى مطلوبه بهمته وهمة الشيخ المرشد من همة الله وهمة المريد من نفسه وهمة النفس ضعيفة. قال تعالى «وخلق الإنسان ضعيفا» فهمة الشيخ المرشد قوية لأنها مفاضة عليه من القوى المتين ، فأين همة هذا من هذا فانظر إلى الفرق بين الهمتين ، إن كنت ممن ينظر الأشياء بعينين ، يظهر لك معنى قول رسول تنزه عن النوم والسنة ، «أفضل من عبادة سبعين سنة» .

ثم قال رضى الله عنه فى الشطر الثانى مبرهنا عن شرف مدامه الذى يفيض به على من طلب منه ذلك ، ومبينا فضله باستعمال خواص عباد الله المقربين منه كذلك ، وهو قوله «وكل ولى من شرابى كارع» أى وكل ولى كامل من شرابى الذى شربت منه شارب بمراشف افتقاره إليه ، ومتناول كأسه بأنامل انكساره وإقباله بالذل عليه ، فمن القوم من سكر منه ولم يفق أبدا فهذا لم يكن للغير ساقيا ، لأنه غائب فى سكره لم يشعر بالغير وعنه فى جمال ساقيه فانيا ، ومنهم من أصبح بينه و بين السكر سجال ، فتارة ينال السكر منه وتارة يصول هو على السكر صولة الأسد الصوال ومنهم من يصول على الحال ولا يصول عليه الحال ، وهذا هو الرجل المعدود من الرجال . سمعت شيخنا رضى الله عنه مرة يقول الرجل من يغلب الحال ، لا من يغلبه الحال . والرجل الذى يغلب الحال هو الذى يكون صاحيا بظاهره على الدوام ، يعطى كل المراتب حقها مرضيا بذلك الخاص والعام ، يبلغ الحكمة بملوك الكلام ، ويقرب الألفة بحسن السيرة فى المبدأ منه والختام . وسكرانا بباطنه

غارقا فى بحر الأحدية ، وغائرا أى بسره فى لجة تيار سر الهوية ، قد قذفت بظاهره يد الحضرة الغيبة بساحل قاموس مظاهر الواحدية ، ليصطاد النافر بفلاته من ذوات النفوس الوحشية ، ويغله بغل الحقيقة ويدخله فى قفص العبودية، وصاحب هذا المقام المذكور، أرق من الذى قبله مزبور، والمتوسط بينهما أرق من الأول ، والختم زاد فى المقام عليهما لكونه جاد على المحتاج بجوده وتطول ، وهاك بيان حال الثلاثة المذكورة كما شاهدته ممن خصهم الله بوراثة الأنبياء والمرسلين .

اعلم أنى لما سافرت إلى أرض اليمن المشرفة باشراق بدور أولى الفضل ، المتشرفة بالوارد فيها «ينبت الأولياء فى اليمن كما ينبت البقل» ، اجتمعت فيها بالولى الكامل ، والعارف بالله المجذوب الواصل ، سيدنا ومولانا السيد مهدى واصل فرأيته دائما فى سكر غائبا عن الأكوان ، يسجد إلى الجهات الست اشارة إلى أنه يشهد محبوبه فى كل مكان. ومن كان دائما فى السكر لاينتفع به إلا فى دعوة صالحة لقصور نفعه عليه ، إلا إذا عاد إلى الصحو بحسن منقلبه وصار ممن يشار بالبنان اليه . وصاحب هذا المقام الشريف ، هو الأنزل من الثلاثة كما سبق فى التعريف .

وأما الاوسط الذى بينه و بين السكر سجال كسيدى عبد الله المرغنى المجلبب بجلباب الكمال ، فإنه كان فى اليوم الواحد يتلون مرارا ، فتارة تجده فى صحو فتجنى من ألفاظه المحلاة بالمعرفة ثمارا ، وتارة تراه فى سكر يشتم من يكون حاضرا عنده ، فيقوم هو ومن يكون معه من حضرته عازمين على عدم العود اليه ناقصين فى المودة ، ومنهم من ينكر عليه بسره، ومنهم من يعزم أن لا يعود إليه ويصمم على هجره ، وصاحب هذا المقام لاينتفع به إلا الصادق فى المحبة، وأما المعتقد فإنه على خطر بخلاف من كان متصفا بالمحبة ، والمحبون قليلون ، والصادقون أقل بل هم نادرون .

دخل مرة على مولانا المذكور ، الشيخ حسن سنان المدنى ذى الصلاح

والنور ، فشتمه السيد وقال له يازنديق فقال له صدقت ياسيدى أنا زنديق وماتغير عليه حاله . ثم قال له ياكافر فقال له صدقت أنا كافر وماكدر عليه مقاله . ثم قال له يافاسق فقال صدقت أنا فاسق وتذلل بين يديه تذلل من قيده نواله ، فلما رأى السيد صبره عليه ، علم أنه فى محبته صادق فادناه اليه ، ومسح بيده الشريفة على صدره وظهره ، ثم دعا له بخير وفاز منه بانجلاء صدره . ودخل أيضا شخص مرة عليه من علماء الموالك ، فشتمه فخرج من عنده ولم يعد له بعد ذلك .

وصاحب هذا المقام هو الأوسط ورتبته عن رتبة الأخير أحط ، والأخير كقطب الاقطاب ، ومحط ركاب المحبين والأحباب ، بحر الحقيقة ورأس رؤساء أرباب العرفان ، المجاور حسا ومعنى للمصطفى من عدنان ، العارف بالله ، والدال بمقاله وحاله على الله ، سيدى الشيخ محمد السمان نفعنا الله به وبهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم مع الأنبياء والمرسلين . كان دائما فى صحو كآحاد الناس ، لايكاد يراه إنسان على غير ما كان يعهده عليه من الملاطفة لجميع الأجناس ، كان مخفوض الجناح لين الجانب ، حسن الخلق حليما برا للأباعد والأقارب ، يربى المريدين كلا على حسب استعداده ، ويعامل كل من اجتمع عليه بما يقربه من مراده : حتى أن أحدهم إذا خرج من حضرته ، يقول الناس الشيخ يحبنى أكثر من أقاربه وعشيرته .

وقد اختلفت أحوال القوم كما سمعت والمشروب واحد ، وتنوعت أشاراتهم والمشار إليه بها فرد رغما على كل جاحد ، ويحتمل أن معنى قوله « وكل ولى من شرابى كارع يشير به إلى أنه خص بالشرب على الوجه المعلوم دون الأولياء من أهل عصره عند سقاة شراب السر المكتوم ، ومفهوم هذه الإشارة ظهر من قوله وكل ولى من شراب كارع لأن الكارع هو الذى يغرف الماء بيديه ويشرب منه الشرب المعتاد ، ومن كان شربه كذلك فهو أقل رتبة عن يأخذ الإناء بكلتا يديه ويضعه على فيه ويشربه كيف ماأراد ، ومن كان شربه

بهذه الحالة فهو المتمكن من الحال لتمكنه من الشرب المطابق للمراد ، فظهر من هذه الاشارة أن الشيخ أمكن من الأول والثانى ومن عاصره من أرباب التمكن ويشهد بتخصيصه له فى هذا المقام ، قوله رضى الله عنه وجمعنا به فى دار السلام .

أنَا الفَرْدُ قُطْبُ الوقْتِ والوقْتُ كُلُّه
مُجِيبٌ لأمْرِى يا مُرِيدِى وطَائِعُ

« الفرد » خارج عن حكم القطب وهو لايكون إلا واحدا فى كل زمان وسمى الفرد فردا لأنه أفرد للحق بقطع تعلقه بالخلق بخلاف القطب ، لأن القطب له وجه إلى الحق ووجه إلى الخلق يمدهم به لأنه خليفة الله فى الأرض على عباده ، وقد فوض اليه أمرهم فاذا انتقل الفرد من دار الفناء ارتفع القطب إلى موضعه وصار فردا وامداده حينئذ يكون من فردانية الحق بخلاف القطب فان القطب يتلقى من الحقيقة المحمدية .

أخبرنى سلطان الموحدين ، ورئيس العارفين ، أمام الملامتية ، الناطق بأسرار سر القيومية ، سيدى الشيخ على الكردى قدس الله سره قال: للقطب روحانية دائما بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفارقه لحظة واحدة والقطب مسكنه بمكة المشرفة بجسده الشريف وله أيضا وزيران يسميان الإمامين لايفارقانه ابدا،وله روحانية فى السماء فاذا نزل مثلا أمر من السماء من قبل الحق ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فيبلغه النبى صلى الله عليه وسلم إلى روحانية القطب وروحانيته تبلغه للوزيرين أعنى الإمامين الكائنين بين يديه وهما أى الإمامان المذكوران يبلغانه إلى القطب.فان كان الأمر مضمونه رحمة أمد به الوجود وإن كان بخلاف ذلك تحمل هو البعض ودفع للامامين حصتهما من ذلك ثم فرقه على الأولياء ثم على صلحاء الأمة المحمدية ومابقى منه فرقه على عامة الخلق حتى أن الإنسان إذا أصابه هم وهو لا يعلم له سببا فان ذلك الهم هو حظه مما فرقه القطب فافهم .

ومن ثمة لما كان الفرد فى الرتبة من جهة كونه فرد الحق أعلى من رتبة من كان أمره مشتركا بين الخلق والحق قدمه الناظم فى الذكر إشارة إلى انفراد مقامه، وليفهم بتقديمه أنه ولى المقامين فقال «أنا الفرد قطب الوقت» وفيه إشارة أيضا إلى أن الوجود بأمره تحت أحكامه بدليل قوله «والوقت كله لامرى مجيب» أى إذا أمرته بأمر ما وطائع أى إذا نهيته عن أمر ما وفيه إشارة أيضا إلى أن القطب فى بعض الأحيان يرجع إلى الفرد فى الأمر المهم ويشاوره فيه عملا بقوله تعالى «وشاورهم فى الأمر» ويعمل بمقتضى ما يأمره به ونظير هذه الحالة من الخارج أن بعض ملوك الجاوى يخلع نفسه من الملك ويولى مكانه ولده وينفرد بمقام، يسمى عندهم ذلك المقام سهونن ثم أن الملك الذى ولاه فى مكانه يرجع اليه فى بعض الأمور المهمة ويعمل برأيه فكل تراتيب الأولياء لها نظير من الخارج فافهم ذلك .

واعلم أن الناظم مانبه المريد دون غيره على رفعة مقامه وخصصه بالنداء بقوله يامريدى إلا ليتوجه إليه فى طلب المدد بكمال التوجه واعلم أيضاً أنه إنما ذكر فى هـــذه القصيدة الفردانية والولاية والقطبانية وكونه ساق الاقداح وخص بهذه المقامات نفسه ليعرف بذلك من جهل مقامه ليدنو منه وينتفع به أو يمسك عن الإنكار عليه ويحفظ ظاهره وباطنه عن الوقوع فيه ثم اعلم أن هنا مقاماً أعلى وأغلى من جميع المقامات المذكورة وغيرها وهو مقام خاتم الولاية المحمدية ، لأن كل ولى من الأولياء على قدم نبى من الأنبياء والخاتم إعلى قدم خاتم الأنبياء فكما أن خاتم الأنبياء أفضلهم مقاماً عند الله فكذلك من كان خاتم طائفة السائرين على قدمه صلى الله عليه وسلم أفضل ممن كان على قدم غيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكان الأستاذ رضى الله عنه خاتم الولاية المحمدية كما أشار هو بذلك إلى نفسه وهو قوله «أنا خاتم الولاية المحمدية» ودليل صحة دعواه أن جميع أولياء عصره سلموا له ذلك ولم يسمع أن أحداً اعترض عليه .

وقد سبقت لك قبل هذا الدليل دليلا آخر يدلك على أنه خاتم الولاية المحمدية بإشارة واضحة وهو ماأخبرنا به العلامة مولانا الشيخ إبراهيم المدرس بالمسجد النبوى قال: قال لى الأستاذ رضى الله عنه يا إبراهيم الشيخ الأكبر ذكر أن خاتم الولاية المحمدية له علامة فهل رأيت فى تلك العلامة فقلت لا فأرانى إياها فيه وقال لى ياإبراهيم أنا خاتم الولاية المحمدية ثم هنا دليل آخر مؤكد لما أخبر به الشيخ إبراهيم المذكور أخبرنى مولانا المرحوم السيد محمد بن عثمان الصايغ قال اجتمعت برجل من صلحاء أهل سنار وأخبرنى أن له أستاذاً فقال له ياولدى إذا وصلت إلى المدينة المنورة توجه إلى زيارة الشيخ محمد السمان بعد زيارة المصطفى فهو خاتم أهل الولاية المحمدية فى عصره وهو المهدى ،وماأدرى ماأرادبقوله وهو المهدى ثم قال له وعلامة ذلك أنك تجد فى يده اليمنى العلامة الفلانية قال فلما دخلت عليه وسلمت أخذت بيده اليمنى وجعلت أقبلها مرارا لأرى العلامة . فكاشف على أمرى فبسطها فرأيتها فى كفه كما أشار بها أستاذى رضى الله عنهما ، فهم هذه الاشارة ترشد إلى تصحيح ماقررنا بالاشارة التى قبلها وغيرها إن شاء الله تعالى .

ثم اعلم أيضا أيضا أنه مما دلنا على صحة قوله أنا الفرد أنى رأيته ذات ليلة فى رؤيا وعلى رأسه قدح وله وفرة قد اتصلت بشحمة أذنيه وهو دائر فى شوارع المدينة فقلت من هذا ؟ فقيل لى هذا الفرد ورتبة الفرد قد بينتها لك فلاحاجة إلى العود إليها فتأمل رحمك الله فيما أشار هو إلى نفسه فى هذه القصيدة وإلى ماصرح به أيضا عن مقامه .وكذلك إلى ماأوردناه فى هذا الكتاب فإذا تأملت فيهما جميعا ظهر لك بعد هذه العبارات كلها أن الأستاذ رضى الله عنه قد مر على مقامات السلوك جميعاً وصار كاملا مكملا وأنه كما سيأتى ذكره قد تجاوز جميع المقامات بقوله رضى الله عنه وكل مقام فى الهوى قد سلكته فينبغى لك أن تهرع وتقبل بكليتك عليه وتجتهد فى صلاح نفسك على يديه وتكميلها ، وتظفر بعد اجمال المعرفة بتفصيلها لتعطى كل صفة قائمة به حقها، وكل معنى كائن بها من المراتب ماتستحقها ، وتنتظم فى سلك ، إن الذين قالوا

ربنا الله ثم استقاموا ، وتكون ممن ولج حمى الأحباب لا من الذين حوله حاموا ، ثم قال رضى الله عنه :

أنا القادِرِىُّ السِّنُّ واسْمِى مُحَمَّدٌ
وفَخْرِى فى الأَكْوانِ للناسِ شائِعُ

قوله أنا القادرى أى قادرى المشرب أى مشربى فى طريق الله ومشرب الشيخ عبد القادر واحد لا المراد أنه سالك على طريقته بالتبعية لأن لكل زمان كما علمت دولة ورجالا وكان الشيخ رضى الله عنه فى زمنه صاحب وقته وكان شيخنا مرشدا صاحب طريقة بالاستقلال ودليلنا على أنه صاحب طريقة بالاستقلال أنى سمعته مرة يقول لو كان عبد القادر بالمدينة ما قال أنا عبدالقادر وكان كثيرا ما يشير بالحديث إلى نفسه بأنه أكمل ممن تقدمه بقوله عليه الصلاة والسلام أمتى كالمطر لا يدرى أولها خير من آخرها أو آخرها خير من أولها أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وقال مرة فى مرضه والله أن الذى أدركته ما أدركه عبد القادر ولا البدوى ولا الرفاعى ولا الدسوقى . وقال مرة لجماعة كانوا جلوسا عنده نحن طريقتنا قادرية ومذهبنا ومذهب محيى الدين واحد رضى الله عنهم أجمعين وأماتنا على حبهم وحشرنا فى زمرتهم .

اعلم يا أخى أن الولى إذا وصل إلى مقام الخلافة وأمر بالإرشاد والتحكيم استقل بطريقة على حدة فتأمل إلى سيدنا ومولانا القطب الربانى الشيخ عبد القادر الجيلانى كيف لما بلغ درجة الكمال ، وولى الخلافة الكبرى فى عصره دون من عاصره من الرجال ، استقل بطريقة ونسبت إليه مع أن شيخه الذى تلقنها عنه سيدى القاضى مبارك وكذلك سيدى أحمد البدوى شيخه سيدى عبد السلام بن المشيش ، ولكنه لما كمله الله بالمعارف الربانية ، وخلفه على سائر البرية ، استقل بطريقة نسبت إليه ، وكذلك الرفاعى والدسوقى وكل ولى أنعم الله بالخلافة عليه ، ومنهم من لم يؤمر بالانفراد فهو

يرشد على طريقة شيخه الذى أخذ عنه وقس على هذا الحكم فى كل زمان إلى نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وفضل الله كما يجب الإيمان به بأنه لايحصر ، كذلك يجب الإيمان بأنه لايحصر على شىء واحد وكيف يحصر وقد قال تعالى « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » وقال جل شأنه « كل يوم هو فى شأن » فعطاء الله لا نهاية له وكمالاته الكائنة فى خزانة علمه لا غاية لها ولا نفاد ، قال عز من قائل « ماعندكم ينفد وماعند الله باق » فلو حصرت فضله على من تقدم تكذبك هذه الآيات ويكذبك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام أمتى كالمطر الحديث المتقدم ذكره فكيف يتصور الحصر والحديث والآيات اللذان تقدم ذكرهما يشيران إلى إبهام فضل الله وكمالاته وسعتهما وعدم الحصر فإذا علمت ذلك فقد انتفى التمييز بين من تقدم من القوم ومن تأخر منهم لإبهام الأمر المفهوم من الحديث المذكور فلا ينبغى لأحد بعد هذا الدليل أن يميز بين مراتب أهل الله إلا إذا وصل إلى ماوصلوا إليه من الكشف عن أحوال الرجال ومن فضل بينهم برؤية حسب ماظهر له من أحوالهم يخشى عليه من سطواتهم لأنه لايرضون بذلك إلا عمن كان فى ميزانهم ، فاحذر أن تميز بينهم فتقع فى مثل ماوقعت أنا فيه لولا أن الأستاذ رضى الله عنه أخذ بيدى وأنقذنى لهلكت وذلك أنى كنت جالسا يوماً مع الرجل الصالح الشيخ أحمد الجبرتى تلميذ العارف بالله سيدى أحمد الأشبولى رضى الله عنه فتذاكرنا فى مناقب سيدى عمر بن الفارض وسيدى محيى الدين ابن العربى رضى الله عنهما فقلت له سيدى عمر بن الفارض الذى يظهر من كلامه فى ديوانه أنه أعلى درجة وأفضل من سيدى محيى الدين فقال لا بل سيدى محيى الدين أفضل فقمنا من المجلس وكل واحد منا مصمم على فضيلة صاحبه وكانت هذه المباحثة بيننا فى ضحوة النهار فلما جاء وقت صلاة العصر مضيت إلى الصلاة وجلست فى المسجد إلى أن قرب وقت المغرب ومضيت إلى الشيخ فوجدته جالساً فى المسجد قريبا من باب النساء فسلمت عليه

وجلست بين يديه فالتفت إلى وقال لى هل صار بينك وبين أحد مجادلة فى شىء وكنت قد نسيت ماوقع لى مع الشيخ أحد فقلت لا ياسيدى ، فكرر على السؤال فلما علم أنى قد نسيت ذلك حين رآنى لم أرد له جوابا عما صار لى قال ماصار بينك وبين أحد تفضيل بين الأولياء فلما سمعت ذلك منه تذكرت الواقعة وقلت له بلى ياسيدى وأخبرته القصة وكنت أظن أنه يقرنى على ذلك فقال لى أنت وأحد الجبرتى هل وصلتما إلى مقام التمييز بين الأولياء ، ثم قال انظر إلى هؤلاء الناس فى المسجد هل تعرف أحداً منهم بالولاية حتى تفرق بينهم فكيف تميز بين أناس قد مضوا وما رأيتهم أ . ا .

ثم قال جميع الأولياء قد غضبوا عليكما فلما سمعت ذلك منه اقشعر جلدى واصفر لونى من هيبة كلامه وطاش عقلى فلما رآنى قد صرت فى هذه الحالة قال لى لا تخف وقت الصلحة فى لحة قد أصلحنا أمرك معهم ثم قال لايفرق بين أولياء الله إلا من وصل إلى مقامهم وعلم بأحوالهم فلما سمعت ذلك منه سكن روعى وذهب خوفى وعاهدت الله أن لا أفرق بعد ذلك بين أحد منهم وسلكت مسلك ماشرع لى من مفهوم «لا نفرق بين أحد من رسله» نعم عليك أن تميز أهل القرن الأول وهو القرن الذى كان فيه النبى صلى الله عليه وسلم بالخيرية والأفضلية تخصيصاً ثم الذى يليه ثم الذى يليه إجمالا لكونهما لم يعطفا عليه بالواو المفيدة لمقارنتهما له فى الخيرة المخصوصة به بإضافته إليه صلى الله عليه وسلم بصريح قوله عليه السلام خير القرون قرنى ثم الذى يليه ثم الذى يليه ،وحيث كانا معطوفين عليه بثم المفيدة للتراخى جاز لك أن تميز خصوص مابعدهما على خصوصهما ماخلا من وجد فى القرن الثانى من الصحابة لأنهم من خصوص أهل القرن الأول ووجه الجواز أن التخلل بين المتراخى والمتراخى عنه ممكن وإلى هذا الإمكان أشار خبر « أمتى كالمطر لايدرى أولها خير من آخرها أم آخرها خير من أولها والأولية فيه تحمل على القرن الثانى للعلة المذكورة فافهم هذه الإشارة اللطيفة .

ومن هنا ساغ لك أن تميز مرشدك على خصوص أهل القرن الثانى والثالث

ماخلا من استثنيناهم منهما من الصحابة ولولا ذلك التخلل ما ساغ لك تمييزه ولك أن تحمل الأولية الواردة فى خبر «أمتى كالمطر» على القرن الرابع لأنه أقرب للفهم أخذاً بظاهر حديث «خير القرون قرنى» إلى آخره ولا حاجة إلى التأويل وإن كان له وجه مقبول الصحة فافهم ترشد .

واعلم يا أخى أنى ذكرت لك سابقا إشارة تدلك على أنه لا ينبغى لك أن تحصر فضل الله تعالى على شخص أو أن تحصره فيمن تقدم دون من تأخر واستشهدت لك بالآيات والحديث وهنا آيات أخر تدلك على ذلك إذا لم تكتف بما سبق ذكره هنالك ، منها قوله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ومنها قوله تعالى « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت » أى من النقص والكمال « ولكم ما كسبتم » كذلك من النقص والكمال فمن كان يؤمن بأن الله تعالى ذاته لا تنحصر ولا تحد ولا تكيف ولا تختص بجهة فكذلك يجب عليه الإيمان بأن كمالاته لا تنحصر ولا تحد ولا تكيف ولا تختص بشيء دون شيء ومن خص بها شخصا دون شخص فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصوفية ولما كانت كمالاته لا نهاية لها كذلك لم يزل صلى الله عليه وسلم فى ترق فى البرزخ ويوم القيامة وفى الجنة وإلى الأبد ، دائما بدوام الإله السرمد ، وساغ للمريد أن يعتقد فى شيخه الذى أخذ عنه بأنه أكمل أهل زمانه والقرن الثانى والثالث ماخلا من وجد فيهما ممن استثنيناهم سابقا ولا حرج عليه منهم فى ذلك وإن لم يعتقد بأنه أكمل أولياء عصره لم تصح بيعته لوجود الخلل فى معتقده كما لا يصح تقليد من يعتقد أن مذهب الشافعى أصح من مذهبه إذا كان هو حنفيا أو مالكيا أو حنبليا .

ثم اعلم أنه لما كان لقب الرجل يميزه عن من شاركه فى التسمية ، قال الناظم رضى الله عنه « أنا القادرى السمان » والسمان مبالغة فى تسمين الشيء ولقب بذلك لكون أن قلوب المريدين المرضى من أوحال الذنوب الذى حجبها عن مشاهدة أسرار الغيوب ، استسمنت بتوجهاته لها بغذاء المعارف بعد ما كانت

مجازا أولقب بذلك لكونه يستخرج سمن الحقيقة من زبد المعارف ، فالزبد هى المعارف والحقيقة هى السمن وهى روح المعارف المكنى عنها بالزبد واللبن هى ظاهر الشريعة ، ومن ثمة فسر اللبن بعلم الشريعة لمن رأى نفسه يشرب لبنا ولما كان الناظم رضى الله عنه هو الحبر فى استخراج سمن الحقيقة من زبد المعارف المصاغة من ألبان الشريعة لقب بالسمان كما قيل فى هذا المعنى

ماسمى السمان إلا أنه زبد المعارف ساغ من ألبان
كم من عجاف قلوب قوم علها مما له قد ساغ من عرفان
فاستسمنت بعد الهزال فأصبحت
ترعى أراك مشاهـــد الإحسان
فهو الذى أضحى لنا السمان لا كالمنكرين لهم غدا سمان

والسمان بضم السين تثنية السم القاتل والإشارة فى فتحها إلى أنه مسمن بالمعارف الربانية ، قلوب المريدين المتوجهين إليه بصدق النية وفى ضمها إلى أنه سمان قاتلان لمن أنكر عليه ، قاتل لقلبه بانطفاء نور مصباح المعرفة من زجاجته ، وقاتل لظاهره بالخجل والخذلان بين يدى مولاه حين يسأله عن الإنكار عليه باندحاض حجته .

وأما كونه أظهر اسمه وصرح به للخاص والعام ، فهو دليل على فتوته ليستغيث به من حصل عليه كرب من الأنام ، فيتوجه إلى الله بهمته فى تفريج ذلك عنه ، ويقرب له مانفر من أقصى المطالب منه ، وليس تصريحه باسمه بدعة منه بل سبقه على ذلك كل كامل كان فى عصره كالجيلى والبكرى وغيرهم من الأولياء كل زمان ويشهد له بذلك ماصارت له من الوقائع ، وهى حضوره عند كل ضيق لمن به استغاث كما هو شائع ، وقد ذكرت نبذة منها فى كراسة سميتها «منايح الكريم المنان ، فى مناقب سيدى الشيخ محمد السمان» .

ومن هذه الحيثية لما كان من شأنه الذى يفتخر به ماذكرناه قال « ونخرى

فى الأكوان للناس شائع ، أى بأنى المغيث بإذن الله والمقرب بقوة الله الأمل لمن ناداني ، والكاشف بحول الله مد لهمات كل من هتف باسمي من قاص ودانى والقاطع فى أيسر مدة بقدرة الله بكل مريد إلى حمى الأحباب ، مالم يكن يقطعه بهمته فى كذا كذا من القرون والأحقاب . ثم قال رضى الله عنه :

أَنَا النورُ مَحْضاً والوَلِيُّ الذى به
أضاءتْ بُدُورُ الهُدَى فَهِيَ سَوَاطِعُ

النور اسم من أسماء الله تعالى وكل من خرج من ظلمة بشريته بقيامه بناموس الأمور الشرعية يصيرا نورا قطعا لما ورد أن النار تقول يوم القيامة للمؤمن المطيع تنح عنى يامؤمن فقد اطفأ نورك لهبي ،وورد فى الأخبار ، عن السادة الأخيار ، لو ظهر نور المؤمن العاصى لاطفأ نور الشمس ، فما بالك بمن تلاشت ظلمة بشريته فى أنوار شمس الذات العلية ودخلت تحت الخفا والطمس .

واعلم أيضا أن الولاية نور محض لأنها مشتقة من اسم الله تعالى الولى ، قال تعالى وهو الولى الحميد ، ومن أسمائه جل شأنه النور قال جل وعلا ، الله نور السموات والأرض، والبشرية ظلمة وهما ضدان واجتماع ضدين فى مظهر واحد بعد تزكيته مستحيل فإذا علمت ذلك بان لك أن قوله «أنا النور محضا» حق، وأما قوله «والولى» فذلك دليل على صحة ما ادعاه من كونه نورا لأن الولى كما قررناه اسم من أسماء الله تعالى والله جل شأنه نور واعلم أن كل اسم طابقه مسماه فى الصفة بعد تلاشى ظلمة المسمى به تحت صولة نور الاسم الذى تخلق به يصير نورا محضا وقس على ذلك فى بقية أسماء الله تعالى وإن كان ظاهره يرى بخلاف ذلك لأن ظاهره مرآة الرائى فمن نظر إلى ظاهره إنما رأى نفسه لقوله عليه السلام «المؤمن مرآة أخيه» والمراد بالمؤمن المؤمن بالإيمان الكامل كإيمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ووجه التخصيص أنه لو لم يكن هذا الاحتمال لصدق معنى الحديث على أن كل مؤمن يكون مرآة لأخيه وهذا

خلاف الواقع وينافيه قول القائل ترى مؤمنا يخشع ومؤمنا لايخشع .

اعلم أن كل مؤمن محل لظهور تجليات الحق فاذا تجلى عليه بالخشوع خشع لله ورأى المؤمن الخاشع فى مرآة ذاته خاشعا ولذا تجلى عليه بعدم الخشوع لعلة مفسدة له رأى نفسه فى مرآة أخيه الخاشع غير خاشع فيظنه هو أى المنظور إليه فان قلت إن ظاهر الحديث يصدق على كل مؤمن كامل وغير كامل أنه مرآة الجواب .

اعلم أن المرآت تختلف فى الصفة منها ماهو مطموس بدرن المعاصى وهذا لافائدة فيه لعدم المنفعة به فيتعين حينئذ تخصيصه بالمؤمن الكامل لوجود المنفعة به وتعين من هذا أيضا أن المؤمن الطائع هو الذى صفت مرآته وذاق للإيمان حلاوة وخشع لصفاء لبه ورقة حجاب قلبه والرقة والصفاء سيان موصلان إلى الكشف عن حقيقة الشىء وحقيقة الشىء هو شهود الحق فى ذلك الشىء فاذا شهد حصل الخشوع . والمؤمن الذى لايخشع هو الذى لم يذق للإيمان حلاوة لكثافة مرآته بدرن ظلمة ذنوبه وشدة مرضه وغلظة تعلقه بالدنيا المؤذنة بالعلة فى طلبه والمريض كما علمت لم يذق لذة طعام ولا شراب لوجود المرض الذى هو من أقوى السبب المانع لها عن ذلك .

ثم اعلم ياأخى أن كثيرا من المريدين الصادقين من رأى الناظم نورا محضا ، وشاهده مشاهدة لاتقبل ابراما ولا نقضا ، وقد ذكرت منهم جماعة كما مر عليك فى أول الكتاب ، وقد تكتفى بالمرة عن تكرار الدليل أولو الألباب ولما كان النور المحض من شأنه التغلب على ظلمة بشرية المريد الصادق ، وبه تصير ذاته بين أرباب أهل الظلمة كأنها البدر الشارق ، قال رضى الله عنه والذى به أضاءت بدور الهدى فى سواطع أراد بالبدور خلفاءه الذين صدرهم للارشاد ، وبعثهم فى سائر البلاد لصلاح العباد ، ووصفهم بالبدور لشدة أنوارهم ، المكتسبة لهم من صدق توجههم إلى الله تعالى بصفاء أسرارهم وأضافهم إلى الهدى لكونهم مهديين بفتح الميم فى أنفسهم ، ومهديين من

الخليقة لأنفسهم ، بفتح الفاء وتخصيص بالأنفس من العباد لأنه لايقبل مايدعونه إليه إلا من اصطفاه الله لقربه وأراد .

ولا شك أن من قبله الحق لقربه واصطفاه ، هو الأنفس وخيرة الله مما عداه . فهم لما كانوا رضى الله عنهم من هذه الحيثية أعنى خلفاءه أنوارا ، ينظرون إلى الطالب فان رأوا فيه إستعدادا إلى مايلقون إليه لقنوه واوسعوه مواهبا وأسرارا ، وإن لم يشم رائحة ذلك امسكوا عنه مخافة أن يضعوا الأشياء فى غير ما أمروا بها . لأنها أمانات عندهم وقد أمرهم الله تعالى أن يصرفوها فى محلها ، قال تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها » .

سمعت الأستاذ رضى الله عنه يقول إن من الناس من يترشح للأسرار وهو لا يؤمن على رؤية يراها بالليل يصبح يحدث بها كل من قابله بالنهار ، فكيف يؤمن على سر من أسرار الله تعالى حفظنا الله وإياك عن الوقوع فى مثل ذلك ، لأنها من اقوى الاسباب القائدة إلى المهالك ، ثم قال رضى الله عنه يفتخر بنسبه سالكا فى ذلك مسالك العرب العربا . مقتدياً بذكره له بمن ملأ الوجود محاسنا شرقاً وغرباً ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى خلق الخلق واصطفى منهم قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » ولما كان الناظم من قريش وقريش كما علمت من أشرف البطون ، لكون أن المصطفى واسطة عقدهم المكنون أفتخر الاستاذ بنسبه القرشى وذكره . واكتفى بذكر الأصل عن سرد كرائم الفرع تحاشياً عن التطويل إذا نشره ، فقال رضى الله عنه وأرضاه ، وسقى بماء المغفرة ضريحاً واراه .

أَنَا القُرَشِيُّ الحَبْرُ والعَلَمُ الذى
لِرِفْعَتِهِ جَيْشُ الوِلايَةِ خَاضِعُ

الحبر هو الذى لا ثانى له فى العلوم والعرفان ، ومن ثمة لقب ابن عباس

بحبر الأمة وترجمان القرآن رضى الله عنهما لأنه كان أعلم الصحابة وأعرفهم بالتفسير ، وأحسنهم تأدية وأهداهم فى التقرير ، ومما يدلك على أنه أعرفهم بالتفسير وأغزرهم علما، وأجودهم معرفة وأكثرهم فهما ، أنه لما نزلت قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح » السورة سأله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن تفسيرها بعد ما سأل بعض الصحابة عن ذلك ليبرهن لهم عن غزارة علمه بكشفه عما سترعنهم مقاصد السيد المالك ، فكل فسر تفسيراً موافقاً وأجاد ، ووضح معانيها وضوحاً أشفى به الفؤاد ،لأنهم رضى الله عنهم كلهم علماء ثقات ، ومصابيح لهذه الأمة هداة ، قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » أى اقتديتم فى مسائلكم الدينية اهتديتم على الصراط المستقيم واستدليتم . لكن تفسيرهم جاء غير مطابق لسبب نزولها فى نفس الأمر ،لأن السبب فى نزولها الإخبار بنقلته عليه السلام من دار الفناء إلى عالم الأمر .

ولما كان تفسيرهم ما طابق عنده مفهومه رضى الله عنه والقياس ، سأل عن تفسيرها حبر الأمام سيدنا عبد الله بن العباس ، فأشار إلى أنها تدل على نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذعنوا له بالمعرفة والزيادة فى العلم عليهم وكان الأمر كما أفاد به وتكلم . ولما علم الأستاذ نفسه بأنه وارث محمديا ، ومن لازم صاحب هذا المقام أن يكون أعلم أهل عصره ولو كان أميا ، بين لنا مقامه ورسوخ قدمه فى سائر العلوم ، ووصف نفسه بالحبر بعد ماذكر نسبه ليكون بذلك عند الناس معلوم .

أعلم أن الاستاذ رضى الله عنه كان عالماً بالشريعة والطريقة والحقيقة، وله اليد الطولى فى كل فن من العلوم الجلية والدقيقة ، غير أنه كان مشغولا بالله عن بث العلوم وبارشاد العباد على الله ودعائهم إلى حضرة الحى القيوم، كما كان الخليفة الأبر سيدنا أبو بكر الصديق الأكبر ، فإنه كان أعلم الصحابة فى سائر العلوم والمعارف ولكنه كان غائباً بحب رسول الله صلى الله

عليه وسلم عنها وفى محراب مشاهدة جماله عاكف ، ومن ثمة لم ترو عنه إلا أحاديث يسيرة عن ثقات الرواة مع أنه كان أكثرهم مجالسة له فى الخلوات والجلوات .

ومما يدلك على أن الاستاذ كان أعلم أهل زمانه ،وله اليد الطولى فى كل فن من العلوم زيادة على أقرانه، أنى كنت يوماً رأيت الشيخ جالساً فى المسجد على بساط من حرير ، فقلت فى نفسى الجلوس على الحرير حرام كيف للاستاذ يجلس عليه وهو عارف بحرير فا كمل الخاطر ، إلا وقام الأستاذ من مكانه وجاء إلى عندى ولم أحد معى فى المجلس حاضر ، فقمت له وقبلت يديه ، ووقعت على قدمه وسلمت عليه ، فالتفت إلى وقال لى أنظر إلى هؤلاء الناس يجلسون فى المسجد على بسط الحرير وهى شرعاً حرام ، فلما سمعت ذلك منه بهت وعلمت أنه قد أطلع على ما تحدثت به نفسى فأخذتنى الخشية والاحترام ، فلما رآنى قد أصابنى الخجل ، وصرت من الهيبة منه فى وجل ، قال لى لكن من جلس عليه بقصد الإهانة جاز له ذلك ، ومن جلس عليه بقصد التنعم فهو حرام فى شريعة السيد المالك ، هذا ما صار لى معه .

ثم جئته مرة أخرى لأستأذنه فى قراءة ورد السحر على شخص من العلماء ، وقلت له قصدى ياسيدى أن يفسر لى معانية ويبين لى ما كان منه مبهما فقال لى فى الجواب ، هل يعرف هو معنى قول المؤلف رضى الله عنه «بمها» كنت به أزلا، حتى تقرأ عليه الكتاب ولا الشيخ محمد الحفناوى مايعرف معنى هذه الكلمة والشيخ محمد الحفناوى رضى الله عنه كان كما علمت من العلماء الراسخين والأولياء المحققين ، ومع ذلك تأمل كيف نفى عنه المعرفة بمعنى ألفاظ ورد السحر .

واعلم أن الشيخ ليس مراده نفى ذلك عنه مطلقا بل مقصوده نفى كمال المعرفة التى هو يعرفها ولا شك أن معرفة خاتم الولاية المحمدية مختصة به

لا يشاركه فيها من هو دونه فى الرتبة . فافهم ومما يدلك أيضاً على سعة علمه وكمال معرفته فى كل فن أن إنساناً جاء إليه مرة وقال له يا سيدى لى تعلق بالوفق الثلاثى المنسوب لسيدى محمد الغزالى رضى الله عنه وطفت أقطار الأرض واجتمعت فيها على عدة من المشايخ وتلقيت عنهم طرقا فيه وما وقفت على الوجه الأكمل المقصود بالذات واجتمعت بفلان فى البصرة وتلقيت عنه طريقة فيه أيضاً ولكنه أشار لى أن أقدم عليكم . وقال لى كل الصيد فى جوف الفرا ، وها أنا قد جئتكم والأمر بعد ذلك إليكم ، فقال له أرنى جميع الطرق الذى أخذتها عن المشايخ ، فرسمت جميع ذلك له فى قرطاس طريقة بعد طريقة وهو ينظر إلى كل واحدة على حدة ويتأمل فيها وعند آخر طريقة أخذ قلما وقرطاساً ورسم له طريقة ما سمع بها قط وما رآها فى كتاب فتحير فى حسن ما راى ووقع على أقدام الأستاذ وطلب منه أن يجيزه فأبى . ثم قال له حتى الشيخ محمد الغزالى مع كمال معرفته ما استكمل شروطه فوقع على قدميه ثانياً حين سمع منه ذلك وألح عليه فى طلب الإجازة والتعليم فقال له لو جئتنا بقصد الزيارة المحضة ابتغاء لمرضاة الله وحباً فى أولياء الله لا لغرض لعلمناك إياه ولأجزناك بالعمل به ولكنه لما كانت الزيارة لعلة والحق لا يقبل العمل المعلول كذلك نحن نتبع الحق لا نقبل عملا معلولا حتى نجازيك عليه بتعليمنا لك إياه فانقطعت حجة الرجل وخرج ولم يظفر منه على شىء .

والحاصل أن كلام الناظم فى جميع ما نسبه إليه من العلوم والمعارف صادق كما شاهدنا ذلك وبينا لك طرفاً منه ومن عرف معنى الوراثة المحمدية لا ينكر ذلك بل يصير عنده بمنزلة أعرف المعارف وإنما الأستاذ لم يتظاهر بالعلوم كغيره للسبب الذى بيناه لك سابقاً وهو كونه كان مشغولا بحب الله ورسوله وبإرشاد العباد عن نشر لواء العلوم ولذلك كانت تأليفاته قليلة جداً فى علم الوجدة غير أنه كان يشير إلى نفسه بأنه أعلم أهل عصره ليرغب فى صحبته الطالب لجناب الحق الصادق فى طلبه ومن جملة إشاراته أنه أجلسنى مرة بين

يديه وألقى إلى بيتا يشير فيه إلى أنه حبر زمانه غير أنه مشغول عن بث المعارف بحب مولاه ، وقال لى ذيله وهو هذا البيت :

أنا القرشى والحبر الهمام ولكنى بحبك مستهام

وهذه الاشارة عند الحاذق النبيه أوضح من صريح العبارة . ومن جملة إشاراته الدالة على رسوخه فى كل فن من العلوم قوله رضى الله عنه « والعلم الذى لرفعته جيش الولاية خاضع » ، أى وأنا العلم والعلم كما علمت هو الجبل الراسخ فى تخوم الأرض المتطاول فى العلوم والارتفاع فى الهواء وشبه نفسه بالجبل لوجهين :

الأول إشارة إلى رسوخ قدمه فى الولاية وعلو مقامه .

والثانى إشارة إلى أنه تتفجر منه ينابيع الحكم الآلهية والعلوم الربانية كما تتفجر الأنهار من الجبال الشوامخ ، قال تعالى « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » ، فالجبال الحسية تمر مياهها على الأرض الكثيفة المحسوسة فتسقيها ، والأعلام المعنوية تجرى أنهار الحكمة منها على عرصات القلوب المعنوية فترويها ، ومعلوم أن الأرض المعنوية التى هى عرصات القلوب ، أشرف من الأراضى الحسية لكونها متعطشة إلى لقاء المحبوب ، وشرابها الذى تسقى به أطهر من كل مشروب لأن أنهاره تجرى من خزانة أسرار الغيوب ، وكذلك نباتها أصلح من نبات الأراضى الحسية لأن نبات تلك أعنى الأرض المحسوسة معاش لعالم الأجرام ، ونبات الأخرى غذاء لعالم الأرواح فى الأجسام ، ولا يخفى شرف الفخر بين المعاشين بل هو ظاهر لمن كان ينظر إلى الأشياء بعينين ،

ولنا وجه ثالث فى تشبيه نفسه الشريفة بالجبل ، أعلم أنه لما كان الشيخ الكامل المرشد تترسخ به أراضى قلوب المريدين بعد تمويرها على بهموت توحيد الحق اللائق بكماله ، وكانت الجبال رواسخ للأرض المحسوسة شبه

نفسه بها وتوحيد الحق اللائق به هو الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « أعوذ بك منك » قال سيدى على الخواص رضى الله عنه الإشارة فى قوله عليه السلام أعوذ بك منك إلى توحيد الذات وأيضا قول الناظم رضى عنه « والعلم الذى لرفعته جيش الاولية خاضع » هذا كلام وافق كلام سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى المعنى دون اللفظ ومفهوم القولين أن كل واحد منهما كان سلطان أولياء وقته وهم فى نهايته جميعهم تحت حكمه وطاعته فكلام سيدى عبد القادر هو قوله « قدمى هذه على رقبة كل ولى لله تعالى » سألت عن معنى هذه الكلمة الولى الكامل والعارف الواصل الجامع بين الشريعة والحقيقة . إمام أئمة أهل الطريقة شيخنا وأستاذنا سيدى الشيخ على الكردى قدس الله سره العزيز فقال معناها أى طريق الذى أنا ماش عليه وهى شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على رقبة كل ولى لله تعالى ولا شك أن شريعته صلى الله عليه وسلم مندرج تحت طاعتها كل ولى لله تعالى ولولا ذلك الاندراج . ما حصل لهم الإنتاج ، حتى أوضحوا لنا طامسات الفجاج ويشهد لصحة تفسير هذا العارف أن جميع الأولياء نكست رءوسها إلى ناحية الأرض إشارة إلى انقيادهم إلى الشريعة المحمدية .

وأما قول الناظم المطابق لقول سيدنا عبدالقادر فى المعنى دون اللفظ هو ما ذكرناه وهو قوله لرفعته جيش الولاية خاضع وفيه إشارة إلى أن كل ولى لله تعالى كان فى عصره مطيعاً لحكمه وأمره نافذ فيه كما كان ذلك حال أولياء زمان سيدى عبد القادر معه رضى الله عنه ورفعة الناظم الذى بها ارتفع وخضع لها جيش الولاية هى متابعته الشريعة قدما بقدم .

واعلم أن سيدنا عبد القادر والأستاذ رضى الله عنهما ما قالا هذا الكلام إلا بعد ما أمروا به فإن قلت قد بلغنا أن الشيخ عبد القادر لما قال ذلك وهو فى بغداد جميع أولياء الله الذين فى سائر أقطار الأرض سلموا له ذلك وما بلغنا أن الناظم لما قال ما قال أن الأولياء سلموا له فالجواب اعلم ارشدنا الله وإياك

أن الدعوى شرعاً تثبت بشاهدين عادلين وهما يكفيان عن الجم الغفير فى إثباتهما وها أنا أثبت لك صحة ما ادعاه الأستاذ بشاهدين قد اتفق أهل الأرض على ولايتها وما اقتصرت لك على شهادة هؤلاء القطبين إلا ليكون الكلام مختصراً لأن التطويل قد كلت منه همم الرجال من قبلك وإلا فقد شهدت للأستاذ بذلك جماعة لا يحصون .

اعلم ان أول شـــاهد من الشاهدين المتقدم ذكرهما القطب الأنور . صاحب البرهان الأبهر والسر الأظهر . قدوة الأولياء ورأس الأصفياء . الولى المجذوب . والصفى المحبوب . سيدى الشيخ على البيومى قدس الله سره العزيز شهد بإقراره حين قدم عليه خليفة أستاذنا الشيخ حمد العبادى ومعه مكتوب من الأستاذ فأول ما دخل عليه قال له أهلا ومرحباً أين المكتوب الذى معك فدفعه إليه فأخذه وقبله وقرأه ثم قال له اذهب إلى موضعك ولا تخش من أحد نحن الآن كلنا تحت نظر الأستاذ . وسببه أن بعض جهلة المتلذذين لسيدى الشيخ محمد الحفناوى فى مصر اعترض عليه وأراد أن يخرجه مصر فلما رأى ذلك وكان الكتاب عنده ذهب إلى مولانا الشيخ على البيومى ودفعه إليه فلما قرأه أخبره بأن الأولياء كلهم تحت نظر الشيخ ثم إن الشيخ حمد لما سمع منه ذلك مضى إلى الجيزة وهى مسيرة ضحوة من مصر وبنى له بها خلاوى وأقام بها .

ثم بعد أيام قلائل ظهرت أيضاً إشارة أخرى تدل على ما ذكرناه من أن الشيخ هو المقدم على جميع الأولياء والإشارة وهى أن القطب الربانى والعارف الصمدانى سيدى الشيخ محمد الحفناوى رضى الله عنه سلم بعد ذلك لمولانا الشيخ حمد المذكور وخرج له بالأعلام هو وتلامذته وجاءوا به إلى مصر وأدخلوه . ثم أن مولانا وسيدنا سيدى الشيخ محمد الحفناوى بعد ذلك كتب إلى الناظم كتاباً يعتذر له مما فعلته تلامذته مع خليفته المذكور ورأيت الكتاب أنا بعينى قال فيه إلى حضرة شيخنا وأستاذنا وفهمت الإشارة من هذين الكلمتين

لأنه كان ساجدا إذا بعث إلى الشيخ كتابا يقول إلى حضرة ولدنا الشيخ محمد السمان ورأيت فيه بيتا نظمه رضى الله عنه وهو هذا :

ولم أنس جيران العقيق وإن هم   على مقلتى أجروه فى مدة الهجر

ورأيت إشارة أخرى أكدت لنا ذلك وهى أن الأستاذ بعث إليه بعد ذلك عباءة من لباسه وألبسه إياها ثم إنى رأيت إشارة أخرى أظهر مما تقدم وهو أنه كان رضى الله عنه لا يظهر ولى فى أى جهة كانت إلا ويبعث إليه بشيء من لباسه ويلبسه إما ثوبا أو قلنسوة أو عباءة .

وكان ذلك حاله مع أولياء عصره وأعظم إشارة وهى التى لا تقبل الاحتمال ما أخبرنا به العارف الربانى . والمحبوب الرحمانى . الفانى فى محبة الله ، التارك لجميع ما سوى الله ، مولانا سيدى الشيخ عمر الشنقيطى قال : اجتمعت بالقطب فى أيام الحج بين الركن اليمانى والحجر الأسود بإشارة ولى من أولياء الله من أهل المغرب وطلبت منه أن يدخلنى فى طريق القوم ، فقال لى يا عمر أنا ما عندى شيء إلا ما أعطانى شيخى الشيخ محمد السمان اذهب إلى المدينة وخذ منه ترشد . والإشارة الأخرى وهى نظيرة هذه وهى التى ذكرناها سابقا من أن الأستاذ رضى الله عنه قال مرة لجماعة وكنت أنا فيهم ، لو كان عبد القادر الآن حاضرا بالمدينة ما قال أنا عبد القادر ، فتأمل رحمك الله فى جميع هذه الاشارات يظهر لك الحق ويتبين لك الفرق .

ثم اعلم أن الشاهد الثانى من الشاهدين له بالتقدم على كافة الاولياء المحبوب المدلل . وعروس حضرة الغيب المجلل صاحب البرهان القاطع . والكرامات والسر البارع ، سيدى الشيخ عبدالرحمن المشرع أمدنا الله بامداداته . وأفاض علينا من نفحاته وبركاته ، أخبرنى أحد خدامه قال سمعت الشيخ عبدالرحمن يتكلم مع جماعة من العلماء فى حال الشيخ محمد السمان ومن جملة ما تكلم به أنه قال : الذى أدركه الشيخ محمد السمان لم يدركه أحد من أهل عصره لا يدخل

أحد من الأولياء إلى حضرة الحقيقة المحمدية فى هذا الزمان إلا من بابه فهو بواب الحضرة وصاحب المملكة فانظر إلى هذه الإشارة ما أوضحها . وإلى هذه العبارة ما أفصحها ، واقبض العنان عن الخوض فى شأنه ، واعرف قدر عزته ورفعته على أقرانه .

وهاك دلائل من الخارج تؤيد ما قاله مولانا الشيخ عبد الرحمن رضى الله عنه، أخبرنا الشيخ أحمد الحصارى رحمه الله تعالى قال رأيت اثنى عشر رجلا من الاولياء جاءوا من ناحية الشام لزيارة سيد الانام . وهم الأبدال وجلسوا عند باب الحجرة النبوية وبعثوا إلى الشيخ فأتى إليهم فاستأذنوا منه فى الدخول إلى حضرة الرسول . ففتح لهم الباب . فدخلوا إليه وفازوا منه برؤية مقدس الجناب . وجاء إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم الولى الربانى . سيدى الشيخ محمد الشفيع السليمانى وكان دائما يرى النبى صلى الله عليه وسلم فلما وصل المدينة لم يزر الأستاذ . فمدة إقامته بالمدينة ما صار يجتمع بالنبى عليه السلام فصار متحيرا لا يدرى ما السبب فلما أضاق به الحال زاره وبكى وشكى حاله فنام ليلته تلك فرآه وقبل يده وسأله عن سبب احتجابه عنه فى هذه المدة فقال له هل زرت الشيخ محمد السمان فقال لا فقال أتعلم أنه يمنى هذه ومن بايعه فقد بايعنى ومن رآه فقد رآنى ومن رآنى فقد رأى الله تعالى ، فلما أصبح جاء إلى الشيخ وزاره وأخذ عنه . ومثل هذه الإشارات كثيرة عندنا ولكن اختصرنا على هذه النبذة من الوقائع خوفا من التطويل . وقد يكتفى من الإشارات بالقليل كل صادق نبيل . قال الشافعى محمد بن إدريس رضى الله عنه :

ومن التطويل كلت الهمم   فصار فيه الاختصار ملتزم

وكان الأستاذ رضى الله عنه كثيراً ما يستشهد بهذا البيت فأحببت أن اتبعه فى ذلك وفى الإشارات ما يغنى عن الكلم ثم قال رضى الله عنه :

أنا فى الدُّنا أحمِى مُرِيدى إذا أتى

بصدقٍ وفى العُقْبى لهُ أنا شافِعُ

قوله أنا فى الدنا إلى آخرها قال لأنها داروقوع المحن والمصائب والكدر النكد والنوائب . قال ابن عطاء الله الاسكندرى رضى الله عنه لا تستغرب وقوع الاكدار . ما دمت فى هذه الدار . وقال سيدى عبد الله الحداد رضى الله عنه :

هذه الدار ما فيها سرور قط تخلو عن أخلاط الكدر

كل من حبها عقله يدور فى خلال الموابل والقذر

وخص المريد بالحماية فيها من وقوع أمثال هذه المصائب عليه مكافأة له على صدقه قال تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » فالمريد لما أحسن النية معه جازاه بذلك وأخرجه من دائرة المحن بتوجهه إلى الله تعالى أو بتحمله عنه ذلك لأن الشيخ رحمة على تلامذته بل وعلى جميع عباد الله كما صرح هو مرة بذلك بقوله إن الله تعالى جعلنى رحمة فى هذا الزمان حتى على الكفار وكلامه هذا يدل على كمال وراثته للجناب المحمدى لأن الله تعالى أرسل نبيه رحمة على جميع العباد ، قال عز من قائل « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وقد ظهرت رحمته رضى الله عنه على عباد الله تعالى فى تحمله البلاء عنهم مرارا حتى مات به وفداهم بنفسه لأنه لما مرض مرض الموت دخل عليه شخص بوصاية من العارف بالله تعالى سيدى الشيخ يوسف الدمشقى ، فقال أوصانى مولانا الشيخ يوسف حين اجتمعت به بدمشق الشام وقال لى إذا أنت وصلت إلى المدينة سلم على مولانا الشيخ محمد السمان وقل له لا يدخل تحت هذا البلاء النازل على فلان ـ وعين اسم الرجل ـ وعلى أهل الحرمين فإن كل من دخل تحته يموت قال فلما دخلت على الشيخ لأبلغه الوصية وجدته قد تحمله وهو مريض

وسمعته يقول آه لم أكون أنا هي مكة وإلا المدينة أو الطائف قال فلما سمعت ذلك منه أمسكت عن الكلام ثم بعد مدة يسيرة انتقل إلى دار البقاء ، وهذا التحمل ليس خاصاً بالأستاذ بل يشاركه فيه كل ولى كل حاله وهذا التحمل وفداء النفس عن عامة المسلمين أو على آحادهم هى الفتوة المذكورة فى الكتاب العزيز ، وهى أعلى من المروءة لأن صاحب المروءة يرجع القهقرى إذا رأى الأمر يؤدى إلى الهلاك بخلاف صاحب الفتوى ألا ترى إلى سيدنا على كرم الله وجهه كيف نام عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الفراش حين رامت قتله عليه السلام المشركون حماه الله من ذلك وأعاذه .

حكى أن رجلا من أوليـــاء الله كان فى بلد من بلاد المشركين فجاءت المسلمون وحاصروا تلك البلد وجلسوا عليها مدة طويلة ولم يقدروا على فتحها فتعب السلطان تعباً شديداً لذلك وخرج يوماً يتمشى فى العسكر فاتفق بفقير وجلس معه فأخبره بتعبه فقال له ذلك الفقير إعلم أيها الملك أن فى هذه البلد ولياً من أولياء الله تعالى وهو يدفع عنهم البلاء . ومادام هذا الولى فى هذا البلد لم تفتح فازداد الملك هما . فلما أدخمه الليل قام وتوضأ وصلى ماشاء الله وبات ليلته كلها يتضرع إلى الله تعالى ويبكى خوفا على هضيمة الإسلام . فلما أصبح الصباح وظهر له نوره ولاح . سمـــع ضجة عظيمة فى البلد ، فاحتار لذلك فجاءت إليه جواسيسه وأخبرته بأن ذلك الولى قد مات فحمد الله وأثنى عليه وطلب من الله النصرة ، فبعد ثلاثة أيام انتصب الحرب فلم يلبثوا غير ساعة حتى هزم الله المشركين ونصر الإسلام .

فتأمل يا أخى فى فتوة هـذا الرجل وتحمله عن المشركين الأذى وهم على غير الدين الحنيفى وما فعل ذلك معهم إلا لكونهم تجوروا به ، فلمـــا أغار الحق على الإسلام قبض حبيبه إليه لئلا يرى ما يكره فى جيرانه فيحزن . فانظر رحمك الله إذا كانت هذه فتوة أحدهم مع الكفار فما بالك إذا كانت مع المسلمين ومثل هذا التحمل كثيراً ماوقع لأستاذنا رضى الله عنه .

«وقد ذكرنا جانبا منه فى مناقبه فراجعه فيها ، وأما قوله رضى الله عنه . «وفى العقبى له أنا شافع» والعقبى هى يوم القيامة وسميت بالعقبى لكونها تأتى عقيب الدنيــا وهى اليوم الذى تهتك فيه الأستار . ويظهر الحق وينجلى الغبار . يوم لاينفع مال ولا بنون . يوم يتجلى فيه بالغضب من يقول للشىء «كن فيكون» وهو اليوم الذى يتميز فيه المتقون . وينادى عليهم لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، فيشفعون فى أهل الذنوب . بإذن الله تعالى بعد شفاعة الحبيب المحبوب . قال تعالى : «من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه» .

اعلم ياأخى أنه ورد فى الأخبار الصحيحة أنه إذا أذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الشفاعة يشفع لجميع الخلق ثم يؤذن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم الأولياء فيشفعون ثم الشهداء فيشفعون وصلحاء هذه الأمة فيشفعون حتى أن الولد يشفع لوالده والرجل يشفع فى أهل بيته وجيرانه فإذا بقى من ليس له فرط يشفع له من ولد أو عمل صالح وبقى أهل الكبائر يشفع فيهم صلى الله عليه وسلم ويشفع فيمن كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فيخرجه من النار . ومن ثمة لما كانت الأولياء رضى الله عنهم يتميزون بالشفاعة الخاصة بهم يوم القيامة دل النبى صلى الله عليه وسلم أمته بأن تجعل لها يداً عندهم بأخذها الطريقة عنهم وبخدمتها لهذه الطائفة وصحبتهم بالصدق وخلوص النية فقال عليه الصلاة والسلام اجعلوا لكم عند الفقراء أيدى فإن لهم دولة يوم القيامة» .

واعلم ياأخى أن الشيخ ما خصص المريد الصادق بذكر الشفاعة له إلا ليزداد حبا فيه ، ورغبة فى حصول هذه المنفعة له يوم الفزع الأكبر وليرغب غيره فى الأخذ عنه وإلا فهو يشفع فى كل من اجتمع به للموجب المذكور الذى لاينفك عنه وهى الفتوة .

وعار على راعى الحمى وهو فى الحمى   إذا ضاع فى البيدا عقال بعير

وكيف يمكنه التخلف وهو القائل من دخل زاويتى هذه ولو مرة غشيه النور . وحسب علينا النور . وحسب علينا فى يوم النشور .

أخبرنى الرجل الصالح الورع الزاهد الشيخ زين العابدين بن أبى شنينه بالتصغير قال كنت يوما جالسا عند الشيخ فى الزاوية بعد شروق الشمس بمدة يسيرة فرأيته التقط حجراً من الأرض ورمى به إلى صدر الزاوية وذهب إلى منزله فأخذه العجب من فعله فلما آن وقت آوان الظهر نزل إلى الصلاة فن شدة شغلى بفعله ذلك ماأمكننى إلا أن أسأله عنه فلما سألته قال لى فلان استحضر فى المسجد الحرام وجاء الشيطان ليفتنه فطردناه عنه ، وكنت أعرف هذا الرجل وما رأيته دخل على الشيخ إلا مرة واحدة فقلت له ياسيدى هذا الرجل مااجتمع بكم إلا مرة واحدة ، فقال لى يازين العابدين يكفينا ذلك منه . ومن جاء إلينا وجب إكرامه علينا .

فتأمل ياأخى فى أحوال أولياء الله تعالى وفتوتهم كيف بمرة واحدة اجتمع عليه ماتركه فى الدنيا بل كافأه عليها فما بالك بالآخرة التى يكون الإنسان فيها أحوج للشفاعة والإغاثة من الدنيا وفى مثل خروج الروح لأنها أشد عقبة يقطعها الإنسان وما خلفها جلل بالنسبة إليها . قال بعض العارفين مت مسلما ولا تبالى، ذكر بعض الصوفية رضى الله عنهم أن فائدة التلقين من المشايخ أن المتلقن يتذكر الكلمة عند خروج الروح .

نقل سيدى مصطفى البكرى عن سيدى عبدالقادر الجيلانى قدس سرهما انه قال من لم يتلقن كلمة التوحيد عن المشايخ من أهل السلسلة المتصلة إلى النبى صلى الله عليه وسلم قل أن يتذكرها عند الموت وناهيك بهذه الفائدة الجليلة التى كل مؤمن ومؤمنة حولها يدندن . ثم قال رضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مستقره ومأواه :

أَنَا غَوْثُ مَنْ قَدْ أَمَّ نَحْوِى وحِرْزُهُ

إذا مسَّه مِن نَكْبَةِ الدَّهْرِ فَاجِعُ

اعلم أن الشيخ لم يقيد إغاثته بأحد إشارة إلى أنه أعطى التصريف المطلق ونبه على ذلك الإطلاق بقوله «من قد أم نحوى» سواء أمه للأخذ عنه أو للزيارة وسواء كان ذلك بالفعل أو بالنية وسواء كان قريباً أو نائياً أي أنا غوث كل من توجه إلى وقصدني في رفع ما نزل به من المحن والبلايا . والتجأ إلى في دفع ما حل به من النوايب والرزايا «وحرزه» أي وحافظه من شؤم عاقبة ما يتحذر منه «إذا مسه من نكبة الدهر فاجع» والنكبة هي النقص في الأموال والأنفس ونزول المصايب على غير أهبة منه ولذلك . قال فاجع أي مخوف لأن الأمور المتعبة إذا نزلت على الشخص من حيث لم يعلم ما السبب في ذلك لها يخشى منها ويكون دائما منتظراً إلى عواقبها فالشيخ المرشد إذا التجأ إليه من نزلت به أمثال هذه المخوفات على غرة فإنه يحفظه من وقوع عواقبها عليه «والدهر هو الزمان المشتمل على أيام وليالى عند عوام العلماء وعند المحققين منهم هو عبارة عن الحق كما سيأتي بيانه بنص الحديث الآتي ذكره ونسب الأمر المخوف إليه مجازاً لكونه محلا لنزول المحن ومن حل به أصابه منها وابل فإن لم يصبه فطل وإلا فالجميع من الله تعالى سواء كان خيراً أو شراً والإيمان بذلك واجب .

ومن ثمة نبه النبي أمته لما علم أنها لوجود غفلتها عن الله في نسبتها فعل كل مكروه إلى الدهر حالة كونهم معتقدين بأن الدهر هو الزمان بأن لا ينسبوه بقوله «لا تسبوا الدهر فإن هو الله» وصرح لهم فيه بأن لا ينسبوا إليه فعلا غير مرضى لهم حتى لا يلجئهم إلى سبه بعد ما عرفهم في الحديث بأنه الحق ودلهم به على التوحيد المطلق بقوله هو الله ، وأفهمهم بصراحته على أنه ليس أحد موجودا في الوجود غير الحق المعبود . فالدهر كما علمت بصريح هذا الحديث هو عبارة عن الحق لأن الدهر هو أمر وجودى لا يعرف له ابتداء ولا انتهاء ولا يدرك له كنه وإذا كان كذلك فهو الوجود المطلق الذى لا أولية له تعرف ولا آخرية له توصف ولا حقيقة له تدرك . وقوله لا تسبوا الدهر إلى آخر الحديث مصرح بذلك .

واعلم أن كل من سب الدهر ما سبه إلا من حيث أنه اعتقد بأنه هو الزمان الحادث. ومن ثمة نسب إليه أفعالا حقيقية وذلك دليل على جهله ولو علم بحقيقته لما نسب إليه شيئاً منها إلا على طريق المجاز ومن ثمة تجده إذا أصابه شيء من شرها ألجاه إلى سبه. قال الشاعر.

يعاندنى دهرى كأنى عدوه
وفى كل وقت بالمكاره يأتينى

واعلم أيضاً أن من سبه إنما سبه من حيث أنه جعل الدهر هو الزمان الحادث كما حررناه ولو مشى على ظاهر الحديث وفهم الإشارة لرضى بالقضاء والقدر كما فهم ذلك الأستاذ رضى الله عنه ونسب النكبة إليه حقيقة ولم يذكر الزمان إشارة إلى أنه مخلوق عاجز فإن قلت يلزم من هذا القول أن الدهر غير الزمان وهو خلاف المعتمد عند الجمهور لأن الزمان عندهم هو الدهر. وإذا كان الشأن هو هـــذا فيكون الدهر حينئذ قديما. وإذا كان قديما فما الحادث حينئذ لأنا نشاهده يتغير وكل متغير حادث كما قالوا؟ فالجواب أن الحادث منه الليل والنهار والسنون والشهور والأعوام والساعات والدقائق والدرجات، فإن قلت ما تقول فى قول القائل كان الله ولا زمان ولا مكان فالجواب أن المراد بالزمان هذا الزمان الفلكى لا الدهر لأن الحق لما ظهر من البطون من الحضرة الأزلية كان ظهوره قبل خلق الافلاك وإيجاد الأرض والسموات وإبداع جميع الكائنات وهو الآن كما هو عليه كان فى أزله لا هو فى مكان ولا يمر عليه الزمان الاعتبارى لأن ذلك من صفات الحوادث والله منزه عن جميع ذلك لأنه كان قبل الزمان والمكان وليس هو بحادث تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً وهو الذى فى قدمه بعباده خبيراً بصيراً ولا عطر بعد عروس ولا حاجة إلى دليل تستدل به على أن الدهر هو الله بعد قوله عليه السلام لا تسبوا الدهر الحديث المصرح بذلك.

ولو كان الدهر هو عبارة عن الزمان المتغير بيانا لحدوثه لما قال صلى الله عليه وسلم فإن الدهر هو الله فافهم ترشد ومما يدلك على أن الدهر ليس بحادث عدم تقيده بقدر معلوم كالسنة والشهر واليوم والليلة والزمان بل الدنيا جميعها مقيدة بقدر معلوم فى علم الله تعالى وكل ما فيها مقيد بها بخلاف الدهر فانه ليس مقيداً بحال ما وعدم تقيده دليل على إطلاقه وليس يوصف بالإطلاق إلا وجود الحق والوجود هو عبارة عن الذات الجامعة لجميع مظاهر الكون بوجود قيامه به والله أعلم . ولنرجع بعد طلق العنان فى ميدان هذا البيان . ونذكر طرفا من إغاثه الأستاذ ليزداد بذلك توضيحا فضله بين العباد .

اعلم أنى لما كنت بارض سنار جاءتنا سنة قليلة الأمطار ، فخرج السلطان يوما إلى مزارعه فوجدها قد قاربت المحل فخاف عليها فبعث إلى وأمرنى أن أقدم عليه فلما جئت إليه أنزلنى فى موضع قريب منه ، ومن الغد جاءنى إمامه الذى يصلى به وقال لى إن السلطان ما بعث إليك إلا لتتوجه إلى الله ببركات أستاذكم فى نزول المطر فاسئل الله له فعسى ببركته أن يسقينا الغيث ويكون ذلك كرامة له فلما سمعت ذلك منه أهتممت من كلامه وخفت على سقوط رتبة الأستاذ إذا لم يسقون وصرت فى كرب عظيم ، فلما اشتد بى الكرب خطر فى قلبى أن أجمع الجماعة ونذكر الله تعالى ونتوسل إليه بمنظومة الشيخ التى تسمى بجالية الكرب ونتوجه إلى ناظمها فى كشف ما حل بنا من الهم والكرب لجمعتهم وذكرنا الله بقلب منكسر خاضع فلما فرغنا من الذكر مددنا أيدينا إلى ناحية السماء بحالة الاضطرار وتوجهنا إلى الله بهيئة الذل والانكسار وقرأنا جالية الكرب المنسوبة للأستاذ وناديناه بأعلى أصواتنا ياسمان أغثنا ياصاحب الأمداد فلما ختمنا الذكر وقرأنا له الفاتحة قال لى الرجل الصالح الشيخ عبد الله بن بخيت وكان جالسا معنا فى الذكر ، اليوم هذا تمطرون إن شاء الله تعالى ،

قال رأيت الشيخ حضر معكم وسمعته يقول والله تمطروا والله تمطروا والله تمطروا . ثم إنى بعد ماسمعت هذا الكلام منه استبشرت به ونمت من ساعتى فما أفقت إلا ووجدت السماء قد سيبت ماء كأفواه القرب فحمدت الله الذى أظهر كرامة الشيخ وفرحت فرحا شديدا وخرج السلطان من وقته وطاف على مزارعه وشاع فى البلد بأن الشيخ محمد السمان أظهر كرامة فى هذا اليوم وزاد اعتقاد الناس فيه . فانظر يا أخى إلى سرعة هذه الاغاثة منه وتأمل كيف حضر معنا فى الذكر فى أول من طرفة عين وبشرنا بنزول المطر والحالة أنه لم تكن فى السماء قطعة سحاب وصحح الله بشارته وأكرمنا فى الحين ببركاته بنزول المطر من يومه وأبعد عنا ما كنا نتخوف وقوعه وهو نقص إعتقاد الخلق فيه وهو الجدير بأن يكرمنا الحق لأجله .

واعلم أنى ماذكرت لك هذه القصة إلا لأبرهن لك صحة ماحكاه عن نفسه بأنه الغوث لمن استغاث به وفى ذكر هذا القدر من إغاثته كفاية وإلا فإغاثته فى البر والبحر وعند المضايق كثيرة قد سارت بها الركبان فان أردت أن تطلع على غيرها فانظر فى مناقبه فانى ذكرت فيها نبذة منها وفقنا الله وإياك إلى التصديق بكرامات الأولياء فانه لاينكرها إلا من كان من الأشقياء . حمانى الله وإياك وكل مسلم من الإنكار ، فانه بئس الصفة المفضية إلى دار البوار ، ثم قال رضى الله عنه :

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعِي الْحُبَّ بَاطِلاً
وما أنا مِن قَوْلِ الْعَوَاسِدِ جَازِعُ

اعلم أنه لما كان المدعى لحب الله بغير شاهد يشهد له به على خطر عظيم والخطر العظيم هو كذبه وافتراؤه على الله حيث ادعى أنه يحبه ولم يقم عليه دليلا كخروجه عن كل مايشغله عن المحبوب نفى الأستاذ رضى الله عنه عن نفسه الدعوى بمفهوم ضدها من فحوى لفظه ، وأخرجها به من دائرة ، والله لايحب كل مفتر كذاب ، قد فضحته كثرة أكله وشربه وصحة جسمه وجوهة

ناظره وكثرة ضحكه ولعبه وإعتنائه للوسائد فى الليل الطويل ، وطلاق البت منه للبكا والعويل ، فاين هو لوكان صادقا فى دعوى الغرام ، من ترك الفضول والدمع المطلول والسهر والسقام ، قال ذو النسب الزهرى سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه :

أيا مدعى حبا بغير دليـــله
دعاويك لاتجديك نفعا بمن تهوى
أهل بت سهرانا ودمعك سائل
وقلبك هل يكوى بحبك أو يشوى

كان سيدنا على كرم الله وجهه رئيس المحبين وكان يحيى الليل كله بالبكاء والأنين فاذا جاء وقت السحر وهب نسيم القرب من منازل الأحباب يتململ على الفرش تململ العليل ويزداد فى البكاء والانتحاب ويقول يادنيا طلقتك ثلاثة ، ودموعه تتحادر على وجنته مثنى وثلاث .

سمعت الأستاذ رضى الله عنه يقول من علامة صدق المحب أن لا يأتى عليه الثلث الأخير من الليل وهو نائم لأن ذلك الوقت هو وقت تجلى المحبوب وحصول الغنائم وكان يقول الصاحى فى الثلث الأخير من الليل أفضل من النائم ولو كان مشتغلا فيه بشرب الدخان وكان كثيرا مايحث على قيام الليل وربما كان ينزل فى بعض الأحيان من موضعه فى الثلث الأخير إلى الزاوية وينبه التلامذة لقراءة ورد السحر وكانت أغلب نفحاته الذى يفيض بها على بعض المريدين فى الثلث الاخير منه ثم قال رضى الله عنه مشيرا إلى توحيد الأفعال ، وشهوده لها صادرة من الكبيرة المتعال . وهو قوله « وما أنه من قول الحواسد جازع » ويشهد له بهذا المقام وتحققه به أنه دخل عليه مرة شخص من المشائين وشتمه شتما عنيفا وقال له يالوطى يافاسق ياسحار وتكلم بكلام قبيح يشبه قائله لأن كل إناء بالذى فيه ينضح والشيخ منصت فلما فرغ قام وخرج من عنده وماسمعناه رد عليه كلمة واحدة

. فلما سمع بذلك ولده قال له كيف سكتم عنه؟ لم لا أخبرتمونا فنشتكيه على الحكام فقال له ياولدى أما سمعت قوله تعالى « قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » والله ماتكلم هو علينا بل إنما الله أجرى ذلك على لسانه ليذكرنا بعيوب أنفسنا فسكت حين سمع جواب والده . وشتمه مرة إنسان بقصيدة فدحه عليها وقال جزاه الله عنا خيرا لقد ذكرنا بعيوبنا فانظر ياأخى إلى هذا التوحيد والمشهد الفريد .

واعلم إنه ماجزع من جزع من كلام الحواسد إلا من يشهد ذلك من أفواهم . ومن ثمة تتولد العداوة بين القائل والمقول له وأما من رقى مشهده إلى شهود صدور القول من الله تعالى تستطارقه العداوة بل يرى ذلك تنبيها له من الله تعالى على لسان هذا العبد فيحبه لكونه صار واسطة له فى التنبيه وفى حصول الأجر له على صبره عليه الذى بسببه رفعت له الدرجات ، وفى فعله هذا دليل على كمال متابعته للنبى صلى الله عليه وسلم فان قريشا كانت تنسب النبى صلى الله عليه وسلم للسحر والكذب أعاذه الله من ذلك ومع ذلك كان يدعو لهم ويقول « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » والشخص لا يدعو إلا لمن يحبه وما جازاهم على فعلهم به قط إلا بما يقربهم إلى الله وهو دعاؤه لهم إلى الإيمان به .

حكى أن رجلا من الصالحين كان له جيران وفى كل يوم يحضرون عنده فى وقت الصباح ويظهرون له المحبة والإعتقاد وفى كل يوم يقدم لهم حلوى يأكلونها فاذا أنصرفوا من عنده واجتمعوا مع بعضهم يعلمنون فيه فاتفق أنهم اجتمعوا ليلة وانصرفوا ولم يجر ذكر الشيخ بينهم فلما أصبحوا جاؤا عند الشيخ على عادتهم فلم يقدم لهم الحلوى فتكلموا معه فى ذلك فقال لهم كنتم كل ليلة تبعثون إلى بهدية وكنت أكافئكم بها على ذلك والبارحة مابعثتم إلى بشىء وقطعتم عادتكم عنا فقطعنا عادتنا عنكم ففهموا القصة وتابوا جميعا وأخذوا عنه .

ودخل مرة الولى الكامل العالم العامل ، الورع العارف الواصل ، مولانا الشيخ ابراهيم القولباوى إلى زاوية الأستاذ وكان الشيخ ابراهيم المذكور به داء البلغم فصار يبزق فى الزاوية فجاءه أحد التلامذة وانتهره فصاح لولده فجاء إليه فقال له أخرجنى من الزاوية فإن هذا الرجل قد انتهرنى بسبب كثرة بزاقى فسمع الشيخ صيحته وكان فى عليه الدار ونزل إليه ومسح على ظهره وقال له يا شيخ إبراهيم أنتم أهل السماح لاتتغير على هذا الرجل فإنه يجهل مقامكم وكن مثلى فإن طريقتى إذا جاءنى رجلان أحدهما شتمنى والآخر مدحنى فإنى لا أكره من شتمنى ولاأحب من مدحنى لكونه مدحنى بل أحبهما معا لأنى أرى الفاعل والمتكلم واحدا وهوالله سبحانه وتعالى ، فلما سمع هذا الكلام صاح الشيخ إبراهيم صيحة عظيمة ووقع على أقدام الشيخ وقال له ياسيدى هذا المقام مقامكم وما يوصلنا إليه .

ثم بعد هذه القصة أخذ عن الأستاذ هو وولده العلامة الورع الزاهد سيدى الشيخ إبراهيم نفعنا الله بهما أمين. وبعث لى مرة الأستاذ كتابا يعظنى فيه ومن جملة ما ذكر لى فيه من الوعظ ان قال يا ولدى أنى أوصيك بتقوى الله والمحافظة على ذكر الله والصلاة على رسول الله وأن لا تشهد حيا ولامعطيا ولامانعا ولا ضارا ولانافعا ولا فاعلا ولاموجودا فى الوجود إلا الله ، واجعل خدك أرضا يطاه البر والفاجر. وكان الأستاذ رضى الله عنه هذا مشهده ، ودليله أنه كان لايقابل من آسى عليه إلا بأحسن المقابلة من الإكرام والملاطفة والمعاملة الحسنة .

اعلم يا أخى أنه ورد «لو كان المؤمن فى حجر ضب لقيض الله له من يؤذيه» وهذا من حسن معاملة الرب مع من اختاره واصطفاه لقربه لتتوفر له الأجور ، وليكون مظهرا لاسمه الصبور ، ومن ثمة ورد «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» ، وهذه سنة الله جرت على عباده الصالحين ، قال عز من قائل «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين» وكذلك

لأستاذ رضى الله عنه يقول لاتتعجبوا ممن حمله الحسد على الطعن فينا بل تعجبوا كيف عصمنا الله منهم فلم يخرجونا من المدينة فإن السيد مصطفى البكرى ما كفى أهل بلده حسدهم عليه حتى أخرجوه من الشام .

وأنظر يا أخى إلى قريش كيف حسدوا النبى صلى الله عليه وسلم على نبوته فالجأهم حسدهم إلى أن أخرجوه من مكة وقالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وعنوا بذلك أبا جهل وعمرو بن العاص لأنهما كانا فى الجاهلية أهل ثروة وحل وعقد والنبى لم يظهر فيهم حينئذ بهذه الصفات. وتأمل أيضا كيف حملهم على الطعن فى جنابه صلى الله عليه وسلم حين أرادوا «أن يطفئوا نور الله بأفواههم» فلم يستطيعوا على ذلك وقالوا سحار ونسبوه إلى الكذب وقد حماه الله من ذلك ثم ما كفاهم ذلك الطعن حتى أخرجوه من مكة المشرفة وأواه أهل طيبة منهم وحموه بالمرهفات وعزروه ونصروه حتى لقبوا بسبب ذلك بالأنصار وفازوا منه صلى الله عليه وسلم بقوله « لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار واديا لسلكت وادى الأنصار .

فالرجل الذى على بصيرة من الله يستدل على ولاية الولى بتسليط الناس عليه وأذيتهم له بهذه الأدلة لأن كل ولى على قدم نبى وكل نبى أوذى فى الله كما صرح القرآن بذلك واعلم أنه لاينبغى لأحد أنه بمجرد مايسمع طعنا من أحد فى رجل من أولياء الله أوغيره من خلق الله تعالى أن يقبله حملا على الحسد منه عليه ولا يعتمد ذلك لأنه متى اعتمده مال إلى ما مال إليه الطاعن من الطعن وربما يجره ذلك إلى عداوته لأن اعتماده يجره إلى ذلك ومن فعل ذلك حرم خيرا كثيرا وشاركه فى الإثم هذا إذا سلم من مشاركته له فى عداوته لذلك الولى أو غيره ، وأما إذا وصل إلى ما وصلوا إليه من رتبة العداوة فقد خسر خسرانا مبينا وباء بعداوة الحق له ومحاربته له كما ورد فى الحديث القدسى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » أى فقد أعلمته بأنى محارب له أعاذنا الله وإياك من ذلك .

فينبغى لكل من أراد أن يسلم من هذه المحاربة المتوقفة على عداوة الولى ويسلم له دينه أن لايحضر مجلسا يغتاب فيه مؤمن مطلقا وإذا حضر على الفرض والتقدير وسمع مثلا غيبة فى أحد من شخص فينبغى له أن يثبت على حسن ظنه بذلك الرجل وينهاه عن طعنه فيه ويلتمس له عذرا عنده ويذكر بقوله تعالى « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » لأنه ورد أنه تأتى الغيبة يوم القيامة فى صورة المغتاب ميتة ويقال لمن اغتابه كل لحمه كما كنت تأكله فى الدنيا، وفى هذه الآية إشارة فهمت من مضمون النهى والإشارة فيها إلى أنه يجب على الانسان أن لايلقى سمعه إلى غيبة ولايتسبب فى تحصيلها بالبحث عن حال أحد ما مطلقا لئلا يسمع فيه شيئا يكرهه فتميل نفسه إلى ما سمع ويعتقد ذلك فيضل كما ضل من اغتابه عن سلوك طريق ولاتجسسوا فيقع فى وعيد من عادى لى وليا الحديث وماوقع فيه إلا بسبب مخالفته للأمر بعدم التجسس وبامتثاله فى تحصيل ذلك بهواه فلو خالف الهوى ليتجنب مخالطة الناس إلا الصالح منهم خوفا من الوقوع فى الغيبة والنميمة .

ومن هنا منعت المشايخ المريد الصادق عن المخالطة وأمروه بالعزلة قال بعض الصوفية من علامة الافلاس الاستئناس بمخالطة الناس ، وقال ابن عطاء الله الاسكندرى « لاتصحب من لا ينهضك حاله ، ويدلك على الله مقاله » وعلى الفرض والتقدير لو اتفق أنه سمع مثل ذلك فقد شرع له العذر فى قوله عليه الصلاة والسلام « التمس لأخيك عذرا » ومثال ذلك لو سمع مثلا بأن فلانا يدخل عند الحكام ويجالس اللصوص ويعاشر الغلمان فينبغى فى هذا المقام أن يلتمس له العذر المشروع ويقول فى نفسه ربما أنه فعل ذلك ليكون سببا عند الحكام لقضاء مصالح المؤمنين وما جالس اللصوص والغلمان إلا سترا لحاله وحذرا من وقوعه فى الرياء والعجب ، والارتكاب لأخف الضررين مشروع . ولاشك أن هذه الأحوال التى ارتكبها هذا الرجل أهون من العجب والرياء لأن الرياء من صفة المنافقين وقد قال تعالى « إن المنافقين فى الدرك الأسفل

من النار ، والعجب من صفة إبليس وبسببه طرد من حضرة العزيز الجبار. وورد أيضا فى الحديث أن المرائى والمراءى له فى النار . وما ورد فى حق من جالس اللصوص وعاشر الغلمان وتردد على الحكام أنه فى النار ، فإن قلت ماذنب المراءى له حتى يكون فى النار الجواب أن الرياء يأتى فى صورة المرائى له فيكونان جميعا فى النار لا المراءى له . والحاصل أن اشتغال المريد بما فيه صلاح معاده وانهضام نفسه الامارة بالسوء وسلامة صدره عن كل وصف مذموم واجب عليه. اتجه رجل ببشر الحافى رضى الله عنه فقال له لم لا تطلب العلم ، فقال له نحن الآن مشغولون بما هو الأهم من ذلك وهى مجاهدة النفس بالأمر الشرعى والاتيان بأهم الأمرين كما قد علمت أمر مشروع لأن طلب العلم الزائد عن الحاجة من فرض الكفاية ومجاهدة النفس فرض عين بدليل قوله « فاستقم كما أمرت » فافهم .

واعلم يا أخى أن كثيرا من الأولياء سوى المتمكنين منهم يتسترون بالأفعال المذمومة فى ظاهر الشرع لأمرين الأول تخوفا على أنفسهم من الغرور والأمن من مكر الله لأن كل من كانت معرفته بالله أكمل كان خوفه منه أشد فتأمل فى قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كانت إحدى رجلى فى الجنة لما أمنت من مكر الله ، مع أنه أفضل الصحابة بعد أبى بكر وهو أحد العشرة المبشرين بدخولها ، والثانى إنما تستروا لاختلاف مقاصد الناس معهم فى صحبتهم لهم لأن أغلب أهل هذا الزمان لايعاشرون الأولياء إلا لأغراض دنيوية وهم رضى الله عنهم من فتوتهم أن كل من قصدهم فى حاجة توجهوا له فى تحصيلها البتة ، والدنيا كما علمت هم أشد بغضا لها ولا يريدونها لأنفسهم لما فيها من الضرر الشديد بنص قوله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فكيف يتوجهون لهم فى شىء يؤول ضرره على الطالب فى العقبى بالنقص له من نعيم الآخرة والوقوع فى شبكات رأس كل خطيئة فى الدنيا وكذلك على المطلوب منه إذا توجه له فى تحصيل ذلك ، لأنه إذا فعل معه ذلك فقد غشه وإن نهاه عنه بغضه فكان الأولى له أن يتستر بما ينفر عنه نفس الطالب ليسلما معا من اتصافهما بهذه الأوصاف المذمومة .

وأما الناظم رضى الله عنه كان من المتمكنين فلذلك لم يتستر بما ينفر منه النفوس بل كان يتعاطى مايجذبها إليها ، وما تعاطى ذلك إلا لكونه كان عارفا بسياستها فإذا قد علمت ذلك ظهر لك أنه إنما تستر من تستر من الأولياء لغرض محمود للطالب والمطلوب فلا تنكر حينئذ بعد ماتبين لك الحق على أحد من المتسترين منهم لعلمك أنهم مافعلوا ذلك إلا لغرض محمود فتتوقاه أى الانكار لئلا تحرم بركتهم وتلتمس لهم العذر مهما استطعت . يحكى أن رجلا من الأولياء كان له تلميذان فدخلت يوما على هذا الولى امرأتان جميلتان فى الخلوة فأمر التلميذين أن يغلقا عليه باب الخلوة ففعلا ذلك ثم أن أحدهما قال لصاحبه أنظر إلى ماصنع الشيخ كنا نظنه أنه من الأولياء حتى كشف الله لنا عن حقيقته فقم بنا نلتمس لنا رجلا صالحاً يدلنا على الله فأبى صاحبه ولم يوافقه على ماعزم عليه وبقى عند الشيخ وذهب الآخر .

ثم إن هذا الذى بقى أخذ إناء ووضع فيه ماء وجعله على النار حتى صار دافئاً فبعد ساعة طرق الشيخ عليه باب الخلوة ففتحه وجاء إليه بذلك الإناء فقال له ماهذا فقال ماء لأنى لا أعتقد العصمة إلا للأنبياء والحفظ للأولياء فلما سمع ذلك منه قال له بارك الله فيك ياولدى ادخل إلى الخلوة واخرج المرأتين منها فلما دخل ماوجد أحدا فتعجب وقال ياسيدى ماوجدت بها أحدا فقال ياولدى هذه الدنيا والآخرة جاءتا إلى وكل واحدة منهما تطلبنى لنفسها فقلت لهما لاأريدكما إنما أريد وجه الله تعالى فلما سمعتا ذلك منى انصرفتا عنى فلما سمع المريد ذلك منه حمد الله وأثنى عليه حيث لم يعجل فى الأمور فيحرم بركة أستاذه .

فانظر ياأخى إلى هذا التستر بما هو مخالف لظاهر الشريعة واعلم أن تستر جميع المتسترين من الأولياء من هذا القبيل فإياك أن تعتقد فيهم غير ذلك فتحرم بركتهم كما حرم هذا المريد المذكور بركة أستاذه بسبب مااعتقده فيه بمجرد النظر إلى دخول المرأتين عليه فما ضره لو التمس عذرا له ينجيه من هذا البعد

الذى أصابه حتى صار لم يقبله أحد من الأولياء، ووجه العذر أن يقول فى نفسه إذا جنحت للانكار ربما تكون إحداهن زوجته والأخرى كريمته أو والدته فيسلم له اعتقاده وينتفع به كما انتفع صاحبه الذى قدم الإناء له وقال ما سمعته حين قدم الإناء مما يجب اعتقاده على كل مؤمن ومؤمنة وفقنا الله لحسن الظن وحمانا من الزيغ والطعن ، ثم قال رضى الله عنه :

شَرِبْتُ كُؤُوسَ العِشْقِ صِرْفًا وَفَضْلَتِي
بِهَا هَامَ مَن أَسْقَيْتُهُ فَهُوَ خَالِعُ

الصرف ضد الممزوج والعشق هو الافراط فى المحبة وهذا كلام يدل على أنه كان فى زمانه أشد حباً لله ورسوله من غيره لأن العشق هو الإفراط فى المحبة كما شرحناه لك آنفاً ويدل أيضا على وسع طاقته ولو لم يكن كذلك لظهر عليه ذلك بما يشعر به كالبكاء عند سماع ذكر محبوبه واصطلامه به عن القيام بما كلف به من المراتب كالقيام بحق الزوجة والولد والمريد والأرحام والصاحب والجار والضيف وغير ذلك مما يجب عليه القيام به فصحوه وقيامه بالمراتب يدل على أنه تخلق باسم الله الواسع وباسمه الحكيم لأنه قام بما كلف به من اعطاء كل مرتبة حقها وهى من الحكمة وهذا مقام محمدى لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما استوعب شراب المحبة فى الليلة التى أسرى به وعلم حين شربه علم الأولين والآخرين ما ازداد إلا تمكيناً وقياما بما أمر به حتى مدحه الله على حسن قيامه بما كلف به من اقامة جدار ناموس الربوبية ودلالته لأمته على الله بأبلغ عبارة وألطف اشارة بقوله تعالى «وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم وإنك لعلى خلق عظيم ، ولولا أنه على خلق عظيم ما وسع العالم رحمة وعلماً وخاطب كلا من أفراده بقدر مايقرب من فهمه .

فالناظم رضى الله عنه لما كان وارثاً محمدياً ظهر بهذه الصفات بعد شربه الصرف من كأس المحبة ولولا أنه ظهر بها ما توجهت إليه وجوه الخلق وانتفع

بصحبته منهم من انتفع كسيدى الحاج سعد الدين الكابلى رضى الله عنه وسيدى أحمد السومى رضى الله عنهم وغـــيرهم ممن لم نذكرهم فى هذه الوريقات لقصور همة أهل هذا الزمان عن إلقاء السمع وقوله رضى الله عنه «وفضلتى بها هام من أسقيته» الهيام هو إظهار زيادة كثرة عطش المحب إلى شهود جمال محبوبه واقباله عليه بخروجه عن كل ماسواه ولذلك أكده بقوله «فهو خالع» أى تارك كل مايشغله عن محبوبه من أهل وولد وغير ذلك ، وفى هذه الكلمات زيادة إيضاح على ماذكرناه من وسع طاقته استدلينا بها على ذلك من قوله وفضلتى بها هام من أسقيته فهو خالع لأن مفهوم هذه الكلمات دل على ضيق إناء من أسقاهم إذ لو كانوا فى الوسع مثله ماخلعوا سوى المحبوب. بل كانوا معه بالقلوب وبظواهرهم مع ما كلفهم به من القيام بسياسة كل محجوب . وللبيت أيضاً معنى آخر يدل على سعة حال من شرب من يده مدام الحب وهو ضد مافسرناه به لأن قوله « بها هام من أسقيته » أى طلب الزيادة لوسع إنائه وهو قوله « فهو خالع » أى تارك بباطنه كل ماسوى المحبوب وبظاهره قائم بما كلف به .

أعلم أن كل من كان بقلبه مع الحق وبظاهره مع الخلق فهو الوارث الكامل لأن ذلك كان حال النبى صلى الله عليه وسلم ولولا أن ذلك كان حاله لبقيت الأمة فى ظلمة الجهل لعدم وجود من يخرجهم منها ومن كان غائباً بسكره عن الإلتفات إلى الغير لا ينتفع به الغير بل نفعه يكون قاصراً عليه والمتعدى نفعه أفضل من القاصر ومن ثمة كان النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء لأن نفعه كان تعديته أكثر من تعدى نفعهم لكثرة أتباعه ويؤيد ذلك أن الأمم تحشر يوم القيامة فيكونون مائة وعشرين صفاً منهم ثمانون صفاً أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأربعون صفاً بقية الأمم فظهر من هذه الكثرة أن كل من كانت أتباعه كثيرة يكون أفضل ونفعه أكثر ممن كانت أتباعه أقل ، فكل ولى كانت أتباعه كثيرة فهو أرفع درجة من قليل الأتباع فافهم . واعلم أنه لما كان فرط العشق وهو الافراط فى المحبة لا يستطيع

حاله كل أحد طلب بعض العارفين من الله منه مقدار الذرة ، قال « ياالله بذرة من محبة الله أبقى بها عن كل ماسوى الله » ، ويكفيك دليلا على سعة حال الناظم طلب هذا القائل من المحبة هذا القدر إذا فرقت بين هذا الطلب للقدر المذكور وبين قول الناظم شربت كؤوس العشق إلى آخر ماقال ، ولما فهم من فحوى كلام الناظم أن الحب عنده قطرة من بحر العشق بصريح قوله « وفضلتى بها هام من أسقيته » والفضلة هو الشيء اليسير الباقى فى الكأس ، علمنا فضله على سائر المحبين ، ورتبته فى مراكز أرباب التمكين .

واعلم أن العشق لايتجزأ حتى تكون له فضلة لأنه أمر معنوى بل المراد من الفضلة أهونه وأخفه ثقلا على المحب وكلما كان العشق أخف مثلا سمى محبة وإذا توسط يكون مودة وإذا ازداد بتعدى الحد إلى الافراط فى المودة يسمى عشقاً مثال ذلك النار فإن أولها يسمى شرارة وإحراقها يكون أهون فإذا تعدت الحد فى الكبر تسمى ناراً وإحراقها حينئذ يكون أشد من إحراقها وهى شرارة وإذا صار لها لهب وزفير حينئذ لايمكن لأحد القرب منها لقوة سلطنتها وهذا معنى الإفراط والتعدى فى الحد وهذا مثال العشق ، والشرارة مثال المحبة والجمرة مثال المودة فافهم ترشد وكلامه برمته فى هذا البيت يدل أيضاً على أنه لايدخل المريد إلامن باب المحبة وإن ثبت أنه يلقن الأسماء فذلك محمول على أنه يزكى بها النفوس إذ كانت فى مقام الأمارة واللوامة والملهمة لكى تصلح لحمل أثقال المحبة وأمامن كان فى النفس المطمئنة فإنه مايتوجه إليه إلا بإيقاد مصباح المحبة الكائن فى زجاجة فؤاده لأن صاحب النفس المطمئنة مستعد للايقاد لصفاء زجاجته وانقاء فتيلة مصباحها من الكدورات المانعة لها من سرعة الاشراق ، فافهم . ثم قال رضى الله عنه :

وَكُلُّ مَقَامٍ فِى الْهَوَى قَدْ سَلَكْتُهُ
وَتَحْتَ لِوَائِى الْعَاشِقُونَ خَوَاضِعُ

اعلم أن المقامات المصطلح عليها فى عرف الصوفية كثيرة منها مقام التوبة أى توبة المريد عن الرجوع إلى الاكوان ومقام الزهد أى فى كل مايبعده

من حضرة الحق ومقام التوكل وهو ترك الأسباب ومقام الصبر أى على الله في الشدة والرخاء ومقام الإخلاص ومقام علم اليقين ومقام عين اليقين ومقام الكشف ومقام حق اليقين ومقام الفناء ومقام البقاء ومقام شهود وحدة الأفعال ومقام وحدة الأسماء ومقام وحدة الصفات ومقام وحدة الذات .

والحاصل أن المقامات كثيرة وكلها أسباب من تعلق بها جذبته إلى مقام «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» وكلام الناظم رضى الله عنه يدل أن من القوم من وصل إلى حضرة القرب بسلوك طريق مقام ومنهم من سلك بسلوك طريق مقامين ومنهم من تقرب إلى الحضرة العلية بسلوك ثلاث مقامات ومنهم من تقرب بأكثر إلا هو فإنه سلك جميع الطرق وقطع جميع عقباتها على نجايب الصدق فى الطلب ، وانفرد بقطع علائق كل مأرب ، حتى وصل بالجذبة الإلهية إلى قاب قوسين القرب المذكور ، وسمع بالله من حضرة الله خطاب «اليوم أكملت لكم دينكم» المزبور فى الرق المنشور ، ولولا أنه سلك جميع المقامات ، وعرفها كمعرفته لطرق الأرض وطرق السموات ، ماصح له أن يقول «وتحت لوائى العاشقون خواضع » .

والمراد من طرق السموات أى طرق سموات قلوب المريدين التى يلج منها الخناس لاستماع مايوحيه إليهم ملك الإلهام لكى يفسده عليهم فيرصده بشهاب من توجهاته فيرجمه به حتى لا يصل إليهم منها وأما قولى كمعرفته لطرق الأرض أى كمعرفته بما تصلح به طرق أرض الطبيعة لإيلاج مياه الحكمة منها إلى ما أودعه الحق فيها به بذر المعرفة به لتنتج ثماره للجانى وتحييها بالري بعد محلها ومن كان عارفا بهذه الأحوال ، كيف لا تخضع إليه الرجال وتحشر تحت لوائه يوم الرجفة والزلزال .

اعلم يا أخى أن قول الأستاذ وتحت لوائى العاشقون خواضع يدل على أنه وصل إلى مقام صار فيه معشوق الحضرة ، ودليله قوله عليه الصلاة والسلام ،

الجزاء من جنس العمل وقوله أيضاً «اعمل ما شئت فإنك مجزى به» فالجزاء الذى جوزى به فى مقابلة عشقه أن جعله الحق معشوقا وعشاق عصره تحت لوائه يكونون يوم القيامة إظهاراً لتميزه عليهم بكونه معشوقا إذ لو كان عاشقا بعشقهم لكان فى زمرتهم تحت لواء من يتعين عليهم فى ذلك اليوم واعلم أن الأولياء طوائف منهم العشاق ومنهم المحبون ومنهم الزاهدون ومنهم الهيمون ومنهم المقربون ومنهم العارفون ومنهم الصديقون وغير ذلك وكل طائفة منهم عليها رئيس ويكون ذلك فى كل عصر ويقدمهم ذلك الرئيس يوم القيامة وفى يده لواء وهم تحت لوائه وجميع ألوية جميع الأنبياء والأولياء يكونون تحت لواء المصطفى صلى الله عليه وسلم كما ورد به النص ، قال سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

يحشر العاشقون تحت لوائى   وجميع الملاح تحت لواكا

الملاح هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والأولياء . ويفهم من كلام هذا الولى أن جميع عشاق عصره تحت لوائه يوم القيامة لا مطلق العشاق لوجود أن غيره ادعى ذلك ومن جملة من ادعى ذلك الناظم فى البيت المتقدم ذكره فتعين حينئذ أن المراد من العشاق الذين ذكرهم المعاصرون له وقد ذكرت لك أن الأولياء طوائف يكونون فى كل زمان وكل طائفة يقدمهم رئيسهم يوم القيامة .

ثم اعلم أن فى ذلك اليوم تكون السيادة العظمى ، والموكب الأسمى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه يحشر ولواء الحمد فى يده وجميع من ذكرناهم من الأنبياء والأولياء يكونون بألويتهم وأتباعهم تحت لوائه جميعا إلى أن يأتى بهم المحشر ويقف بهم ثم ينصرف كل نبى ويقف مع أتباعه فى الموقف الذى يؤمر به وناهيك بهذه المزية العظمى ، له فى ذلك اليوم والسيادة الكبرى والمقام الرفيع الأسمى ، وقد صرح صلى الله عليه وسلم لأمته بهذه السيادة بقوله «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» أى ولا فخر لى عليكم بالسيادة

بل الفخر لى فى ذلك اليوم بالعبودية والشفاعة وما أخبرهم صلى الله عليه وسلم بسيادته فى ذلك اليوم إلا ليعرفوا قدره فيأتونه ليشفع لهم من هول الموقف ويستريحون من طول المكث فيه أجارنا الله وإياك من المناقشة فيه ، وجعلنا ممن احتمى بجنابه وحشرنا فى زمرة ناديه ، ثم قال رضى الله عنه :

رَضَعْتُ بِثَدْيِ الْحُبِّ مُذْ كُنْتُ رَاقِداً

بِحِجْرِ الصِّبَا وَالغَيْرُ لِلَّهْوِ رَاضِعُ

وفى هذا البيت إشارة إلى حسن سير الناظم فى الابتداء وتوجهه لأن المفهوم من فحوى هذا البيت أنه من حال طفولتيه نشأ على اكتساب كل عمل يكسبه حب الله له ،وحب الله للعبد موقوف على إرادة العبد بعمله وجه الله عملا بقوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » ومن عبدالله بهذا الوجه فهو القائم بوصف العبودية . والمقبل بها على عزة الربوبية وأوصاف العبودية كثيرة منها الذل والانكسار والعجز والفاقة والافتقار ، والقيام بما أمر به آناء الليل وأطراف النهار ، وعدم انتظار الجزاء من سيده وأن لا يكون له فى كل حركة وسكون معه اختيار ، ولا التفات إلى غيره مطلقاً فى السر والإجهار ، وهذه هى أشرف الأعمال ، ولا توجد إلا فى أشرف الرجال ، أخبرنا ولد الأستاذ قال كنت فى حالة الطفولية ذات ليلة جالساً مع والدى لجلس يمازحنى فلما كثر على مزاحه غضبت عليه فلما رآنى غضبت نظر إلى شزرا وانتهرنى وقال لى لا تظنن أنى عبدك إنما أنا عبد الله وقام عنى وانصرف ومارأيته بعد ذلك مازحنى بذلك المزح ، فتأمل يا أخى فى كلام الأستاذ مع ولده وأنت تعلم أن الولد كبد الإنسان ثم تأمل كيف ظهر صدق عبوديته حيث صدق مع سيده فى إنفاذ ماوعده به من ترك المزح مع ولده ولم يمازحه بذلك المزح بعد ذلك أبدا .

واعلم أن من تحقق بمقام العبودية لا يكون له التفات إلى غير سيده بخلاف

من كان حراً. يحكى أن رجلا من الصالحين مر على شخص يضرب شخصاً آخر ظلماً وعدوانا فسأل هذا عبد من؟ فقالوا له إنه حر فقال صدقتم لو كان عبداً مافعل هكذا أى ما كان تعدى ماحده له سيده من ظلم هذا الرجل فالعبد الصادق يا أخى لا تكاد تراه طرفة عين يسعى بظاهره وباطنه فى غير ما أقامه فيه سيده ولا ملتفتا إلى غير ذلك فإذا قد علمت من هذا الكلام ، بأن الناظم قد تحقق بهذا المقام فاعلم حينئذ أنه من كمال توجهه إلى حضرة المحبوب ، بإخلاصه فى طلب جناب علام الغيوب ، أتى فى شطر البيت الأخير بما يؤكد للأغيار ذلك ، ويبرهن لهم على حسن سيره فى أنهج المسالك ويحقق لهم كماله فى المقاصد بذكر مطلب غيره من كل قاصد ، وهو قوله رضى الله عنه «والغير للهو راضع» الرضاعة هى استجلاب العبد لحب الرب له بفعل مخصوص وهو ماقدمنا ذكره ولما كان الناظم مقبلا من حال صباه . بالأعمال الشرعية على مولاه ، شبه نفسه بالراضع والفعل الذى هو عبارة عن المجاهدة بالرضاع والحب بالثدى الكائن فيه لبن محبة الله للمباشر للرضاع .

ولما كانت الناس على اختلاف فى المقاصد بعبادتهم وكان غيره من ذلك القبيل بين مقاصد الغير بقوله للهو راضع أى مستجلب بعبادته إما أغراضاً دنيوية أو أخروية وكلها لعب ولهو فإن كانت دنيوية فبئس الغرض بنص قوله تعالى «ومن يرد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب» وإن كان من أغراض الآخرة فنعم الغرض للعوام لأنه من شهوات النفوس العاقلة عما وراء ذلك مما خصصت به الخواص منهم وهو دوام شهودهم لجمال الملك القدوس فطوبى لهؤلاء الخواص ، بما ورد فى شأنهم بما يصرح لهم بالاختصاص ، وهو قوله جل وعلا «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» سئل بعض العارفين عن أهل الجنة فقال هم أطفال الطريق وشبههم بالأطفال لأن الطفل إذا تعلق بك فألهيته عنك بشىء تميل إليه نفسه . . .

. . . .

. . . . (١)

وَلَمْ أُبْقِ فِيهِ بَعْدَ شُرْبِي فَضْلَةً

لِذَا حُرِّمَتْ بَعْدِى لِغَيْرِى الرَّاضِعُ

. . . .

. . . .

شرح آخر غير هذا على مصطلح السادة الصوفية سميته «كشف الأسرار الوهمية محيا النفحة القدسية» فاطلبه تجد فيه ما أبرزته يد القدرة على لسانى ، وأجرته من حل جامد رموز فائض ماحوته من المعانى ، فإذا وجدته ورأيت فيه مايخالف آرائك ، فاحمله على محمل حسن ، ولا ترجع القهقرى منه إلى ورائك . ولا تتبع الهوى النفسى فيه فتنسبنى إلى الإلحاد ، فإنى أشهدك بأنى أشهد أن لا إله إلا الله المنزه عن الحلول والاتحاد .

والمرجو من فضلك إذا اطلعت على الشرح المذكور ، أن تصلح ماتجد فيه مخالفا للشرع وتستر عثراتى فإن الإنسان عثور ، لكن على شرط أن يكون سدك الخلل بيديك ، وتصليحك لمعناه بعد ماتشرفه على أهله فربما يكون عندهم من العلم مالم يكن لديك ، وليس كل امرىء يدرك من الأمور مايتمناه ، ثم إن ظهر لك خلل بعد الإشراف فى عباراته ، فاحمله على خطأ اللسان وسبق القلم به لتسلم من ظن السوء بمقر بعجزه فى عبارته معترف بتقصير إشاراته ، وعليك بحسن الظن به لتسلم من الوقوع فى ورطة سوئه ، المصرحه به آية «إن بعض الظن إثم» فياخسارة من آب به يوم كشف الغطاء إلى من نهاه عنه وباء بسوئه .

---

(١) هنا نقص بأوراق المخطوطة يقابل باقى شرح البيت السابق وجزء من شرح البيت التالى .

فإياك يا أخى أن تبيت وقلبك منطو عليه فانه قد بلغنى عن القطب الربانى والفرد الصمدانى سيدى عبد القادر الجيلانى قدس الله سره العزيز أنه قال لتلامذته عليكم يا أولادى بسلامة الصدر على كل مسلم ومسلمة ، وإياكم أن ينام أحد منكم وفى قلبه خبث لأحد من عباد الله واعلموا أنى ما وصلت إلى هذا المقام إلا بسلامة الصدر على كل مؤمن ومؤمنة ، لا بعلم ولا بعمل ولا بعبادة فاذا أخذ أحدكم مضجعه لينام فليفتش أولا زوايا قلبه فان وجد فيها خبثا فليخرجه منها وبيت طاهر القلب نقيا . وإذا لم يفعل ذلك ونام وقلبه منطو على غشه فليعلم أنه بعيد من حضرة الله أعاذنا الله وإياك والمؤمنين من ذلك، وسلك بنا جميعا أحسن المسالك ، آمين آمين ثم قال رضى الله عنه .

وَهَا هِيَ لَيْلَى قَدْ أَمَاطَتْ لِثَامَهَا

وَمِنْ دُونِهَا انْزَاحَتْ لِتَيْنِي الْبَرَاقِعُ

اعلم أن ها اسماء اصطلحوا عليها الصوفية ، وجعلوها كناية عن الذات العلية . منها ليلى واسما وسلمى وسعدى وعلوى ودعد وزينب وعزة ولبنى ومية. والاماطة وهى الإزالة تقول أمطت الأذى إذا أزلته من موضعه الذى كان فيه واللثام هو ما يستر به نصف الوجه من أسفله والبرقع هو ما يستر الوجه كله ولكنهما عند القوم هما كناية عن الأكوان وكنى بهما عنها لكونهما ساتران لوجود الحق السارى فى جميع ذراته الكونية واختار الناظم لفظة ليلى هنا وكنى بها عنها فى هذا البيت لكثرة تجليها فى الثلث الأخير منه فى كل ليلة على أحبابها فهو من باب ذكر الكناية وإرادة المكنى عنه بها .

واعلم أنهم ما اصطلحوا على هذه الأسماء وجعلوها كناية عن الذات إلا استرا لحالهم وغيرة على التصريح باسمها حين نظروا إلى إنكار الغافلين على من صرح باسمها وفعلهم به كسيدى حسين الحلاج حين رموه بالزندقة والكفر

وقتلوه وغيره ممن نسبوهم إلى الجنون وبجنوه، ومن ثمة لما كان الكتم أمرا محتما عندهم قلت فيه :

أغار عليها أن أصرح باسمها
مخافة أن يدرى الرقيب بمن أهوى
فيحسدنى فيهـا ويرصدنى إذا
شرعت أناجيها فيمنعنى النجوى
ولو لم تكن تهوى اكتتام الذى جرى
بموطن أخذ العهد مابيننا علوى
لصرحت فى نجواى للناس باسمها
ولم أخش من يسوى ومن لم يكن يسوى
وفهت به جهرا ولو أنهم دمى
أباحوا بر أى العقل وأخرجوا فتوى

ولما ظهر لك من أن ليلى وما عطف عليها كناية عن ذات الحق فاعلم بعد ذلك أن معنى البيت برمته تفصيلا وهو قوله «فهاهى ليلى قد أماطت لثامها» أى فهاهى محبوبتى التى كنيت عنها بليلى لما علمت صدق إقبالى عليها بترك سرا وجهرا كل ما سواها أجازتنى برفع كل حائل بينى وبينها وأرتنى نور جمالها السارى فى كل حائل ولم تزل تشهدنى ذلك النور شيئا فشيئا إلى أن اضمحلت ظلمة ذلك الحائل تحت سلطنة أشعته وبدا ماخلفه بعد الخفا إلى الظهور فصار لايقع نظرى فى جميع الفانات إلا عليه ، ولا أشير بجميع إشاراتى الا اليه ، لأنى صرت فى مقام مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه تنزلا من مقامى الذى كنت فيه وهو مارأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله إظهارا لكمالى ومعنى قوله مارأيت شيئا الا ورأيت الله فيه أى مارأيت شيئا الا ورأيت وجود الله ساريا فيه وهو قائم به من غير حلول ولا اتحاد وبهذا القول يكون الوجود بأسره عند هذا القائل كالمرآة يشهد وجود الحق فيه وصاحب هذا المقام ينظر

الأكوان بنظرين النظر الأول يرى به ثبوتها والنظر الثانى يرى به قيامها بالله وصاحب النظر الأول لا ينظر إلى الأكوان إلا بنظر واحد لأنه لايشهد إلا واحدا لأنها عنده جميعها مظاهر لواحد وهو بحر الأحدية كالاعداد بالحروف لأن الإثنين والثلاثة والأربعة إلى آخر العدد فرع عن الواحد وهو الألف ومن لم ينظر إلى الأكوان بنظر هؤلاء فهو محجوب بها عن شهود المكون لأن كل كون إذا نظر اليه ووقف عنده بنظره اليه فهو حجاب له .

واعلم أن هذه الحجب لاتزول عنه إذا أراد إزالتها إلا بشيئين الأول إما بجذبة ربانية تمحق عنه صورها بسطوات أشعة أنوار «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام» فيشهد الوجه ويغيب عن الاكوان والنفس. الثانى إما بشيخ مرشد يدله على الأعمال التى تتزكى بها نفسه الأمارة حتى تصلح لرؤية الوجه المذكور والأعمال تنقسم إلى قسمين أعمال ظاهرة وأعمال باطنة ، فالأعمال الظاهرة هى مجاهدة النفس بالعبادة كالصلاة ونحوها والرياضة ومخالفة الهوى وتغير الخلاس والجلاس وصرفه فى ذكر الله جميع الأنفاس والجوع والصمت والسهر والعزلة والتواضع والورع والذل والانكسار .

والحاصل أن عمل الظاهر هو كل ما كان يعمله النبى صلى الله عليه وسلم وكل ذلك مسطور فى الكتاب والسنة وموضح فى كتب الصوفية وأما القسم الثانى من الأعمال هو عمل الباطن وعمل الباطن الاخلاص فى الأعمال بأن لايريد بها إلا وجه الله تعالى ليسلم من الأعراض النفسية لأن الله لايقبل العمل المشروك فيه غيره فلابد من الزهد . قال عليه الصلاة والسلام «ازهد فيما سوى الله يحبك الله» والزهد فى كل ماسوى الله هو أمر معنوى قائم بالقلب ولا عبرة بمن زهد بالظاهر لعدم وجود الشىء أو للرياء ليقول الناس فلان زاهد ومن فوائد الزهد لمن زهد شهود صدور النعم كلها من الله ظاهرها وباطنها ونسبة

كل عمل الباطن بسلم صدره من بغض مؤمن شتمه أو ضربه أو نكبه فى شىء ،
ومن الأعمال الباطنة شهود المعية الواردة فى قوله تعالى « وهو معكم » ومنها مراقبة القلب كى لا يطرقه وارد يحجبه عن الله ومنها مراقبة أنفاسه وأوقاته لئلا تتصرم وهو غافل عن الله والحاصل أن أعمال الباطن لاتحصى وجميع المدار عليها لأن الله تعالى لاينظر إلى صور الأعمال الظاهرة بل ينظر إلى البواطن فينبغى لكل مريد صادق أن يحافظ عليها وشرف أعمال الباطن على أعمال الظاهر لايخفى لأن صلاح عمل الظاهر وقبوله متوقف على صلاح الباطن بنص قوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات » .

واعلم أن معرفة الوصول إلى هذه الأعمال ، وعلاج مرض الباطن العضال ، لايمكن إلا لشيخ كامل مرشد فمن أراد معرفة الوصول إلى الأعمال وشفاءه من مرض القلب العضال فليتخذ له شيخا يسلك على يديه ، ويراقبه بظاهره وباطنه مراقبة من جعل شيئا بين يديه فهو لاينظر إلا إليه ، لأن المراقب لاتكاد تقع منه زلة حياء ممن يراقبه وهذه نتيجة المراقبة مع الله ورسوله وشيخه فافهم .

واعلم أنه من كان مع الحق بجميع ماذكرناه لجدير أن يكشف له الحجاب رب الأرباب ، جزاء على قيامه بما أمر به كما كشفه للناظم فرآه من غير حجاب ، رؤية تليق بكماله ، وزاده بها شرفا بدلالته للمريد عليها إذا صدق فى إقباله ، ومن وصل إلى هذا المقام صح له حينئذ أن يقول كما قال الناظم وهامت ليلى إلى آخر ماقال .

ومن لازم من رفع عنه الحجاب أن يرى الحق ومن لازم من رأى الحق أن تكون رؤيته للحق بالحق لأن الحق قديم والرائى حادث فظهر من هذه الجملة أنه مارأى الحق من رآه إلا بعد فنائه عن نفسه بالموت المعنوى المتوقفة عليه الرؤية بصريح قوله صلى الله عليه وسلم إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا ، ومن أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر

وهذا الحديث الأخير مصرح بأن المراد من الحديث الذى قبله الموت المعنوى بخلاف من فسره بالموت الحسى وأن كان تفسيرة صحيحا لأنه من مات بالموت الحسى كذلك يرى به لكنه فى الآخرة ومن رآه فى الآخرة ليس له تميز على من رآه فى الدنيا بعد فنائه بالموت المعنوى لأن فى الآخرة كل يرى ربه حتى الكفار حين يتجلى على أهل المحشر فى المحشر فيذكرون ذلك لجهلهم بأن الله يتجلى بكل مظهر فلم يسجدوا ويسجد أهل الإيمان وإنما التميز لمن رآه فى الدنيا بعد الموت المعنوى ورؤية الحق فى الدنيا لاينكرها أحد لأنها جائزة كما صرح بذلك بعض العارفين .

كنت قبل اليوم حائر في زوايا الكون دائر
فى بحار الفكر ملقى بين أمواج الخواطر
والذى كان مرادى لم يزل فى القلب حاضر

و (قال) :

كشف الستر لعينى وبدا فى كل بهجه
فاز من خلى الشواغل ولمولاه توجـــه

ثم قال رضى الله عنه وأرضاه وسقى بماء الغفران ثراه :

وإنّى وإنْ أَخْمَلْتُ ذِكْرِى سابِقًا
وأخفَيْتُهُ عَنْكُم فَلِلْغَيْرِ ذَائِعُ

قوله ذائع أى شائع وهذا خطاب منه متوجه إلى أهل بلده وهم أهل المدينة حشرنا الله فى زمرتهم لأنه ورد أنهم أول من يبعث من أهل الأرض ويسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينتهى بهم إلى جبل أحد فيركب عليه وهم خلفه فيسير بهم إلى المحشر فيالها من منقبة عظيمة، وقد أرانى الشيخ مرة مركب النبي صلى الله عليه وسلم فيه فرأيته فى مقدم الجبل كأنه سرج فرس

وأرانى مركب سيدنا أبى بكر عن يمينه رضى الله عنه ومركب سيدنا عمر عن يساره رضى الله عنه .

اعلم أنه جرت سنة الله فى الأنبياء على أن أول من يكذبونهم أهل بلدهم ولم يصدقهم منهم إلا القليل ، والأولياء رضى الله عنهم فى تكذيب قومهم وأقاربهم لهم وأهل بلدهم أسوة حسنة بالأنبياء من طريق الإرث للحديث المحمدى الوارد وهو قوله صلى الله عليه وسلم «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» وقوله أيضاً «العلماء ورثة الأنبياء» فتأمل فى قوله تعالى «وما آمن معه إلا قليل» وفى قوله تعالى «فكذبه قومه» وفى قوله جل وعلا حكاية عن قول أزر حين دعاه سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام للايمان بقوله «يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً» ، فأجابه بقوله «أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً» وتأمل فى جواب الحق سبحانه وتعالى لسيدنا نوح حين تضرع إليه فى نجاة ولده فقال «رب إن إبنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أرحم الراحمين» فأجابه سبحانه بقوله «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» وانظر أيضاً فى أبى لهب كيف كذب النبى وهو ابن أخيه وكيف كذبه أهل مكة وأخرجوه منها ولم يؤمن منهم معه إلا القليل كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة والعشرة المبشرين وخديجة وغيرهم ممن من الله عليهم بالتقدم فى الإسلام وآمن به الأنصار حين اشتهر عندهم فى المدينة بالنبوة فجاءه منهم إلى مكة المشرفة سبعون رجلا وبايعوه على الإسلام ولم يزالوا ينتظرونه من شدة شوقهم إليه حتى قدم المدينة عليهم فأووه عندهم وحموه من قومه وأهل البلدة الذين انكروا عليه بالمرهفات ونصروه .

فكل ولى إذا أردت أن تستدل على ولايته فانظر إلى قومه وأهل بلده المعاصرين له فإنك إذا نظرت إليهم تجد القليل من يسلم له فى ولايته ومن ثمة لما نظر الأستاذ إلى أهل بلده فوجدهم قد أنكروا عليه فى ولايته خصوصاً لم لم يبلغهم فى بداية ظهوره خبره بها ممن يفد على المدينة من الزوار ، قال مخاطباً

لهم: ولى وإن أخملت ذكرى سابقاً، إلى آخر ما قال فى البيت أى وأنى يا منكرون على من أهل بلدى فى ولايتى وإن أخملت ذكرى بالولاية عنكم سابقاً قبل أن تسمعوا بها فى النهاية من أهل الأماكن البعيدة، فهو عند الغير شائع، وحسبكم ما تسمعون من إقرار القادمين لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم لى بالكمال وأخذهم عنى البيعة المصطلح عليها عند الصوفية .

واعلموا أنى ما أخملت ذكرى عنكم إلا لحكمة لم تقفوا على سرها والحكمة فى إخمالى لذكرى عنكم قبل تسمعون به من الخارج أنه ربما إنى إذا ظهرت لكم بالولاية قبل إيراد الدليل والبرهان عليها تؤذونى وتكذبونى وتبالغون فى الإنكار على فتصابوا بإنكاركم وعداوتكم لى وغيبتكم للحديث الوارد المصرح بأن «أكل لحوم العلماء سم» أى لحوم العلماء بالله سم قاتل، والدعوى من غيره دليل يشهد بصحتها فاسدة، ومن الحكمة أيضاً فى أردتها بخمولى رجاء أنكم إذا سمعتم بأن ذكرى بالإرشاد . شاع فى جميع الأقطار والبلاد وتحقق ذلك عندكم حين ترون أهلها قد قدموا على . وأخذوا عنى البيعة وتأدبوا بين يدى ، تصدقونى بعد ذلك إذا دعوتكم إلى الله . ودليتكم بلسان الارشاد على سلوك الطريق الموصلة إلى حضرة الله .

وكان الأستاذ رضى الله عنه يقول لما رأى بعض تلامذته يتأذون من إنكار أهل المدينة عليه لا تنكروا يا أولادى على من ينكر على من أهل المدينة لأنه لم يتفق لهم أنهم سمعوا أن أحداً غيرى ممن تقدم فيها قبلى ظهر فيها بالولاية مثل ظهورى هذا وهذا أمر خصصت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر من الله تعالى .

اعلم أن المعاصرة من أعظم الحجب لأن المعاصرين يرونه بشراً مثلهم يأكل ويشرب ويضحك ويمزح وعندهم فى معتقدهم أن الولى لا يكون إلا أشعث أغبر زاهداً فى الأكل والشرب والضحك والمزح ولم يتفطنوا إلى أن

ذلك كله من سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهم فى مشهدهم كقوم بعض الأنبياء حين قالوا، إن هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون، وككفار قريش فى ضعف نظرهم حيث قالوا« ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق».فلو نظر كل من الفريقين إلى قوله تعالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » وقوله تعالى « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا أى بالنبوة لصدقوا أنبياءهم فيما دعوهم إليه وآمنوا بهم خصوصاً لمـــا جاءوهم بالمعجزات التي ليست هي من طاقة البشر .

وكذلك كل منكر على ولى من أولياء الله لو نظر إلى الفضل ونعمة الله على من أنعم عليه واستعمل الانصاف خصوصاً حين يرى كراماته المبرهنة على صحة دعواه لصدقه وصحبه وانتفع به كما انتفع من آمن بالأنبياء وصدقهم. وكان الأستاذ رضى الله عنه يقول حين رأى شدة الإنكار عليه من أهل بلده الحمد لله الذى حمانا منهم فلم يخرجونا من المدينة كما أخرجت قريش سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم من مكة حين اشتد انكارهم عليه وكما أخرجت سيدنا لوطا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قومه من قريته ويحتمل أن معنى قوله رضى الله عنه وإنى وإن أخملت ذكرى سابقاً .إلى آخر البيت أنه ما أخمل ذكره ولم يظهر بالولاية فى المدينة المنورة تأدباً مع النبي صلى الله عليه وسلم كما تأدب من كان قبله فيها فلم يظهر بالولاية فى المدينة المنورة لأن حضرته صلى الله عليه وسلم حضرة أدب فلما جاءه الأمر من ساكنها بالظهور ظهر لأهلها ودعاهم إلى الإرشاد بدلالته لهم على ما فيه صلاح معادهم من قول وعمل لأن امتثال الأمر خير من سلوك الأدب فمن أمر بشىء لا يمكنه التخلف لأنه إن فعل ذلك صار عاصياً .

فتأمل فى سيدنا آدم كيف لما أمره الله بأن لا يأكل من الشجرة ونهاه عن ذلك فلما أكل منها ووافق الإرادة وخالف الأمر ذكره بالمعصية ، فقال« وعصى آدم ربه فغوى» ثم تاب عليه بعد ما استغفر ربه وهدى .

واعلم أنه مما دلنا على أن الناظم ما ظهر بالمدينة إلا بأمر من النبى صلى الله عليه وسلم قوله لبعض تلامذته: المدينة مقام أدب وما ظهرت فيها إلا بعدما أمرت وهل مع بقاء الشمس ظهور للنجوم، فلما سمعنا قوله هذا تحققنا أنه ما ظهر إلا بأمر من الحضرة المحمدية فمن القوم من صدقه وتلمذ له ومنهم من بقى على إنكاره، ومما من الله به على الحقير أنى بمجرد ما سمعت بولايته وأخبرنى بها الولى الكامل مولانا السيد محسن مقبيل وأشـــار إلى بأن أذهب معه إليه وآخذ عنه البيعة، صدقت الخبر ومضيت إليه من ساعتى واقتبست من مشكاة نور ولايته ولازمته نحوا من خمسة وعشرين سنة إلى أن اختار الحق بأن يكون عنده فى مقعد الصدق بدار كرامته نفعنا الله به آمين ثم قال رضى الله عنه:

سَلُوا نَجْدَ عَنِّى والعِرَاقَ وشَامَهَا
قَلِى ثَمَّ أَسْرَارٌ هُنَاكَ وَذَائِعُ

قوله ثم بفتح الثاء المثلثة بمعنى هناك وأسرار هى، كناية عن خلفائه وكنى عنهم بالأسرار لأنهم أولاد السر السارى فى هيكله وهو الروح والولد سر أبيه كما علمت لا يخطئه لأنه ولد الروح والروح سر كما قررناه لك من أسرار الحق والسر لا ينتج إلا سرا فمن هذا الوجه سماهم أسرار ويشهد لصحة كونهم أولاد سر الحق الذى هو الروح ظهورهم بما له أى للروح من السر وهو الكشف الصحيح عما تخفيه السرائر وعن حقائق الأشياء وهذا معنى قولنا سر أبيه لا يخطئه ويحتمل أن يكون بمعنى الكرامات.

وهذا البيت مؤكد لما شرحناه سابقاً من أنه ما اخمل ذكره عن أهل بلده إلا لأجل أنهم إذا سمعوا من القادمين إلى زيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم بولايته وكراماته ورأوا إقبالهم عليه يصدقونه فى دعواه وتلين قلوبهم إلى الإنتظام فى سلك عقد بيعته ويخرجون من حيطة الإنكار عليه خصوصاً

إذا سمعوا منهم بأن له تلاميذ فى أقطار الأرض متظاهرين بالأسرار والولاية الكبرى وهذه الأخبار كلها من باب التذكرة لهم من الله تعالى على ألسنة الواردين عليهم لينتفعوا به إذا سمعوها من الأباعد قال تعالى، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وهم لا يرد شك فى إيمانهم وقد شاهدنا كثيراً منهم من انتفع بالأخبار . واعترف له بالولاية وترك الإنكار ، وتوارد الخبر كما علمت ينزل الشىء المجهول منزلة المرئى بالبصر . ويجعله فى مرتبة حق اليقين فلا يشك بعد ذلك فى صحته وقوله سلوا نجد عنى والعراق وشامها من باب ذكر المحل وإرادة الحال أى سلوا أهل نجد وأهل العراق ومن حل من الأرض شامها إذا قدموا عليكم عما خصصت به من المراتب العلية . والكمالات السنية . والإرشاد بالإستدلالات الشرعية . والأقوال المرضية وعن كراماتى الخارقة للعادات . واغاثاتى لكل من نادانى واستنجد بى عند نزول المدلهمات .

وخص أهل هذه الجهات ومن بعدهم كما سيأتى بسؤالهم لأهلها عن شريف حاله مع أن شهرته فى غيرها أكثر من شهرته فيها لكون أن أهل هذه الجهات أكثر إيراداً على المدينة ولم يذكر أهل مصر وقراها مع أنه أكثر ظهوراً فيها وأهلها أكثر ايراد عليهم من غيرهم لكونها أقرب إلى الشام من غيرها وما قارب الشىء يعطى حكمه .

وقد اجتمعت على طائفة من أهل الشام فوجدتهم على طريقة أستاذنا فسألتهم عمن أخذتم الطريق ، فقالوا عن خليفته مولانا الشيخ حمد بفتح الحاء العبادى المقيم بمصر لأننا ممن يكثر التردد عليها لقربنا منها وقول الناظم ، فلى ثم أسرار ، أى خلفاء كما بينا لك ذلك سابقاً وكنى عنهم بالأسرار لأن كل واحد منهم جاذب إلى الحق ومخرج من أخذ عنهم من ظلمة بشريته وهذا الجذب والإخراج المذكوران لا يكونان إلا بسر قوى ، وحال مهدوى . وتصرف

أحمدى وحال مصطفوى ، والحال هو سر أودعه الله فى خواص عباده به يتصرفون فى المريد فيخرجونه من غيهب صدوده ، ويجعلونه نوراً يستضاء به بعد ما يدخلونه فى حضرة معهوده .

ولما كانت خلفاؤه موصوفين بهذه الأوصاف المحمودة فهم ضنائنه الذين أودعهم فى تلك الأماكن المذكورة ليق بهم شح أنفس الغافلين من أهلها عن طلب المعرفة بالله تعالى ويزع عنها بهم لباس الجبن عن القيام بكل ما يقربهم إلى الله قال تعالى «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» ، أى الفائزون بحصول مقصودهم وليس مقصود كل طالب لجناب الحق إلا شهود جماله المطلق ، فافهم ثم قال رضى الله عنه :

وَفِي يَمَنٍ وَالهِنْدِ لِي ثَمَّ فِتْيَةٌ
بِهَدْيِي لِيَهْدُوا مَنْ عَنِ الحَقِّ ضَائِعُ

الواو فى أول البيت عطف على البيت المتقدم والتقدير وفى اليمن والهند أيضاً لى ثم ، أى هناك فتية عبر عنهم بالفتية ولم يقل جماعة إشارة إلى فتوتهم بهدى أى بطريق الذى مشيت بهم عليه يهدوا به من عن الحق ضائع والحق هو الله ، أى ضائع فى مهامه الغفلة عنه باشتغاله بما ضمن له من الرزق والأجل لأن اهتمامه بالرزق يشغله عن القيام بناموس الربوبية . وخوفه من فتنة الأجل تدرجه فى هوة الوهم الحائل بينه وبين وقوفه مع وصف العبودية ، ومن وصف العبودية التسليم لحضرة الربوبية . فالاهتمام بالمضمون شرك خفى ، والخوف من المحتوم دليل على عدم الرضى بالقضاء جلى ، فافهم .

ثم اعلم أن طريقة شيخنا الذى عبر عنها بقوله بهدى بكسر الياء الأولى وفتح الثانية هى قيامه بمضمون «وما آتاكم الرسول فخذوه» ، أى ما جاء لكم به الرسول من عند الله من قول وعمل نية فخذوه منه بقوله واعملوا به وما نهاكم عنه من الشرك الجلى والشرك الخفى والمعاصى فانتهوا عنه أى اتركوه . والذى جاءنا

به صلى الله عليه وسلم الكتاب والسنة فالكتاب والسنة لهما ظاهر وباطن، فظاهرهما الشريعة وباطنهما الحقيقة ودليل ذلك قول الصحابي وهو أبو هريرة رضى الله عنه حفظت وعاءين من الحديث فأما أحدهما فبثثته اليكم، وهذا إشارة إلى الشريعة وأما الآخر لو أبثه لكم لقطع هذا البلعوم وأشار إلى عنقه إشارة إلى الحقيقة .

واعلم أن كل من لم يقم أولا بأعباء الشريعة لم يذق نهلة من راح الحقيقة، وحقيقة من غير شريعة زندقة،وشريعة من غير حقيقة مغرة ومزلقة ، لأن الحقيقة هى فناؤك عن نسبة كل فعـــل إليك ، وتركك الاعتماد عليك ، وخروجك عن جميع مالديك ، وشهودك قائماً بالله . وهذا مشهد أهل الله . فأين حينئذ من اتصف بهذه الأوصاف المغرور . الذى به نسب الغافل فعله إليه فالجأه إلى طلب الأجور ، وصرفه عن تحققه بحقيقة شهود،والله خلقكم وما تعملون ، وحجبه عن رؤية إشارة ما برز الكون به وهو فضل من يقول للشيء كن فيكون . فطريقة أستاذنا الذى هدى بها من هداه ، كانت هى هذه تقوم بظاهرك بظاهر الشريعة وبباطنك تشهد أن لا موجود ولا حى ولا فاعل فى الوجود إلا الله . ومن عبد الله بهذا الوجه فقد جمع بين الشريعة والحقيقة . وقام بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم واندرج فى برد أهل الطريقة . وهذه هى طريقة خلفائه الذى يهدون بها من عن الحق أصبح ضالا فى فدافد السلوك .

أخبرنا الولى الكامل. والعلامة المدقق الواصل. مولانا الشيخ عبدالرحمن ابن عبد العزيز المغربى العمرى وهو أحد أصحاب شيخنا قال ، قال لى شيخنا رضى الله عنه كنت أولا متعهداً بظاهر الشريعة فرأيت قطب العارفين ، وأمام الموحدين سيدنا ومولانا السيد على العطار الحلبى جالساً فى أيام الحج يوماً فى المسجد فمر عليه أمير الحج الشامى فحين رآه قام له ومشى معه يحدثه حتى وصل معه إلى باب المسجد فلما خرج أمير الحج من الباب وضع يده على ظهر الأمير ومسح بهـــا وجهه نحوا من ثلاثة مرات فلما رأيت ذلك

أنكرت عليه وقلت فى نفسى هذا ظالم كيف يتمسح به؟ فلما كان من الغد جاء إلى مولانا السيد على فسألته عن فعله ذلك وقلت هذا ظالم كيف تتمسح به فقال لى أما ما تمسحت به إلا من جهة كونه مظهر صفة صفة من صفات الحق لا تبركا به . قال فلما سمعت كلامه وقع فى قلبى كوقعة السهم وصرت من ذلك اليوم لا أشهد باعثا إلا الله تعالى يا أخى أن من أسماء الله القهار والمنتقم قال عليه الصلاة والسلام ، الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه ، والعادل من الحكام مظهر اسمه العدل ورد فى الأخبار عدل ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة والمتجبر فى الناس مظهر الجبار وتسخير العالم بعضه لبعض مظهر القهار ولولا سر القهر ما ظهر التسخير الذى به تم نظام الكون وتم رونق الوجود ، فكل فرد من العوالم مظهر اسم من أسمائه تعالى فمن نظر إلى كل فرد من كونه مظهراً لإسم من الأسماء أو لصفة من صفاته فله أن يتبرك به . قال بعض المحققين ، بسكانها تغـــلوا الديار وترخص ، وما رخصت إلا عند من نظر إلى ذواتها ولم يتفطن إلى من تشرفت به وشرف المكان كما علمت بالمكين .

واعلم أنه مما دلنا على تصرف اسمه القهار أما ترى بعض أهل الشوكة من الناس ينقهر إلى أضعف الخلق وينقاد له فعلم من هذا أنه لولا سر القهر ما سخر هذا القوى لهذا الضعيف سمعت الأستاذ يقول أن الله تعالى إذا ولى عبداً على أمور الخلق أمر جبريل فيمسح على جبينه بجناحه الأيمن فيكسى حلة العزة والهيبة والقهر فيخشاه جميع من ولى عليهم ويسخر له قهراً وإذا أراد عزله أمره بأن يمسح على جبينه بجناحه الأيسر فيذهب سر القهرية فلا يهابه أحد من رعيته بعد ذلك فيعزلونه .وهذا الأمر مشاهد لا يمكن لأحد إنكاره والله أعلم . وها أنا بينت لك طريقة الأستاذ التى كان يسلك الناس عليها فإن كانت لك رغبة فى الدخول فيها ووجدت من يرشدك إليها فافعل وإلا فاستعملها على النحو الذى سطرته لك فى هذا الكتاب بالصدق والاخلاص ترشد إن شاء الله تعالى إلى كمال معرفة رب الأرباب. ثم قال رضى الله عنه ونفعنا به .

فَمَنْ شَاءَ مِنْكُم فَلْيَؤُمَّ لِحَانَتِي
إلَى كَمْ وَأَنْتُم عَنْ مُدَامِي هَوَاجِعُ

أى فمن أراد منكم أيها الغافلون ان يلين قلبه من قسوته فليأت إلى حانتى والحانة هى موضع الخمر وشبه مجلس الذكر الذى عقده للمريد بموضع الخمر لحصول سكر المريد الصادق فيه بغيبته فى المذكور وعدم استشعاره بغيره والخمر هو كناية عن الذكر الذى به يحصل فناء الذاكر فى المذكور، قال سيد العارفين وسلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة　　سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهى شمس يديرها　　هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

فالموضع الذى سكر فيه هذا العارف هو يوم ألست بربكم فى موضع مجتمع الأرواح وأخذ العهد عليهم حيث لا زمان ولا مكان ، والمدامة التى شربها هى قوله ألست بربكم والجواب بلى هو الذكر لأنه ذكر الله بالاقرار بالوحدانية . ومن ثمة أراد بعض العارفين بذكر الخمرة لا إله إلا الله لأنها لفظة أقرار بوحدانية الحق وبعضهم فسرها بالمعرفة مستدلا على ذلك بقوله لها لها البدر كأس وهى شمس يديرها هلال وكم يبدوا إذا مزجت نجم وأراد بالبدر محمداً صلى الله عليه وسلم وبالخمرة المعرفة بالله وهو أى البدر ظرف للمعرفة والهلال سيدنا على ، ونسب الارادة إليه لأنه هو أول من لقن لا إله إلا الله لكميل بن زياد والحسن ابنه ، وأول من نطق بالعلم بالله والمعرفة بالله ، وقوله وكم يبدو أى وكم يتميز على غيره بالظهور والشرف إذا مزجت به نجم كحسن البصرى وغيره من العارفين إلى آخر زمان انقراض المحققين والله أعلم . وشبه المعرفة بالشمس لأن بها تنجاب ستائر ظلمة شهود الأغيار كما ينجاب سحاب ظلمة الليل باشراق شمس النهار . وينكشف بها سر دعاء أشرف الخواص والعوام . رب أرنى الأشياء على ما هى عليها لأزداد يقينا بزوال سراب الأوهام . ويحتمل أن يكون أراد الناظم بقوله لحانتى ذاته لأنها حانة المعرفة فعلى هذا الاحتمال يكون معنى فليؤم لحانتى أى فليقصدنى لأدله على

معرفة الله تعالى، إلى كم أى إلى متى وأنتم عن مدامتى الذى ادخرته عندى للطالبين لجناب الحق وهى المعرفة به جل شأنه هو اجع أى نائمون مستغرقون فى نومة الإعراض عنها وحملنا المدام على المعرفة بالله لأن بها تفتح أقفال القلوب وتشرق صياصيها . فتشاهد أسرار الغيوب وتفهم معانيها . ويكشف لها عن وجود الحق فترى جماله سارياً فى كل موجود فتغيب بمشاهدته عن كل ما حواه الوجود . ويحتمل أن أراد بالمدام الذكر لأنه سلم للمعرفة وباب منه يتوصل إلى الدخول فى الحضرة الربانية . وبه تطهر القلوب من ران الغفلة وأوساخ الذنوب والظلمات النفسانية . والقلوب ما لم تتطهر بطهور الذكر لم تصلح لحمل أسرار المعرفة .

مل سحير الحانة الأذكار   إن فى الذكر راحة الأسرار
فهو باب لمن أراد دخولا   حضرة الحق بعد رفع الستار

والستار هو أوساخ الذنوب التى تكون على وجه القلب مما يلى الملكوت الأعلى وهذا الستار لا يزول إلا بالذكر آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وكنى عنه بالمدام لكون أن القلوب إذا تطهرت به من درن شهود الأغيار طعمت المذكر لذة فتغيب بها فى المذكور عن كل ما سواه . ويحصل لها السكر الممدوح فتلين حينئذ إلى ذكر الله . وقولى فتلين حينئذ إلى ذكر الله أى إلى شهود جماله على مر الزمان . بعد غيبتها فيه المنبعثة عن وجود لذتها بذكر اللسان . قال تعالى، ثم تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، ومن ثمة لما كان الذكر أصلا فى استجلاب كل خير وأفضله لا إله إلا الله بصريح قوله عليه الصلاة والسلام، أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله، وقوله أيضاً، أفضل الذكر لا إله إلا الله، اتفقت المشايخ على تلقينها لمن كان فى النفس الامارة دون غيرها من بقية الأسماء لقوة تأثيرها فى النفوس الامارة وكان الناظم رضى الله عنه يلقنها لكل من طلب منه التلقين ، ويقول كان الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه إذا جاءه شارب الخمر يلقنه لا إله إلا الله وكذلك إذا جاءه أهله

السارق والزانى وجميع أهل المعاصى ما يلقنهم إلا هذه الكلمة الطيبة التى أصلها ثابت فى عرصات قلوب العارفين . وفرعها فى سماء المعرفة تؤتى لهم أكلها فى كل وقت وحين . فعليك بالمحافظة عليها أيها الأخ على ممر الأعوام . تظفر إن شاء الله بالمرام . ثم قال رضى الله عنه .

دَنَا الْعُمْرُ مِنْكُمْ وَالزمانُ قد انْقَضَى
سَتَفْنُوا وما الأَكْوَانُ إِلاَّ وَدَائِعُ

اعلم أنه لما كان دعاء الخلق إلى الله تعالى ما لم يكن نافعاً ما لم يكن بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة فى اقامة الحجة بالدليل المستحسن ولا تحصل الافادة فى تأثير القلوب إلا بذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجعل دعوته مصحوبة بهذه الصفات الثلاثة منها قوله تعالى شأنه . ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن أى من الحجج التى تقبلها نفوسهم وقد بين صلى الله عليه وسلم معنى الحكمة بقوله أمرت ان أخاطب الناس على قدر عقولهم .

واعلم ان هذا الخطاب وإن كان مخاطباً به النبى صلى الله عليه وسلم لحكمه منسحب على كل من أقامه الحق إلى دعوة الخلق إلى الله تعالى ولما كان الناظم رضى الله عنه من اقامه الحق فى ارشاد الخلق وكانت الموعظة بالموت وقرب الأجل من انتج المواعظ لأهل الغفلة ذكر الشيخ فى هذا البيت كل غافل بقرب الأجل المبهم حينه لينتبه من طول الغفلة فقال رضى الله عنه دنا العمر إلى آخر ما قال اى قرب الاجل منكم وهو الموت والزمان قد مضى أكثره عليكم وانتم لاهون بالدنيا غافلون عن تعاطيكم الأسباب . التى بها يصلح لكم المآب . قد غرتكم فسحة الأجل المجهولة والهتكم عن التأهب للموت نفوسكم بأمانيها الفاسدة المملولة . وصمت اذانكم فلم تلجها الحكمة البالغة وهى قول من جاء بالسبع المثانى . الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى . وقد حجبتكم الدنيا بلذاتها الفانية . وأنستكم ما به تتوصلون إلى الحلول فى جنة عالية قطوفها دانية .

فلو استعملتم ما امركم به الشارع من الأدوية التي هي الحكم الالهية الواردة في قوله أكثروا من ذكر هادم اللذات فإنه يزهد في الدنيا ويرغبكم في الآخرة لشفيتم من الأمراض النفسية المبعدة عن التبوأ في الحضرة القدسية . ولعدلتم عن حب هذه الدنيا الدنية المذموم بصريح « حب الدنيا رأس كل خطيئة ولو اعتبرتم قوله عليه الصلاة والسلام وزاده الله تشريفا وتكبيراً ، «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » ولشددتم في طلب ما يقربكم إلى الله منكم الحيل ، ولشمرتم في إقبالكم عليه ما استرسل من رداء غفلتكم من الذيل ، وسهرتم الليل الطويل ، واحييتموه بالاستغفار والبكاء والعويل ، أسفا على ما اسلفتم من الذنوب . فالى متى هذه الغفلة عن القيام بموجب ما أمركم به المحبوب ، لا بالكتاب والسنة عملتم ، ولا بمن رحل من أحبابكم اعتبرتم . أما علمتم أنكم ستعنون بما لا محيد لكم عنه ولا فوت ، وتتجرعون كأس كل نفس ذائقة الموت . أما تحققتم بنقلة من مضى من الإخوان ، وانصرام الزمان وأوان بعد أوان ، إنما أنتم وأنفاسكم وأوقاتكم كلها ودائع لديكم ، وسيسألكم الله عن ذواتكم في أى شيء استعملتموها وأنفاسكم على أى صيغة بدلتموها ، وأوقاتكم على أى حالة صرفتموها . وبأى صفة قدمتموها بين يديكم . أحسبتم أنكم منسيون ، فأين أنتم من قوله تعالى « وقفوهم انهم لمسئولون ، مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون .

واعلم يا أخى أنه لما كان الموت من أعظم ما تتعظ به النفوس خصوصاً حين ينظر الشخص فيمن مضى ومر نقش على خاتمه [قول] ابن الخطاب رضى الله عنه كفى بالموت واعظا يا عمر ، وجعل بعض الصوفية ذكره بعده كل فرض إحدى وعشرين مرة فرضا لازما . عملا بالحديث المتقدم ذكره ونبه عليه الناظم في البيت ليستعمله من كان على طلب ما يزهده فيما سوى الله حازماً ، وليس للمريد شيء أنفع من الاكثار من ذكره ، فينبغى لكل مؤمن يكثر منه ليكون ذلك سبباً لأهبته بتقديم الزاد إلى وكره ، لأنه لا يأتى

إلا بغتة قال تعالى « وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت » وقال الصديق الأكبر أبوبكر الصهر الأبر . كل امرىء مصبح فى أهله ، والموت أدنى من شراك نعله ، وقال بعض العارفين ماترك الموت راحة لأحد وسبب ذلك أنه لابد أن كل إنسان إذا تذكر من سلف من أحبابه أن يذكر الموت وإذا ذكره البته أن تتكدر أحواله عليه ، ويتنغص عيشه وينسى جميع مامر عليه ، من النعيم والراحة خصوصاً حين يسمع بكاء المحبين عليهم ، ويرى تيتم أولادهم وذلتهم بعد العزة التى كانت لديهم . فما بالك بمن جعل الموت نصب عينيه ، وهو دائماً يترقبه من أين يأتيه كأنه بين يديه ، والهم الأكبر جهل الإنسان بما يختم له وإن ختم له بالسعادة فتفكره بما بعده همه به لايدع له راحة لأن وراءه عقبات كؤود منها سؤال القبر وضمته والحساب والصراط المنصوب على جسر جهنم والميزان وعرضه على الله فى يوم لاينفع الوالد للمولود . أعاذنا الله وإياكم من هم ذلك اليوم الشديد ، وحشرنا جميعاً فى زمرة أهل الوعد لا أهل الوعيد . آمين .

أعلم أيها الأخ أنه لما كان من الحكمة أن يخاطب صاحبها كل إنسان بما يطابق استعداده ، خاطب الناظم بهذه القصيدة كل حزب من هذا النوع الإنسانى بما يوافق مراده . فمنهم من خاطبه بالمعرفة ومنهم من خاطبه بالسلوك ومنهم من خاطبه بالأدلة الشرعية يزيل بها عنه إشكال ماتوهمه فيها ومنهم من خاطبه بما يزهده فى الدنيا ويرغبه فى الآخرة كالمتمكين على حبها وذلك كله من وصف من كان من أهل الحكمة وأعنى بالحكمة الولاية تبعاً لمن فسرها بها لأن العلماء رضى الله عنهم ونفعنا بهم اختلفوا فى تفسيرها فمنهم فسرها بالولاية ومنهم من فسرها بالنبوة ودليل من فسرها بالنبوة قوله تعالى « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب أى وآتينا داود النبوة وفصل الخطاب قيل فصل الخطاب هو قوله أما بعد وهذه كلمة فاصلة بين خطابين ومن فصل الخطاب إقامة الدليل من النبى على ماجاء به من التوحيد بالبرهان الفاصل لحجج من حاجبه فى ذلك ، ومن فصل الخطاب أيضاً ظهور معجزته لأنها برهان فاصل لخطاب

من طلب منه ذلك بكثرة البحث عنه فهو أعم من أن يقيد بأما بعد لأن كلام الحق صفة من صفاته وصفات الحق كذاته لا تقبل القيد والحصر لكونها إطلاقية ومن فصل الخطاب قول سيدنا ابراهيم لنمرود «إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» ألا ترى كيف بهت حين دحضت حجته وانقطع خطابه فلم يجبه بعد ذلك والفصل هو القطع فكلام الحق جميعه لا ينحصر على معنى واحد فافهم ذلك .

فكل تفسير وافق ظاهر الشريعة المطهرة وباطنها فهو ذلك وما كان خلافهما فانبذ به من وراء ظهرك والله أعلم بمراده ودليل من فسرها بالولاية قوله تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة» أى الولاية وله دليل ثان وهو أن كل نبى ولى ولا عكس أى كل نبى مسبوقة نبوته بولاية وتعريف النبى هو كل من امر بتبليغ ما آتاه الله من الحكمة الالهية بوحى من قول وعمل ونية بالبراهين القاطعة والأدلة التى تقبلها عقول من بعث إليهم فتلين لهم جلودهم وترق لها قلوبهم ، ودليله أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم وقوله جل شأنه «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» وحيث كان تبليغهم بهذا الوجه دل ذلك على أنهم حازوا رياسة المقامين ، وكمال شرف الرتبتين ، شرف رتبة النبوة الخاصة بهم ، وشرف رتبة الحكمة السابقة لهم والحكمة أيضاً فى تبليغها على حسب استعداد كل طالب لها والحكمة هى سر يودعه فيمن يختاره من عباده للنبوة من أهل الحكمة وبذلك السر يكشف له عن حقائق الأشياء ويطلع على ما فيه منفعة ومضرة للعباد فإذا أمر بالتبليغ يتنزل عليه الوحى بواسطة جبريل شيئاً فشيئاً فى تبليغها وما يتنزل عليه من الأحكام ومن كان واسطته جبريل فى الوحى فهو النبى وما أمر الله الأنبياء بالتبليغ إلا لكونهم أكمل الخلق عقلا وأعرفهم بالله وأوضحهم دليلا على وحدانية الله وأقطعهم حجة لمن حاججهم بآيات الله المنزلة عليهم من الله وهذا معنى فصل الخطاب لأن الفصل هو القطع فتأمل كيف قطع سيدنا ابراهيم حجة نمرود حين قال له لما ادعى الربوبية وأنه يحيى الموتى

إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين ومن الحجج المبرهنة عن نبوة النبى ظهور المعجزات ، ومن الحجج أيضاً المشيرة إلى صحة دعوى الولى بالولاية ابراز الكرامات وكل ما كان كرامة لولى فهى معجزة لنبى من الأنبياء وهو الذى يكون ذلك الولى على قدمه ، فافهم ثم قال رضى الله عنه :

فَأَيْنَ الَّذِي مَنْ قَبْلَكُمْ عَمَّرُوا الدُّنَا
خَلَتْ مِنْهُمْ فَالأَرْضُ مِنْهُمْ بَلَاقِعُ

سميت ضرة الآخرة بالدنيا لدنوها منها أى لقربها من الآخرة وقيل لدناءتها أى لخستها وخسة متاعها بالنسبة إلى ما أعد الله فى ضرتها من النعيم الذى لازوال له لكل من زهد فيها وأقبل على الله ساعيا على قدم التجريد ولما كان الاعتبار بهلاك الأمم شيئاً فشيئاً وخلو مساكنهم أجود فى الاعتبار وتهذيب النفوس وسبباً قوياً فى اتجاهها إلى الطاعات وزهدها فى اللذات الدنيوية ، قال تعالى «أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها» وقال جل وعلا «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن» ، وقال عز من قائل «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» ونبه الناظم رضى الله عنه كل مريد صادق لاستعمال مفهوم هذه الآيات ليتوصل إلى نتيجتها وهو الزهد فيما كان مآله إلى الفناء والخراب ، فقال «فأين الذين من قبلكم» من الأمم السالفة الذين عمروا الدنيا بالعدل والرشاد ، وزينوها بسلوكهم سبيل السداد ، وأين من هرجوها بعمارة القصور الشامخات ، وقطعوها باللهو واللعب والزينة والتفاخر بينهم بالمأكل والمشرب والملبس وركوب الخيل المسومات ، وأين من ظلموا فيها وخالفوا أمر رب العباد ، أين من ملأوها قسطاً ومهدوا الأرض للرائح والغاد ، ذهب والله كل منهم إلى الحفر وبقى فيها بعمله رهينا ، فإما فرحاً بما قدمه من الخير وإما حزيناً ، ونسوا من هول ما وجدوا تلك اللذات الفانية ، وأصبحت أجسامهم بعد ذلك النعيم عظاما نخرة بالية ، واشتد عليهم حزنهم حين رأوا أعز أصحابهم حثا عليهم التراب ، وما نفعهم حين صاروا تحته ما كانوا يعتمدون من الأحباب ،

فتأمل رحمك الله إلى مساكنهم كيف خلت من تلك الوجوه الصباح ، وبدلت بعد الأنس بهم وحشة وأصبحت رسوما دارسة تخفق فيها الرياح ، فإن أيها الأخ السلامة من عاقبة حطامها الفانى ، والانسلاخ من حبها لتكون من حضرة الحق قريباً دانى ، فكن فيها كما قال عليه السلام لترتاح الزمن الطويل ، كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل يحكى أن ملكا بنى داراً وأحسن بناءها ، وما ترك شيئاً من زينة الدنيا إلا بهرجها به وحلاها ، وأطلق منادياً ينادى فى مدينته ، على أنه لا يبقى فيها أحد إلا ويأتى ينظر إلى هذا الدار وزينته فإن رأى فيه عيباً يخبر الملك به ليسد خلله ، حتى يكمل من مقصوده فيه ما أمله ، فهرعت إليه جميع الناس ، وكل أطنب وهناه بسلامته من كل عيب وبأس ، فسأل الملك أعوانه هل بقى أحد ، فقالوا نعم بقى فقير ساكن فى آخر خرابات البلد ، فقال لهم على به فجاؤوا به إليه ، فلما تمثل بين يديه قال له ادخل إلى هذا الدار وتأمل فيه هل تجد به عيباً فدخل وتأمل فيه ساعة ثم عاد إليه وقال له وجدت فيه عيبين ، فقال أنا لم أرض بعيب واحد فكيف لى أن أرضى بعيبين ثم طلب منه أن يبينهما له فقال له العيب الأول الذى رأيته أن صاحبه يموت ، والعيب الثانى أن هذا الدار لابد أن يخرب ويصير بعد صاحبه عبرة لمن اعتبر ، فأطرق الملك رأسه ملياً حين سمع كلام الفقير ، وأثرت فى قلبه موعظته وبكى ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له صدقت ، وقام من عنده ودخل منزله وتصدق بجميع ما يملكه وأعتق مواليه ورد المظالم إلى أهلها وأوقف الدار على الفقراء والمساكين ونزع ثيابه ولبس جبة من صوف وودع أهله وعياله وخرج هائما على وجهه نفعنا الله به .

ويحكى أيضا أنه جاء فقير إلى إنسان من أهل الثروة والجد وقال له إن أردت أن أفرجك على الدنيا برمتها فقم معى فقام الرجل معه فأتى به إلى مقمة وقال له انظر إلى هذه فإن هذه هى الدنيا وصار يلتقط خرقاً بالية منها ويقول له هذه ملابسهم التى كانوا يتفاخرون بها ويلتقط عظاماً ناخرة ويقول له

وهذا طعامهم الذى كانوا يتنعمون به فغشى على الرجل ساعة ثم أفاق وقد دخلت الموعظة فى قلبه وترك الدنيا وتوجه إلى الله تعالى ويكفيك دليلا على خدمة الدنيا أن النبى صلى الله عليه وسلم تركها لأهلها وقنع بالكفاف منها وما جنح إليها يوماً قط وأمر بالتجنب عنها وذمها بقوله « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم » ودعا لأهل بيته بطلب الكفاف من الله لهم منها فقال اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وكان سيدنا على كرم الله وجهه يقوم الليل ويبكى ويقول يادنيا غرى غيرى قد طلقتك ثلاثا طلقتك ثلاثا وخرج عنها سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وتخلل بالعباء حتى لقى الله تعالى وكان فى ثوب ابن الخطاب رضى الله عنه اثنى عشر رقعة بعضها من أدم لا يملك غيره فعليك بالاعتبار ، بخرب الديار ، ونملة من كان ينام على الحرير ، برقاده على الثرى فى حفرة ذرعها حقير .

واعلم أن من نظر إلى هذه الأشياء بنظر الاعتبار ، زهد فيها ورغب فيما أعد الله للزاهدين فى دار القرار ، وفقنا الله وإياك إلى حسن النظر ، وجعل مقامنا فى يوم الجزاء فى أحسن مقر ، آمين آمين ثم قال رضى الله عنه :

فَمَنْ رَامَ مِنْكُم مِنْ سُعَادَ سَعَادَةً
وتَدْنُو لَهُ مِنْ حَىِّ سَلْمَى الْمَرَابِعُ

أصل سعاد سعادة ضمت السين وحذفت الهاء من آخرها وكنى بها عن الروح لسعادتها بالإقرار لله الربوبية حين كانت فى عالم الأرواح ولظهورها بما عاهدت الله عليه فى عالم الأشباح فقوله من رام منك إلى آخر الشطر الأول معناه أى فمن أراد منكم من نفسه معرفة وكنى عن المعرفة بالزيارة لأن القصد من الزيارة معرفة المزار ألا ترى أنك إذا جاء مثلا رجل ماسبقت لك به معرفة وأردت أن تعرفه وتحيط بأحواله لابد أن تزوره أولا حتى تعرفه ولو لم تزره لم تعرفه فظهر أن المقصود من الزيارة معرفة النفس وأرشد

الناظم كل طالب صادق إلى جناب الحق أولا إلى معرفة نفسه لأنه لايكون الوصول إلا بها إلى معرفة الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ومن ذا الذى عرف نفسه إلا القليل من الناس وهم خاصة الله من خلقه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ومن ثمة لما كانت المجاهدة سبباً موصلا إلى معرفة النفس. قال الناظم فى البيت الآتى بعد هذا يجاهد يشاهد كما سيأتى ذكره وقال تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» أى طرقنا التى بها يصل إلى معرفتنا والشطر المذكور من البيت تفسير آخر.

أعلم أن سعاد وسلمى كناية عن الذات العادية. وذلك على اصطـــلاح السادة الصوفية. كما قررناه لك سابقاً والحى كناية عن مقام البقاء بالله وكنى عنه به لأن كل من وصل اليه صار حياً بالله، بالحياة الأبدية ويكون موته حينئذ إذا وصل إلى المقام المذكور نقلة من دار الفناء إلى دار البقاء، وهذا مصداق قوله عليه السلام إنما خلقتم للأبد وانما تنقلون من دار إلى دار والمرابع كناية عن المقامات التى يقطعها السالك فى حال سيره إلى الله تعالى حتى يصل إلى مقام البقاء به جل شأنه والمقامات التى تعارض السالك فى حالة سفره إلى المواطن الأصلية التى منا نزل إلى دار المحن بعد ما كان سالما منها فى الحضرة الغيبية منها مقام الطمس ومقام المحو ومقام الفناء فاذا قطع هذه المقامات بعد، وحملناه على ذات ألواح الصدق ودسر الشوق والمحبة تجرى بأعيننا فى بحر المقامات المعنوية. حتى ترسى به على ساحل السلامة وهو بر البقاء بالذات العلية. وتناديه هواتف الحق بلسان المشيئة لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى فيفوز بالحياة السرمدية، فإذا وصل إليه حينئذ يشهد سعاده مسعدة له بتكوين ما أراده. ومرضية له ببلوغ المراد، وسلمى مسلمة له الزمام والقياد، يفعل بالله فى الكون كلما أراد.

ويحتمل أن تكون المقامات هى السبعة المذكورة عند السادة الخلوتية

أولها مقام النفس الأمارة ثم اللوامة ثم الملهمة ثم المطمئنة ثم الراضية ثم المرضية ثم الكاملة التي من وصل إليها صار في مقام القطبانيه . واعلم أن كل مقام من هذه المقامات معراج إلى حصول معرفة الذات العلية ، ولا يمكن قطع كل معراج منها إلا بسيرة على نجائب الأعمال الشرعية . وأساسها خمسة ذكرها العارف بالله سيدي مصطفى البكري قدس الله سره العزيز وجمعها في بيت واحد وهو قوله :

جوع وصمت سهر والاعتزال
والذكر دائمـــا له في كل حال

فالمريد مالم يسع على نجائب هذا الأساس المذكور . لم يصل إلى آخر المعراج الذي فيه يجتمع بسعاد وسلمى في حضرة النور . كما أن الإنسان إذا كان تحت دار وأراد أن يصل إلى عليتها لم يمكنه ذلك مالم يصعد معارجها ، فافهم ترشد .

واعلم أنه لما كانت معرفة النفس لايمكن تحصيلها إلا بعد قطع المقامات المذكورة وقطع المقامات لايمكن تحصيلها إلا بالمجاهدات الشرعية المزبورة . أعقب الناظم البيت المذكور بذكر الأسباب المتوقفة عليه المعرفة بها أي بالنفس وحث على التمسك به لتزول العلة وهي ترك التعلق بالأسباب ، فقال رضي الله عنه :

يُجَاهِدْ يُشَاهِدْ إِنْ يَرُمْ أَنْ يَفُزْ بِمَا
به نَحْنُ فُزْنَا فالحِبُّ يُسَارِعُ

قوله يجاهد بالسكون جواب لفعل الشرط المقدر تقديره إن يرم أحد معرفة نفسه يجاهد مثل مانحن جاهدنا ، حتى يشهد من معرفة النفس مانحن شاهدنا ، ويحتمل أن يكون يجاهد هو في نفسه فعل أمر مجزوم بلام الأمر المحذوفة لضرورة النظم تقديره كل من أراد أن يعرف حقيقة نفسه فليجاهدها

بالأوامر الشرعية مثل ما نحن جاهدناها فإذا جاهدها حتى تكشف له عن حقيقتها حينئذ يشاهد ما نحن شاهدنا من طريق الكشف بنور المجاهدة أنها أمره الشاهد لنا به قوله تعالى « قل الروح من أمر ربي» ويشاهد المذكور هو جواب فعل الأمر المجزوم باللام، وقوله أن يوم إن يفز بما نحن فزنا به أي بالمعرفة بها ويشاهد حقيقتها ويعثر على معنى قوله تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » كما نحن عثرنا على ذلك واطلعنا به على أن ليس موجود في الوجود سوى السيد المالك .

واعلم يا أخي أن المجاهدة هي سلم المريد إلى المعرفة المذكورة والمشاهدة المزبورة وهي شرط على موطلبها والمجاهدة هي كل ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وقد ذكرتها الصوفية في كتبهم فراجعه فيها وأما بعد البعثة فإنه اشتغل بقيام ما أمر به من دعاء العباد إلى توحيد الله تعالى وامتثال أمر الله تعالى من أجل القربات لقوله عليه الصلاة والسلام «لإن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم تنفقها في سبيل الله» وإنما كان عمله بمقتضى ما أوحى الله به إليه بعد البعثة وشيئاً من النوافل لتقتدى به أمته في ذلك طمعاً منه لهم في حصول نتيجتها وهي صيرورة الحق سمعهم الذى يسمعون به وبصرهم الذى يبصرون به كما جاء في الحديث القدسي ونهى صلى الله عليه وسلم عن ارتكاب المشقة في الطاعة بقوله «إن لنفسك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً » الحديث وقوله « روحوا القلب تارة فتارة » وقوله عليه الصلاة والسلام أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر وآتى النساء فهذه سنتي فمن رغب سنتي فليس مني وما صام وصلى الله عليه وسلم بعد البعثة شهرا كاملا بخلاف ما كان عليه قبلها فإنه كان في المجاهدات إلى الغاية القصوى حتى أنه هجر الخلق وذهب إلى غار حراء وكان يتعبد فيه الليالي ذوات العدد وكان يصوم حتى يظنون أنه لا يفطر ويقوم الليل حتى تورمت قدماه الشريفتان وكل ذلك كان يفعله قبل البعثة ، وفي أولها إلى أن أنزل الله عليه « ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا» وقوله تعالى

« طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » فلما أنزل الحق عليه هذه الآيات رجع إلى فعل ماأمر به وإلى قدر معلوم من النوافل سنها صلى الله عليه وسلم للمنتهين فى الكمال من أمته وأما أهل البداية فهم مكلفون بما كان يفعله فى بدايته ، قال تعالى « لستم ببالغيه إلا بشق الأنفس » .

واعلم ياأخى أن قوله تعالى « ورتل القرآن ترتيلا » فيه إشارة إلى أن القليل من الصلاة إذا كانت مصحوبة بترتيل القرآن أفضل من قيام الليل كله يصلى بالقرآن سرداً من غير ترتيل لأن ترتيل القرآن يظهر معانيه فتحصل بها لذة المناجاة ، وأما ماورد أنه كان يعصب على بطنه بعد البعثة بالحجارة من شدة الجوع فليس ذلك بعد من مجاهدة النفس لأن المقام لايقتضى ذلك بعد الكمال وانما فعل ذلك للتشريع حتى تقتدى به أمته فى صبرهم مع الحق حيث ماأقامهم فيه وأعلم أن الإقتداء به أمر لازم لمن أراد أن يبلغ رتبه الكمال فى الأقوال والأعمال والأحوال فالأقوال تتعلق بالجارحة الحسية وهو اللسان والأعمال تتعلق بالجوارح الظاهرة والباطنة وهى القلبية والفكرية والوهمية والخياليه والأحوال تتعلق بالجوارح الباطنه فقط ، وهى صفات العبد وتخلقه بأخلاق الرحمن وقد نظم العارف بالله سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه أعمال الجوارح الظاهرة فى بيت واحد فى أرجوزته التى سماها بلغة المريد وهو هذا البيت :

جوع وصمت سهر و الاعتزال والذكر دائماً له فى كل حال

وهذه الخمسة الشروط التى ذكرها فى البيت هى الدعائم والأساس اللذين بنى عليها جدار الطريقة كما أن الإسلام بنى على خمسة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . واعلم أنه لاشىء أنفع لعلاج مرض السالك من استعمال هذه الأدوية الخمسة المذكورة فى البيت لأن لكل فرد منها فوائد متعددة لاتحصى ونريد أن نذكر طرفا منها لمن رغب الطالب للشفاء من مرض الغفلة والتكاسل فى تحصيلها .

اعلم أن فائدة الجوع سد مجارى الشيطان من ابن آدم حتى لايدخل منها إلى قلبه فيوسوس له ، قال عليه الصلاة والسلام « إن الشيطان ليجرى من بن آدم مجرى الدم فسدوا مجاريه بالجوع والعطش والسر فى الجوع والعطش أنهما يضمران العروق والعصب فلا يجد الشيطان له مسلكا منها إلى القلب وله سر ثان أشرف من الأول وهو أى الجوع به تضعف البشرية فإذا ضعفت البشرية تقوت الروح على معراجها إلى الملكوت الأعلى وعلى جولانها فيه وفى عالم الملك وسائر الملأ ، وترجع إلى ما كان لها قبل من الكشف والمطالعة إلى أسرار الغيوب ، ويعود شهادة لها كل ما كان عنها محجوب ، وهذا من بعض خصائص ما فى الجوع من الخيرات ، وضدها يكون فى الشبع من التسفل والدركات لأن الشبع به تتقوى البشرية فإذا تقوت البشرية ضعفت الروح عن العروج إلى الملكوت والغيب ، وحبست لغلبة ظلمة البشرية التى مادتها من كثرة الأكل والشرب عن جولانها فى عالم الملكوت والشهادة وسكنت فى باطن الحبيب .

واعلم أن أصل كل معصية وفساد من الشبع كما أن أصل كل صلاح ونور من الجوع لأن الإنسان إذا شبع تقوت نفسه ونشطت همته وزادت شهوته ، قال البوصيرى رضى الله عنه : إن الطعام يقوى شهوة النهم ، فإذا تقوت شهوته طلب النكاح فإن وجد وإلا حملته على الزنا ، نسأل الله العافية وكذلك من جملة فساد الشبع أن الإنسان إذا جاع ولم يجد عنده ما يأكله سرق وربما حمله الجوع على قتل النفس ، فانظر إلى أبينا آدم عليه والسلام سماه الله عاصيا فى قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى » وسبب ذلك الأكلة التى أكلها من الشجرة ، فجميع ما ذكرناه من بعض فساد الشبع فاحذر منه ولكن أكلك على السنة الثلث للطعام والثلث للماء والثلث للنفس فمن لازم على ذلك فقد وافق القدر المسنون وكان ذلك سببا له فى إحياء قلبه وقيام الليل لعدم البخار المتولد من كثرة الطعام ، قال عليه الصلاة والسلام « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » أى للقيام بأداء ما وجب عليه وندب إليه ...

وأما الصمت فكذلك فوائده لاتحصى وفضائله لاتستقصى ، فمن فضائله السلامة من الوقوع فى فضول الكلام ، وتضييع الوقت فيما لا فائدة فيه والتحرى بقلته من الوقوع فى الآثام ، لأن كثرته تجر إلى الغيبة والتكلم فى أعراض الناس ومن ثمة لما كان ضرره خطير نهى صلى الله عليه وسلم عن كثرته فقال « من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيرا أو ليصمت » وما أحسن قول العوام بعد قول الله ورسوله فى وصفهم له وهو قولهم إذا كان الكلام من ذهب والسكوت من فضة فأخذك للفضة أولى لأنه أسلم عاقبة وجميع ماذكرناه من خصائص الصمت هو من بعض مناقبة وشبهوا السكوت بالفضة إشارة إلى بياض نوره المكتسب للصامت من صمته لأن ذلك لونها فافهم .

وأما السهر فيكفيك بأن الله مبشر من أحيا آخر الليل بالنوافل من صلاة وذكر وشهود بأن يبعثه مقاما محمودا بقوله تعالى « ومن الليل فتهجد به » أى بالقرآن نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا أى عنده وعند جميع خلقه وعسى فى القرآن للتحقيق وهو من الله تعالى بمنزلة الوعد وهو لايخلف الميعاد فكل من اقتدى به صلى الله عليه وسلم فى إحياء الثلث الأخير من الليل لابد أن يبعثه الحق مقاما تحمد عاقبته فى ذلك اليوم وفى الدنيا بمقام بمقام الولاية المحمود إجماعا والله أعلم .

وأما العزلة فهى زمام النفس فمن أخذ بها فقد منعها عن رعيها حول حمى جميع ما ذكرناه وردها عنه كرها كما يرد من كان آخذا بزمام دابته عن رعيها فيما لاخير لها فيه من النبات وأما الذكر فهو مفتاح أبواب كل خير فمن لازم عليه أدرك جميع ما ذكرناه من فضائل الجوع والصمت والسهر والعزلة بسهولة لأن به تنشرح الصدور وتنشط الأرواح وتتنور الأجسام وتقوى على الطاعة وبملازمته تحيي القلوب وتنتبه من سنة غفلتها وتتوجه إلى علام الغيوب فإذا انتبه القلب وتوجه لما خلق له انتبهت جميع الجوارح وتوجه كل فرد منها لما كلف به ، قال عليه الصلاة والسلام « الناس على دين

ملوكهم ، والقلب هو ملك قرية الجسم والأعضاء هي رعيته فبعدله تعدل الرعية وعدله استقامته على ما كلف به من الطاعة .

والحاصل أن هذه الخمسة المذكورة وهي الجوع والصمت والسهر والاعتزال والذكر هي أساس في الطريقة ومطية المريد إلى تحصيل معرفة الله تعالى فليحرص المريد الصادق على جعلها راحلته والإخلاص بها زاده ، والشوق إلى المعرفة المذكورة قائده وحبه إليها سائقه وشيخه الآخذ عنه دليله كي يرسم في ديوان المحبين ويكتب في صك العارفين .

واعلم يا أخي أن الناظم رضي الله عنه لما رأى بعض المتنسكين ، وعلماء الظاهر المدرسين ، يشاركون في الإنكار عليه العامة الجاهلين ، أشار إليهم باستعمال ما يعرفهم مقامه ، ويفهمهم كلامه ، حتى أنهم إذا عرفوا ذلك يسلون من الإنكار عليه ، فقال يجاهد أي من أنكر علينا فيما نشرنا ذكره من المعارف في هذه القصيدة أي مثل ما نحن جاهدنا حتى يشاهد ما نحن شاهدنا ويفوز بما به نحن فزنا من المعرفة بالله تعالى والقرب من حضرته بعد تحققنا بمعنى لاحول ولا قوة إلا بالله ليسلم من الإنكار علينا بعد ما يصل إلى ما وصلنا إليه ثم قال فالمحب يسارع أي إن كنتم محبين صادقين في طلب جناب من فزنا بجذبه ، وحظينا بالوقوف على أعتابه ، فسارعوا إلى تحصيل ذلك بسيركم إليه على مطايا الصدق والمجاهدة حتى تفوزوا بما نحن به فزنا من القرب والمشاهدة فالمحب الصادق في طلب شيء يسارع إليه ، ويفارق كل ما يحجبه عنه حتى يقف عليه ، ومسارعة السالك هي دوام استعمال ما كلف به من قول وعمل ونية حتى يصفو له مشروبه وإلا فهو صاحب عجز ودعاوى فاسدة ، وأماني مزجاة بضاعتها كاسدة قال عليه الصلاة والسلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

إن شئت أن تحظى برؤية زينب
وتفوز منها بالمنى والمطلب

كن طائعا لمرادها عبدا لها
واحذر تكون مخالفا أو كالغبى
ودع التسوف والأمانى وانتدب
لقيام ما أمرتك ندبة معتب
وعن التسوف فى هواها خذ كذا ودع الترجى كى تفوز بمأرب
واعلم بأن جميع من بهما اعتنى فهو الذى بقليب جفوته كبى

اعلم يا أخى أنه لما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين على كل مؤمن لا تأخذه فى الله لومة لائم وكان الأمر بمجاهدة النفس الأمارة من الأمر بالمعروف وانصاب المريد بالتسويف والترجى المقعدين له عن النهوض إلى الطاعة من المنكر أمر الأستاذ كل مريد صادق فى إرادته فى البيت الأول بالمجاهدة ونهاه فى الذى بعده وهو هذا الذى سنذكره عن التسويف والترجى لأنه من القواطع له عن تبليغ المراد ، من القرب من حضرة رب العباد ، والبيت المتضمن للنهى هو هذا وهو قوله رضى الله عنه :

فَدَعْ يا عُبَيْدَ النَّفْسِ سَوْفَ لَعَلَّنِى
فَمَا فَازَ صَبٌّ بِالْمُنَى وَهْوَ هَاجِعُ

وقوله وهو هاجع أى نائم ونادى من كان ذلك وصفه بالتصغير وهو قوله ياعبيد النفس لإهانته بطاعته لنفسه ومن أطاع نفسه فقد عصى مولاه وأهانها حين اتبع بذلك هواه والله تعالى قد نهاه بلسان الإشارة عن طاعة نفسه حيث بين له عداوتها فى قوله « إن النفس لأمارة بالسوء » ، ونهاه فى آيات متعددة عن طاعة أعدائه كالشيطان والنفس الأمارة بالسوء والدنيا والهوى ، قال تعالى « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » وقال تعالى « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » فكل مريد جنح إلى طاعة واحد من هؤلاء فهو عاص بمخالفته لأمر ربه ومن خالف لا يفلح أبدا وحق له أن يهان وينادى بالتصغير جزاء بما كسب نكالا من الله حتى يتوب ومن تاب غفرت ذنوبه . وكبر شأنه حين قبله محبوبه .

واعلم أن كل من هوى إليه قلبه أى مال إليه قلبه فقد اتخذه معبوداً من دون الله تعالى بنص قوله جل شأنه وعلا « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » وعنوان الاتخاذ طاعة المتخذ ومن ثمة اتخذت الكفار ما نأمرهم به الأصنام فرضاً لازما وأطاعوهم فيما أمروهم به وتركوا ما أمرهم الله به من الإيمان بالله ورسوله ، ونظيرهم من المؤمنين من ائتمر لنفسه وأطاعها فى كل ما تأمره به وتنهاه عنه ولم يكتف بأمر الله له ونهيه الوارد فى الكتاب المنزل على نبيه حتى استحق بسبب ذلك أن ينظم يوم الجزاء فى سلك قوله تعالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ولا شك أن كل من أطاع نفسه فهو الظالم والكافر أى الساتر طاعة ربه بطاعة نفسه ومتابعة هواه ومن فعل ذلك فليس له مكفر إلا دخول النار ، قال تعالى « إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا » .

يحكى أن مجذوبا وقف على جماعة يتذاكرون فى الدنيا فقال لهم إن إلهكم الذى تعبدونه تحت قدمى هاتين فأخذوه ومضوا به إلى حاكم البلد وأخبروه بما قال فأطرق رأسه ساعة وكان هذا الحاكم صاحب مفكرة جيدة ثم رفعه وأمرهم أن يذهبوا ويحفروا الموضع الذى كان واقفا عليه وينظروا ماذا يجدون فيه ويخبرونه به فلما مضوا إليه وحفروه وجدوا كنزا فجاؤا إليه وأخبروه بذلك ، فقال لهم أرأيتم صدق الرجل أم إلى الآن فما وسعهم إلا ان قالوا صدق وقبلوا جميعا يده وأطلقوه . ومر رجل من الصالحين على شخص من عبيد حاكم البلد يضرب إنسانا ظلماً وعدوانا فسأل بعض الناس من يكون هذا ؟ فقالوا له هذا عبد من عبيد حاكم البلد ، فقال صدقتم لو كان عبد الله حقاً ما فعل ذلك .

واعلم أنه لما كانت النصيحة جامعة لجميع ماهو مفصل فى الدين من أجزاء الخير بنص قوله عليه السلام « الدين النصيحة » نصح الأستاذ رضى الله عنه كل مريد صادق عن تعلقه بأسباب التسويف والترجى لأنهما من الأمانى الفاسدة وناداه بلفظ التصغير لينتبه لنفسه ويخرج عن طاعتها مادام هو فى

طلب الكمال سائرا على تجانب التوجه والإقبال وليتفقه أن النفس لا تؤمن مالم تبلغ إلى درجة أهل الكمال من الرجال .

واعلم يا أخي أن النفس دسائس في غاية الخفاء مادامت في ظلمة الجهل، والشيطان مادامت هي متصفة به يتسلط عليها بأقوال ظاهرها حسن وباطنها بخلاف ذلك فتركوه لأحواله ظنا به خيراً وسبب ذلك كله عدم اتصافه بالعلم وتعليمه كذلك اعتمادا على ظاهر لفظه وتشير إلى المريد بفعل مايأمرها به وينهاها عنه فإذا اعتمد المريد قولها ألجأه اعتماده إلى ترك طاعة أو إلى مافيه معصية فيضل كما ضلت ويوخذان معاً من حيث لا يشعران وربما تشير إذا رأته متوجهاً للعبادة بتركها وتوحي له بما أوحى الشيطان إليها من الكلام المستحسن في الظاهر مثال ذلك بأن تقول له اترك العبادة الآن وتوجه في تحصيل شيء تقوت به نفسك حتى تتقوى على طاعة ربك واكتسب لعيالك ماتدخره لهم من القوت ليطمئن قلبك وتتفرغ للعبادة وتسلم من الإثم الوارد في حق من ضيع أهله وجعلهم عيلة على الناس وهو قوله صلى الله عليه وسلم «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول» فيرى هذا الكلام حسنا خصوصاً لما استدلت له على ذلك بالحديث فيترك العمل اتكالا على فسحة الأجل خصوصاً إذا غلبت عليه جانب الرجاء في طول العمر ومن ثمة نبه الناظم على ترك التسويف والترجي إشارة إلى أن الأجل المحتوم مجهول وقوعه بدليل قوله سبحانه وتعالى «وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت» وكان الصديق الأكبر رضي الله عنه يقول :

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

ولو تفطن هذا المغتر بكلامها إلى معنى قوله تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون» أي بأن يرزق بعضهم بعضا ويطعم بعضهم بعضا إن الله هو الرزاق مبالغة في الرزق لتقوية يقينهم ذو القوة على أن يرزق كل فرد من مخلوقاته من جهة

لا يحتسب المتين فلا يشغله رزق أحد عن أحد فلو ألقى سمعه هذا المغتر لمعنى هذه الآية وفهمه لما اغتر بتحسين كلامها وترك العمل بل يجادلها بالتي هي أحسن وردها عما توهمت من ترك الأسباب ويستدل عليها بقوله عليه الصلاة والسلام لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا هذا إذا لم تكتف بقول الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وقوله عز من قائل « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه ما أهمه فإن قلت قد ورد فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ينبغى للشخص أن يدخر قوت سنة فاعلم أن الجمع بين الآيات ومعنى الأحاديث المسابقة أن النبى صلى الله عليه وسلم لما كان عالما بأن من أمته من يكون يقينه ضعيفا ومنهم من يكون يقينه قويا خاطب كلا من الفريقين بما يناسب حاله ودليله « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » فالعوام خاطبهم الحق ودلهم رسوله على تعاطى الأسباب والعارفون المحققون خوطبوا بتركها لقوة إيمانهم وعدالله وضمانه أولئك هم المؤمنون حقا بضمان الله لهم الوارد فى شأنهم والذين آمنوا بأن لا حى ولا معطى ولا مانع ولا دافع ولا ضار ولا موجود فى الوجود إلا الله المعبود وهاجروا إليه لما تحققوا بأن الغير عدم وتركوا كل ما سواه وجاهدوا نفوسهم بسيف مخالفة شهودها لكل ما عداه ، وأماتوها فى سبيله ابتغاء لمرضاة الله ، فطوبى لهم بلقاء الله يوم الجزاء وحشر العباد إلى الله .

واعلم يا أخى أنه لما كان التسويف والترجى من صفة الغفلة المستلزمة للسهو والسهو يجر إلى النوم والنوم من موت القلب، حذر الناظم رضى الله عنه منهما بعد ما شبههما بالنوم وأنزلهما منزلته فقال فما كان صب أى محب بالمنا ، أى بما يتمناه من الوصل والتقريب من حضرة القريب المجيب ، وهو هاجع على فرش التسويف ومتوسد وسائد الرجاء ، فافهم إشارات الأستاذ ، ولا تمل إلى قول أهل الإنكار والعناد لكى يسلم لك اعتقادك من الفساد ، والله

الهادى إلى سبيل الرشاد ، ثم قال رضى الله عنه وأرضاه ، وسقى بماء ثراه ، آمين :

وأزْكَى صَلَاةٍ مَاتَنَفَّسَت الصَّبَا

وما رَقَصَتْ بالرقمتين يَوَانِعُ

الرقمان جبلان متقابلان بالمدينة المنورة واليوانع هى الأشجار المورقة المزهرة ويحتمل أن يكون أراد بالرقمتين الجنبين واليوانع العقل والسر والقلب والروح لأن القلب والعقل والسر فى الجانب الأيسر من الجنبين والروح بينهما وكنى عن الجمع باليوانع لأنها فى الحقيقة هى زينة الله التى كمل بها نظام هذا الهيكل الإنسانى والرقص هو عبارة عن توجهاتها بحركاتها المناسبة إلى شهود الجمال المطلق إذا أطربها الشادى بذكره وهو الذى كنى عنه الناظم بقوله رضى الله عنه إذا هبت الصبا لأنه كما أن بالصبا تتحرك الذوات كذلك بالذكر تتحرك القلوب وكنيت عن الحركة بالطرب لكونها نتيجته فمن طرب قلبه تحركت جوارحه والطرب الشوق وختم الناظم الكتاب بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم كما بدأ بها إشارة إلى أنه هو الفاتح الخاتم أو إلى أن كل كتاب إذا كان مبدوءا بالصلاة على المختار ومختوماً بها يكون مقبولا كما أن الدعاء إذا افتتح بالصلاة عليه وختم بها كان مقبولا . قوله وأزكى صلاة التزكية هى التخليص تقول زكيت الذهب إذا خلصته من الأوساخ فقوله أزكى صلاة أى أصلى صلاة خالصة من الرياء وخالصة لله لا أبغى بها عوضاً لأنى أشهد أن المصلى هو على نفسه بنفسه بالرقيقة السارية منه فى ذاتى ونوره المنوط بها القائمة به جميع صفاتى . أو المعنى لا أبغى بها عوضاً لأنى عبد مأمور بالصلاة عليه . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » وقوله « ما تنفست الصبا » واختار ذكر الصبا دون غيره من الأهوية لأنه من نسيم الجنة ولذلك تجده يهب فى الأسحار . لأن ذلك الوقت وقت تجلى الجبار .

ومن ثمة ما من حيوان فى ذلك الوقت سواء كان من أنس أو بهيمة أو جان إلا ويستلذ به ويتروح به قلبه . ويذكر الله حين يستنشق عرفه إما لسانه وإما لبه . ودليل ذلك صوت حركات الأشجار فى ذلك الوقت بالتسبيح وترجيع الطيور به فيه فى أوكارها ومناجاة المحبين بلسان طلق فصيح . وقوله . وما رقصت بارقة بين بر انعم ، إشارة إلى طربها الباعث له الشوق إلى ذكر المحبوب . حين نشق رائحة نسيم رياض رحمته يهب من الجانب القدسى لأرباب القلوب . والرقص هو حركة الجسم بفعل مخصوص . وقدره وكيفيته فى كتب السادة الصوفية عليهما منصوص . والصلاة من الله معناها الرحمة ومن الملائكة استغفار له ودليله قوله تعالى ، ويستغفرون لمن فى الأرض ،فإن قلت إن النبى معصوم كيف يستغفرون له ؟فالجواب أن يكون ذلك زيادة فى ترقيه وفيه إشارة إلى أن الكرن برمته يطلب منه على ذلك أن يكافئه . لأنه المحبوب الأعظم صاحب الجاه المقبول ، الذى لا يتوصل كل أحد إلا بواسطته فى حصول المسئول .

وأما صلاة المؤمنين عليه فهى دعاء له بحصول قرة عينه فى أمته وهى حفظهم فى الدنيا من نزول العذاب . والبلاء الذى كان ينزل على الأمم السابقة ودخولهم فى دار كرامة الحق ومستقر رحمته فى المآب . ومعنى صلاتهم عليه . وتقديرها قبل تقديمها بين يديه . أى اللهم ادخل السرور على قلب سيدنا محمد بظهور آثار رحمتك على أمته وارحمهم بها بعد ظهورهم من عالم الاستتار والأفول . كما رحمتهم بسابق العناية فى قدمك بتوفيقك لهم بالإجابة والقبول . حين قلت ألست بربكم فقالوا بلى واظهرت كل فرد منهم فى عالم الشهادة على طبق ما به أجاب صلاة دائمة بدوام ذاتك السرمدية . تعداد مظاهر أسماء الذات العلية . وآثار صفات الحضرة الغيبية . وتعداد ما هبت نسيم الصبا السحرية من الحضرة القدسية ، فى الأوقات السحرية . وتعداد ما تحركت به أغصان رياحين القلوب . وتفتقت أزهار المحبة فى ميادين الغيوب . فظهر من هذه الترجمة كلها أن صلاتهم عليه فى الظاهر دعاء له وحقيقتها دعاء لهم لغنائه عنها

بشهود الذات العلية التى ليس وراءها مرمى عن حصول المقامات التى هى فى الحقيقة دونها فافهم ذلك ولكونه أيضاً مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ومن ثمة قالوا ثواب الصلاة يعود إلى المصلى لأنه عليه السلام غنى عن ذلك كله بدوام شهود الذات المخصوص به والله أعلم . ثم قال رضى الله عنه طمعاً فى كثرة الثواب . المتوقف على كثرة الصلاة على سيد الأحباب .

وما نَفَضَتْ خدَّ الربيعِ بنثْرِها
دموعُ عُيونِ المُزْنِ وهى هَوَامِعُ

أى وصل اللهم على سيدنا محمد ألف الأحدية وحاء الوحدة وميم الصمدانية ودال الواحدية وحاء حماية تعينات الذرات الكونية تعداد ما نفضت صفحات أوراق الأشجار . وخد الربيع مما يلى الفلك الدوار . بحبات لؤلؤ مدامعها محاجر الغمام . وحلتهما بعقد من جمانها فأصبح كل منهما حسنه فى غاية النظام . وتعداد ما نمقت به بساط الوجود . حالة كونها ناثرة عليه أفراده من العيون الهوامع الساهيات السود . ثم قال رضى الله عنه :

عَلَى أحْمَدَ والآلِ والصَّحْبِ ما انْجَلَتْ
ظُهَرَتُ وشَمْسِى فى البَرِيَّةِ ساطِعُ

أى وصل اللهم على ألف الجمال المطلق . وحاء الرحمة وحلمك القديم الأسبق . وميم الكمال الأوحد . ودال دوامك السرمد . على أحمد الصفات ، وأحدى الذات . محمدك المحمود فى الأرض والسموات . ومركز نظرك المشهود لك فى جميع الذرات ، وعلى آله لمعة نور التجلى الأول ، وأصحابه بارقة هيولى سرك من علمه المعول . ما تحرك بنثر جواهر عقد النفحة

القدسية بنان . وروح حاد بنشر محاسن حسنها جنان وما تليت بكل محفل أنيس . ظهرت بأمر من حضرة ذى التقديس . وشمس ذكرى بالولاية نورها فى البرية ساطع ، ومنشور تحف لطائفها فى الخافقين ضائع .

والحمد لله رب العالمين . المتفضل بكرمه على عباده المحسنين . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإخوانه من الأنبياء والمرسلين ، وآله وصحبه أجمعين ، وعلى جميع عباد الله الصالحين .

[تم بعون الله]

مراجع مقدمة الكتاب

١ ــ أزاهير الرياض فى مناقب قطب الزمان سيدى الشيخ أحمد الطيب ابن البشير تأليف سيدى الشيخ عبد المحمود بن سيدى الشيخ نور الدايم الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٧٣ م .

٢ ــ تاريخ الأدب العربى ـ كارل بروكلمان (النص الألمانى) .

٣ ــ درة عقد جيد الزمان وفيض مواهب الرحمن للشيخ محمد تقى الدين عمر بن عبد القادر أمين الزرعى ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ١٩٧٣ م .

٤ ــ سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى القاهرة ، مطبعة بولاق .

٥ ــ فهرس دار الكتب المصرية ـ الجزء الأول . القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية

٦ ــ فهرس مكتبة الأزهر ـ الجزء السادس .

٧ ــ ملحق فهرس مكتبة باتافيا بجاكارتا بأندونيسيا .